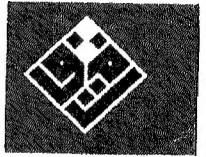


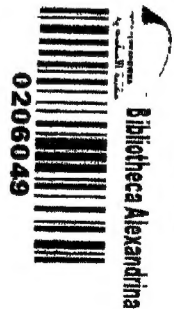
دین مصد العالم

محمد حسین هیکل

ترجمه عن الفرنسية : أحمد محمد حسین هیکل



المشروع الوقوف للترجمة



26

محمد حسين هيكل

دين مصر العام

ترجمه عن الفرنسية

أحمد محمد حسين هيكل



LA DETTE PUBLIQUE EGYPTIENNE

PAR

Mohamed Hussein Haekal

DOCTEUR EN DROIT

PARIS

LIBRAIRIE NOUVELLE DE DROIT ET DE JURISPRUDENCE

ARTHUR ROUSSEAU

EDITEUR

14, rue Soufflot, et rue Toullier, 13

1912

تمهيد

بقلم

أحمد محمد حسين هيكل

المحامى

[إن معرفة الماضى هى التى
تطوع لنا تصور المستقبل وتوجيه جهودنا
أثناءه إلى الغاية الجديرة بالإنسانية ،
فالماضى والحاضر والمستقبل وحدة لا
سبيل إلى انفصامها]
محمد حسين هيكل

عرف الناس الدكتور محمد حسين هيكل مفكرا وأديبا ومؤرخا وصحفيًا
وسياسيًا ، لكن أغلبهم لم يعرفوه دارسا وأستاذًا للقانون والاقتصاد فى الجامعة
المصرية القديمة . وإذا كان الناس قد عرفوه واطلعوا على الكثير من مؤلفاته التى
ذاعت واشتهرت ، فانهم لم يتح لهم الاطلاع على مؤلفه الأول الذى سبق كل أعماله
الأخرى ، وهو كتابه عن "دين مصر العام" ، رغم أن هذا الكتاب يتصدر قائمة
مؤلفاته منذ زمن بعيد .

ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان دين مصر العام موضوعا للرسالة التى وضعها
باللغة الفرنسية وتقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون
بباريس فى سنة ١٩١٢ ، بعد أن قضى بها ما يقرب من ثلاث سنوات دارسا وباحثا
ومفكرا فيما يشهد من مظاهر الحضارة الأوروبية الحديثة . ذلك أن هذه السنوات
كانت بالنسبة له أكثر من مجرد مرحلة للدراسة الأكاديمية ، رغم أن هذه الدراسة
كانت هى السبب الأساسى الذى سافر من أجله .

ويتحدث الدكتور هيكل عن أهمية هذه المرحلة في حياته قائلا (١) :
"وكان وصولنا باريس يوم ١٣ من يوليو سنة ١٩٠٩ ، عشية عيد الحرية .
وكانت بشائر العيد تنتظم مدينة النور ، وتضفي عليها حلة من ساطع البهاء
والرواء . فلما كان الغد - ١٤ من يوليو - انقلبت الشوارع مراقص عامة ، وجعل
الناس يقبل بعضهم بعضا رجالا ونساء ، ابتهاجا بيوم الحرية وسقوط الاستبداد في سنة
١٧٨٩ ، أى قبل ذلك بمائة وعشرين سنة ؛ فكان لهذا المنظر أثر أبلغ الأثر في نفسى
؛ لأننى رأيت حرية الأفراد وحرية الوطن مجسمتين أمام عينيّ على نحو لم ألقه فى
وطنى قط .. " ومرت الأيام بعد ذلك وأنا أرى فى مدينة النور ألوانا من الحياة تنسج
أمام النظر آفاق التفكير ، وتزيد الانسان ايمانا بحرية العقيدة والرأى ، وبأن التعصب
ذميم ، وأن أول واجب على الانسان أن يديم البحث عن الحقيقة ، وألا يكتفى بما يظن
أنه وصل اليه منها ، بل يجعل دأبه تقليب هذا الذى وصل اليه ، فينفى عنه ما يعلق به
من زيف، ويرى من خلاله آفاقا جديدة لهذه الحقيقة العظمى تتراعى لنا من وراء
الحجب "

ثم يقول فى موضع آخر :

" انتهت السنة الدراسية ، وأن لى أن أختار موضوع رسالتى للدكتوراه .
ولما كان التشريع للعمل والعمال من أهم ما تناوله الجانب الاقتصادى من دراساتنا
للدكتوراه ، فقد رأيت أن يكون موضوع الرسالة تشريع العمل والعمال فى مصر .
وحسبت أننى اذا عدت إلى القاهرة وجدت فى هذا التشريع ما يكفى لرسالة أتناول فيها
الموضوع ، وأقترح ما أراه لمصلحة الصناعة والعمال فى مصر . وعدت إلى أرض
الوطن ، ممتلئا أملا أن أجد فى بحث هذا الموضوع ما يتيح لى أن ألقى ضوءا جديدا
على جانب من حياتنا الاقتصادية والاجتماعية يفيد مجموعنا المصرى أجزل الفائدة .
وما كان أشد عجبى ، حين تحدثت إلى رجال القانون من محامين وأساتذة فى الحقوق،
أذ رأيت تشريع العمل والعمال بمصر فى ذلك العهد لا يتجاوز بعض مواد خاصة
بتشغيل النساء والأطفال فى محالج القطن ! أما فيما وراء ذلك فالمادة فقيرة لا تصلح

(١) محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية - الجزء الأول ، طبعة دار المعارف ص ٣٦

موضوع رسالة للدكتوراه بحال من الأحوال . ولم أجد بدا من العدول عن هذا الموضوع ، وان كان هذا الفقر فى التشريع للعمل والعمال قد فتح عينى على ما نحن بحاجة اليه فى حياتنا العامة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية .⁷

" قرب موعد عودتى إلى باريس لأكتب رسالة الدكتوراه . واذ رأيت موضوع التشريع المصرى للعمل والعمال مجدبا لا يصلح موضوعا لرسالة ، فقد اخترت موضوعا لرسالتى "(دين مصر العام) ، وعرضت الأمر على أستاذى فى الاقتصاد ، الأستاذ "لارنود" ، فوافق على الموضوع الجديد وشجعنى عليه . ومن يومئذ جعلت أقرأ كل ما كتب عن مصر الحديثة من عهد محمد على رأس الأسرة العلوية ، وأعيد النظر فيما سبق لى قراءته . قرأت ما كتب بالانجليزية وبالفرنسية ، وقرأت الوثائق الرسمية فى الكتاب الأصغر الفرنسى ، والكتاب الأزرق الانجليزى . وراجعت بعض الكتب العربية كتاريخ الجبرتى وتاريخ ابن اياس . وراجعت الوثائق الرسمية التركية والمصرية فى قاموس الادارة وبعض سجلاته . ولم أترك كتابا استطعت الاستفادة منه لموضوع رسالتى الا قرأته . وكنت أقرأ هذه الكتب والوثائق جميعا بشوق وشغف ، وأقتطف منها ما يفيدنى بدقة وعناية . وكنت لذلك أشتغل منذ السابعة صباحا بغرفتى ، فاذا كانت التاسعة ذهبت إلى مكتبة كلية الحقوق أو المكتبة الأهلية فى باريس . وكنت أتناول وجبة الغداء على مقربة من أى هاتين المكتبتين ، ثم أعود لأتم ما أطلع وما أقتطف حتى المساء . وبعد أن أتناول طعام العشاء وأقضى سوية فى مقهى ، أتناول قهوة وأستمع إلى الموسيقى ، أعود إلى مسكنى فأراجع ما اقتطفته وأنقده ، وأؤلف بين المؤلف منه وأظهر اختلاف المختلف . فقد كانت الحوادث والوثائق تؤول عند كل مؤلف حسب هواه السياسى فى الموقف الذى كتب فيه ، وكان تاريخ مصر لذلك مضطربا أشد الاضطراب ؛ يكتبه الفرنسى على نحو ، والانجليزى على نحو ، والمصرى على نحو . أما وقد درسنا نحن هذا التاريخ على الصورة التى أرادت السياسة البريطانية أن تضعها ، فكان لزاما على أن أنقصى الحقيقة ما استطعت ، وأن أرسم أمام ذهنى صورة لهذا الوطن فى القرن الذى ولدت فيه أستطيع من خلالها أن أثبت الحق من أمره ، وأن أترسم الطريق الذى سار فيه حكامه الأجانب عنه ، وأبنائهم الخاضعون لاستبداد هؤلاء الحكام ، وما اقترفه هؤلاء وأولئك من خير وشر . وقد أعاننى على ذلك حب عميق لهذا الوطن ، وحرص على الحقيقة العلمية المجردة من

الأهواء والشهوات ، يضاف إلى ذلك زهو شاب يريد أن يجيد كل الاجادة وأن يتقن غاية الاتقان .

" كان لهذه المطالعات أثر كبير فى اتجاه تفكيرى فى سياسة بلادى . لقد ازدادت احاطة بالعوامل التى أدت بها إلى الوضع الذى هى فيه ، وتقديرا لما يجب على أبنائها عمله لخيرها ، كما قدرت أن للسياسة الدولية أثرها الكبير فى حياة الأمم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وزادنى علما بهذا الأمر اطلاعى على كتب لجبريل هانوتو ولغيره من الساسة الفرنسيين عن اتجاه السياسة فى أوروبا ، سواء أكان هذا الاتجاه استعماريا أم كان فى علاقة دول أوروبا بعضها ببعض . على أن ذلك كله كان يصطبغ فى تفكيرى بمنطق سنى يومئذ ، وكان منطقاً أثر العقل فيه أكبر من أثر العاطفة ، ولكنه كان على كل حال تفكير شاب لما يمارس الحياة ولما يقف على تصاريقها الا من خلال ما قرأ . فأما ما رأى من حوادث الحياة ، فقليل بالقىاس إلى هذا الخضم الضخم الذى تضطرب فيه السياسة العالمية ، وتتأثر به الدول كبيرها وصغيرها على السواء . "

ليس لى بعد هذا الاقتباس الطويل الذى قصدت أن يكون هو جوهر هذا التمهيد أن أعود للحديث عما كان لاعداد هذا الكتاب من أهمية فى تشكيل فكر الدكتور هيكل وفى حياته العملية من بعد . ولكنى أود مع ذلك أن أشير بوجه خاص إلى الارتباط الوثيق بينه وبين ترجمته للخدوى اسماعيل ثم للخدوى توفيق ، وهما الترجمتان المنشورتان فى كتابه "تراجم مصرىة وغربية" .

ويأتى هذا الكتاب ليشكل الضلع الثالث - أو الأول ان شئت - فى مثلث الأعمال الرئيسية التى قام بها الدكتور هيكل خلال اقامته بباريس فى ذلك الوقت . أما الضلع الأول فهو روايته الشهيرة "زينب" التى افتتح بها طريق الرواية فى الأدب العربى الحديث ، والضلع الثانى هو كتابه "مذكرات الشباب" الذى يضم قسمه الأكبر يومياته فى باريس التى تناول فيها من المشاهدات والقضايا الكثير مما كان يشغل بال المثقف المصرى فى ذلك العهد والتى لا زال الكثير منها يشغله إلى اليوم . وقد ظلت "مذكرات الشباب" مخطوطة هى الأخرى حتى عهد قريب إلى أن أتيت لها أن تنشر فى كتاب أصدره المجلس الأعلى للثقافة فى ديسمبر ١٩٩٦ وحظى باستقبال عظيم من

القراء والنقاد على السواء . وقد شجعتنى هذا الاستقبال على المضى فيما كنت قد شرعت فيه منذ زمن طويل ، ثم حالت الظروف بينى وبين الاستمرار فيه ، من نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية عن أصله بالفرنسية لتكتمل بذلك أضلاع المثلث الذى أشرت إليه .

وإذا كان لنا أن نصنف هذا الكتاب فى جانب من الجوانب التى عنى بها الدكتور هيكل فى كتاباته ، وهى كثيرة ومتنوعة ، فربما يكون الأقرب إلى الدقة أن نقول أنه يتناول الديون المصرية من الناحية التاريخية/السياسية . ولا يخفى ما كان لهذه الديون من أثر فى حياة مصر إذ كانت هى التى فتحت الباب أمام التدخل الأوروبى ثم الاحتلال الانجليزى لمصر . وإذا كان للديون مثل هذا الأثر الخطير فى حياة مصر وتاريخها فإن دراستها ، والتعمق فى هذه الدراسة ، تصبح أمرا ضروريا . ويقول الدكتور هيكل فى تقديمه لرسالته فى سنة ١٩١٢ "أنه مما يؤسف له ألا يكون هناك مؤلف واحد تناول المسألة المصرية من وجهة النظر المصرية وبالحيدة اللازمة" . ولعل هذا المؤلف قد جاء فى زمانه ليسد جانبا من هذا النقص الشديد .

ورب سائل يتساءل ، رغم ما تقدم ، لماذا يصدر هذا الكتاب اليوم بالعربية بعد أن مضى على تأليفه هذا الزمن الطويل ومضى على وفاة صاحبه أكثر من أربعين عاما ؟ . والجواب على هذا التساؤل أن الدراسة التاريخية لا موعدها ، لاسيما إذا كانت تتناول أمرا له مثل هذه الخطورة فى تاريخ مصر الحديث . ولئن كان نقل هذا الكتاب إلى العربية كان يجب أن يتم منذ زمن طويل ، فإن تصحيح الأمر اليوم هو بمثابة الرجوع إلى الحق ، والرجوع إلى الحق فضيلة مهما طال الزمن .

أضف إلى هذا أن مسألة الديون المصرية ، وما ارتبط بها من عوامل وأثار سياسية مهمة ، قد لا تكون من الواضوح فى أذهان الشباب اليوم بالقدر الذى يسمح بتفسير الكثير من الظواهر التى أعاققت التنمية فى مصر عن أن تسير سيرها الطبيعى ، منذ أواخر القرن الماضى ، على النحو الذى كان يريده أبنائها المخلصين لها . لنأخذ مثلا على ذلك المحاكم المختلطة التى اعتدنا على اعتبارها رمزا كريها للسيطرة الأجنبية . فإذا علمنا أنها جاءت فى سنة ١٨٧٥ لتحل محل المحاكم القنصلية ، ولتقلص من اختصاصها فى شئون الأجانب وامتيازاتهم ، لأدركنا أنها كانت - فى حينها - خطوة إلى الأمام وإن ظلت مظهرا خطيرا للسيطرة الأجنبية .

ولعل ما أحدثته التدخل الأجنبي بسبب الديون فى مرحلة من مراحل تاريخنا الاقتصادى يمكن أن يشكل ، رغم الاختلاف الشديد فى الظروف الداخلية والدولية ، تجربة نستطيع أن نستخلص منها اليوم دروسا تجنبنا الزلل فى الوقت الذى تتفتح فيه أسواقنا المالية على العالم ، بل تندمج فيه ، بشكل لم يسبق له مثيل . فالدافع إلى التدخل دائما هو السيطرة ، وكانت تتخذ الشكل العسكرى فى الماضى ، ولكنها أصبحت تتخذ فى عالم اليوم - وفى عالم الغد - الشكل الاقتصادى والمالى الذى تصدره بالدرجة الأولى رؤوس الأموال العابرة للقارات والمحيطات والتى تتخذ من العالم كله ميدانا لنشاطها . وهى ترمى إلى السيطرة على الأسواق والتحكم فى المعاملات لاسيما فى البلدان التى لا يقوى الاقتصاد فيها على توجيهها أو مجابته . وهذه المعاملات تجلب معها تغييرا فى أنماط السلوك ، وربما فى الهوية نفسها ، بما يتعين علينا لمواجهته والاستفادة منه على نحو سليم أن نتسلح بكل الأدوات الممكنة وفى مقدمتها معرفة دقيقة بماضيها لأن " معرفة الماضى - كما يقول الدكتور هيكل - هى وسيلتنا لتشخيص الحاضر ولتنظيم المستقبل ، كما أن معرفة الطبيب ماضى مريضه خير وسائل التشخيص والعلاج " (١) .

وأرجو أن يساهم نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية فى هذه المهمة السامية .

أحمد محمد حسين هيكل
المحامى

٢٥ مارس ١٩٩٧

(١) محمد حسين هيكل ، الصديق أبوبكر ، ص ١١

دين مصر العام

مقدمة

إن وضع مصر الدولي اليوم وضع معقد من الناحية القانونية . فلا هي بإقليم مستقل ، ولا هي مستعمرة ، ولا هي بلد خاضع للحماية . وهي ، من جهة أخرى ، لا تتمتع بأى كيان سياسى يمكن تعريفه تعريفا محددًا فى القانون الدولي . "فهى دولة تابعة اسميا لتركيا ، ولكنها فى حوزة إنجلترا من الناحية الفعلية ، وتخضع لنظام حماية بحكم الأمر الواقع" ^(١) . فماذا يمكن أن يطلق على مثل هذا الوضع المعقد ؟ . إن من الصعوبة بمكان ايجاد وصف محدد لهذا الوضع الذى يرجع الى سنة ١٨٨٢ ، أى العام الذى دخل فيه الإنجليز الى مصر ، بحجة اعادة النظام اليها ، كما كانوا يقولون ، ولمساندة سلطة الخديوى . ومنذ ذلك الحين ، ورغم استتباب النظام بها ، وعلى خلاف جميع الاتفاقات الدولية ، فإن الإنجليز لا يزالون باقين فى مصر رغم أنف الجميع . وكانت مصر ، قبل الاحتلال الإنجليزى ، بلدا تابعا لتركيا لكن استقلالها الإدارى تطور منذ عهد محمد على الذى تحقق هذا الاستقلال على يديه . أما قبل ذلك فكانت ولاية عثمانية تابعة لتركيا فى كل شىء ، لا أكثر ولا أقل .

وبعد قدوم محمد على تحقق لمصر استقلال ادارى داخلى مشروط بأن تدفع الجزية إلى الباب العالي . أما بالنسبة إلى شئونها الخارجية فقد ظلت تابعة تبعية كاملة . فهل كان يعتبر إبرام قرض شأنا من الشئون الخارجية ؟ لم يتعرض الفرمان الصادر لمحمد على لهذا الموضوع ، الأمر الذى يجعلنا نتردد للوهلة الأولى فى الاجابة على هذا السؤال . وقد جاء فى الفرمان : "أنه لما كان بابنا العالى ملتزما بالتعرف على نحو دقيق على الإيرادات السنوية لمصر ، وطريقة جباية العشور والضرائب الأخرى فيها ، ولما لم يكن من سبيل الى ذلك الا بقيام المراقبة اللازمة فى الولاية المذكورة ، فإننا سنتخذ لهذا الغرض التدابير التى سنبلغكم بها بموجب مرسوم امبراطوري" . ولا يمكن أن نقول ، فى ضوء هذه العبارات ، أنه كان من حق الباشا الاقتراض . وقد

^(١) موريل ، مجلة القانون الدولي العام ، ١٩٠٧ ، ص ٤١١

صدق الواقع العملى هذا الرأى ، إذ كان لابد لمصر فى كل مرة تلجأ فيها الى الاقتراض أن تحصل على موافقة السلطان ، واستمر الأمر على هذا النحو حتى حصل اسماعيل على هذا الحق من قبل سيده المعظم . فماذا كانت مصر تفعل حين تحتاج الى المال - وكانت محتاجة اليه قطعاً -- لتحقيق طموحات محمد على ؟ . كان الباشا يلجأ الى الإقراض الإجبارى . يذكر الجبرتى فى "تاريخ مصر" المثال التالى الذى حدث فى سنة ١٨٠٨ ، أى قبل اتفاقية لندن بكثير : "طلب الباشا الى التجار ألفى كيس على سبيل القرض . وقسم هذا العدد على الأشراف وتجار البن وأسواق الصابون وأسواق التفاح وغيرها . كانت السلع تحتجز والجند يمنعون اخراج أى شىء من المخازن ما لم يكن ذلك بقصد إعطائه لهم . على الرغم من أنه لم يكن يزيد على جانب فقط مما طلب إليهم تقديمه . وكان المال يطلب بعد ذلك ممن يظن فيهم الثراء . كان الجبابة يفاجئونهم فى بيوتهم وبأيديهم الأوامر . وكان الذين لا يدفعون يساقون الى السجن ويبقون فيه حتى يتم الدفع . وقد تملك الشعب رعب شديد . كانت هذه المبالغ تفرض كذلك على تجار أفلسوا ، بعد أن كانوا أغنياء ، نتيجة للاضطرابات الأخيرة . فلم يكن بوسع هؤلاء أن يدفعوا شيئاً بطبيعة الحال ، ولكنهم كانوا يساقون مع ذلك الى السجن . وفضلاً عن الأشراف والتجار ، فإن الجبابة كانوا ينقلبون الى القرى ويفرضون عليها مالا تطيق مما كان يؤدى الى الخراب . وقد هرب كثيرون نتيجة لهذه الأوضاع الشنيعة ، وظلت كثير من البيوت خاوية تماماً" . وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن هذه الأساليب نفسها كانت تتبع كلما بدت الحاجة الى المال.

لم يكن دخل مصر يومئذ يتجاوز المليون ، ولم يكن أمام الباشا وطموحاته العريضة من خيار إلا ذلك ، بل ربما رأى ذلك ضروريا لخير البلاد . أفلم يكن العمل على أن تكون مصر مستقلة قوية ، وأن تنتشر فى ربوعها فى زمن قصير حضارة أوروبية من كل وجوها ، يساوى أن يتعرض أهلها للقهَر بضع سنوات . وبالفعل وصل الباشا الكبير بمصر فى فترة وجيزة الى قمة عظمتها ، وكانت مصر تبدو جديدة تماماً أمام العالم ، مصر الفاتحة المضيافة . كان هذا بعثاً جديداً ، وبدا الأمر كما لو أن شيئاً راكداً لا تراه العين تدفق فجأة فى عروق هذا البلد العريق الذى ينهض لييهز العالم من جديد . بدأت حركة دافقة مليئة بالحياة تهز مصر وكان محورها هو محمد على . كانت كل خلية فى كيان مصر تعمل وتتمو . كانت الفكرة المسيطرة على

حاكمها الجديد هي أن يستزرع فيها الحضارة الأوروبية . وكان النجاح مضمونا وساهم كثير من الأوروبيين في هذا العمل الانساني المتحضر . لكن هذا الحلم الجميل لم يطل مع الأسف . فأوروبا لا تحتل رؤية مثل هذا المشهد الرائع في بلد غير أوروبى ، فتألفت وسحقت مصر ومحمد على في معركة نفارين ، وسحقتها مرة أخرى باتفاقية لندن . على أن نعمة محمد على على أوروبا لم تغير من الفكرة التى سيطرت عليه ، فظل صديقا دائما للحضارة الأوروبية .

دارت هذه الفكرة نفسها بذهن ابنه سعيد باشا الذى كان أقل تفتحاً بكثير من ذهن أبيه . لكنها دارت فيه بغير تعقل وبغير تنظيم وبفهم وتطبيق سيئين . لقد اجتذب الأوروبيين بكل الوسائل الممكنة وفتح لهم ذراعيه وقدم لهم تنازلات ضخمة . وقام بفضل مساعدتهم ، التى لم تخل من المصلحة الذاتية ، بعقد القرض الأول الذى أصبح نقطة البداية في خراب مصر وبؤسها .

تملكت هذه الفكرة ذاتها ، بقوة أكبر ، من خلفه إسماعيل باشا نفسه . وكانت تقترن بها فكرة أخرى ، فقد كان يحلم بالحصول على استقلال مصر كاملا . لكن مثال جده كان أمام ناظريه ، وكان يعرف أن من المستحيل تحقيق ذلك بالقوة المسلحة ، لذا صمم على الحصول على هذه الحقوق الواحد تلو الآخر حتى يصل إلى الاستقلال فى النهاية . وقد كلفته هذه التنازلات كثيرا ، وكانت تشكل عبئا يضاف إلى عبء الإدارة . ووجد طريق الاقتراض مفتوحا أمامه فسارع إليه وظل يعدو فيه إلى النهاية . وحتى يتمكن من سداد القروض كان لابد أن يلجأ إلى الضرائب . ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا تلك الكلمة التى وجهها كولبير إلى لاموانيون عند خروجهما من اجتماع لمجلس وزراء لويس الرابع عشر ، بعد أن أعلن لاموانيون رأيه محبذا لنظام القروض على نظام الضرائب ، قال : " لقد انتصرت ، وأنت تعتقد أنك فعلت ما فيه الخير . أظن أننى لم أكن أعلم مثلك أن الملك يمكنه أن يجد المال الذى يريد أن يقترضه ؟ لكنى كنت أتجنب التصريح بذلك . هاهو باب الاقتراض بات مفتوحا ، فما هو السبيل اذن إلى إيقاف نفقات الملك عند حد . ماذا بعد القروض ؟ ستكون هناك ضرائب لسدادها . وإذا لم يكن للقروض حد فان الضرائب لن يكون لها حد كذلك " . وبالفعل فإنه لم يكن لها حد . يذكر الدوق دى سان سيمون فى مذكراته : " كانت ضريبة الرؤوس تزيد ضعفين أو ثلاثة أضعاف بصورة تحكمية حسب رغبة

المسئولين عن الولايات ، وكان يفرض على السلع والحبوب بجميع أنواعها رسوم تفوق قيمتها بأربع مرات : ضريبة مساعدة ، وضرائب أخرى متنوعة على جميع السلع . كانت هذه الضرائب تسحق الجميع من أشرف ومرابيين ، نبلاء ورجال كنيسة ، ولا يكتفى الملك مع ذلك بما يأتيه منها ، مع أنه كان يمتص دماء رعاياه دون تمييز ويعتصرهم الى أقصى حد مستطاع" . والشبه قريب جدا بين هذا الذى يقصه رجال القرن السابع عشر ، وبين ما كان يحدث فى مصر فى عهد إسماعيل . عندما نشرت لجنة التحقيق المشكلة فى سنة ١٨٧٨ تقريرها كشفت فيه عن كم الضرائب المفروضة ووسائل الضغط التى كانت تتبع فى جبايتها . فالممولون لم يكن لديهم أدنى فكرة عما سيطلب منهم دفعه فى عام محدد . "إن معرفة القانون الذى تفرض بمقتضاه ضريبة معينة كان آخر ما يعنى الموظف المكلف بجبايتها بمعرفته ، بل وكذلك الممول الملزم بدفعها . فشيخ البلد ينفذ أوامر المدير ، والمدير ينفذ أوامر المفتش العام الذى يعمل هو الآخر بناء على أوامر عليا . وهذه الأوامر العليا هى القانون الذى يمثل له الموظفون الحكوميون حتى لو كان شفهيًا ، كما أنه مما لا يخطر ببال الممولين الاعتراض على قيامه أو الاحتجاج على فحواه . لقد ذكر لنا المفتش العام للوجه القبلى أن الفلاح لا يستطيع أن يشكو من الضرائب فهو يعلم أننا نعمل بناء على أوامر عليا ، والحكومة نفسها هى التى تطالب بها ، فإلى من تريدونه أن يشكو ؟" (١) .

ويضرب لنا مؤلف "التاريخ المالى لمصر" فى هذا الشأن مثلا يثير الدهشة لدى حديثه عن إسماعيل باشا صديق المشهور بالمفتش ، ناظر مالية إسماعيل . فعندما كانت تظهر الحاجة إلى المال كان هذا الوزير ينتقل بشخصه إلى عواصم المديريات ويجمع المشايخ وكبار الملاك ويشرح لهم بطريقته احتياجات الخزانة والخرج الذى يواجهه نائب الملك ، ويناشدهم فى وطنيتهم وولائهم ، ثم يحادثهم ويلطفهم ، وفى أثناء ذلك يحدد قيمة المساهمة "الطوعية" المطلوبة من كل منهم ؛ والويل لمن كان يتأخر فى التنفيذ عندما يحين وقت التحصيل . لقد كان موظفو الضرائب بغير رحمة . أما الفلاحون الذين لم يكن لديهم نقود فقد كان يحجز على كل ما لديهم من أرض أو محصول أو محراث أو ماشية ، بل وحتى على أى مصاغ متواضع يكون لدى زوجاتهم ، أما الممتنعون منهم فإن العصا كانت كفيلا بهم . ويذكر اللورد كرومر ،

(١) تقرير لجنة التحقيق ، أنظر الوثائق الرسمية المرسية (عنون مصر) ، سنة ١٨٨٠

فى حديثه عن الأموال التى حصلت لسداد قيمة كوبون سنة ١٨٧٨ "أن التتوع الكبير فى قطع العملة ، ووضع الكثير منها فى شكل عقود لأغراض الزينة لشاهد على الضغط الذى كان يمارس لجباية الضرائب" (١) . وكان طبيعيا أن يودى هذا البطش إلى الفوضى . فالتركيب الاجتماعى لمصر فى ذلك الوقت كان أشد ما يكون تباينا . فمن جهة كان رئيس الدولة متمسكا ، من باب التباهى ، بالحضارة الغربية ، ورؤساء المصالح جهلاء باطشون ، والموظفون أشبه بالآلات لا يعملون إلا على ارضاء نزوات رؤسائهم ، ومن جهة أخرى إتسم الشعب بالحلم والطاعة والعمل الدؤوب . الفارق كبير إذن بين بطش الرؤساء وحلم الشعب ، وبين دأب هؤلاء وخمول أولئك ، لكن الحركة كانت مع ذلك تسير . كان على الشعب أن يتحمل ما يأمر به رؤساؤه حتى يمكن تلبية نزوات رئيس الدولة . واستطال هذا الوضع زمنا . وما دامت السلطة المطلقة بيد الحكومة ، فمن الطبيعى أن تتمسك بها . "فما من قوة تقيد نفسها بنفسها ، بل إن جهدها كله يتجه إلى زيادة هذه السلطة لا إلى تضييقها . فلنجد منها اذن بواسطة قوة أخرى . فالملكية لا تكبح جماح نفسها بنفسها أبدا ، ولكن الأمة هى التى تستطيع كبح جماحها" (٢) . ومن سوء حظ مصر أن الأمة كانت شديدة السلبية . فلم يكن يثيرها أن يطلب منها كل ذلك . فالمصرى حينئذ كان يتحمل فى صمت كل ما كان يفرض عليه ، ويصعب أن نتصور مدى الصبر الذى كان يحتاج إليه ذلك . فقد كان كبار القوم يتحملون ما يتعرضون له من مهانة لارضاء نزوات المدير بالصبر نفسه الذى يبيده أشد الناس غباء . ويقول اللورد كرومر إن إسماعيل صديق ، المفتش ، كان يتباهى بأنه استطاع أن يستخلص من مصر خمسة عشر مليون جنيه إنجليزى فى سنة واحدة ، وكان ذلك قبل سنة ١٨٧٦ أى قبل أن يصل إجمالى دخلها إلى سبعة ملايين جنيه . وقد وضع اللورد كرومر للفتنصل الإنجليزى ، اللورد فيفيو ، قائمة تضم سبعة وثلاثين ضريبة صغيرة ، أى من الضرائب الجائرة ، ثم يبدى هو نفسه الشك فى أن تكون هذه القائمة كاملة على هذا النحو . فلم يكن هناك من شىء كامل إلا الفوضى . ولم يكن للضرائب أى أساس سليم . وكانت تحصل عندما تحتاج إليها الخزنة ، وما أكثر ما كانت تحتاج إليها . وينبغى فى هذا الصدد الرجوع إلى تقرير

(١) كرومر ، مصر الحديثة ، ص ٣٠

(٢) تين ، "مقالات فى التاريخ والقد" ، ص ٢١٥

لجنة التحقيق لنرى كيف كان يتم تقدير الضرائب . فالقروض لم يكن لها حدود ، وبالتالي فان الضرائب هي الأخرى لم يكن لها حدود كذلك .

كانت القروض كثيرة للغاية ، وكانت تتم بأسعار فائدة غير معقولة . ويتضمن التقرير الذى وضعه المستر كيف فى سنة ١٨٧٦ معلومات كثيرة فى هذا الشأن . وكان الأسوأ من ذلك سعر الفائدة للديون السائرة . فقد كان من المعتاد أن يصل هذا السعر إلى ١٥٪ . وكان سعر خصم سندات الخزانة يتراوح عادة بين ١٢٪ و ١٤٪ وكان يبلغ أحيانا ٢٠٪ و ٢٣٪ . كانت هذه الأموال كلها توضع تحت تصرف الحكومة ، وكان نائب الملك يعترف منها لشراء الأراضى لنفسه فأصبح خلال عشر سنوات مالكا لخمس الأراضى الزراعية فى مصر . لكن شراء الأراضى لم يكن يتطلب مثل هذه المبالغ الضخمة اذا أخذنا فى الاعتبار الثمن الذى كان يدفع لشرائها ، هذا بخلاف ما كان يتم الحصول عليه بطريق المصادرة . لم يكن لنزوات اسماعيل حدود تقف عندها وكان لابد من تلبيةها جميعا . كانت الفكرة المسيطرة عليه هي نقل الحضارة الأوروبية الى مصر . لقد سافر من قبل الى أوروبا ورأى فيها الكثير ، وشاهد قوة مجتمعاتها ، وكان يريد أن يستزرع ذلك كله فى أرض مصر . وهو فى الوقت نفسه ملك شرقى ذو خيال واسع محب للملذات ، لذا جلب فى القصور التى شيدها كل ما يمكن تصوره من أسباب اللذة . لكنه من جهة أخرى أقام منشآت كبرى ، مثل مد السكك الحديدية والموانئ وتشجيع الصناعة . ودفع فى سبيل ذلك مبالغ خيالية . "هكذا تكلفت أشغال ميناء الاسكندرية أكثر من مليونين ونصف المليون جنيه إنجليزى ، بينما لم تكن تزيد قيمتها الحقيقية ، وفقا لتقدير معتدل للغاية ، عن ٤٠٠ ٠٠٠ ١ جنيه" (١) . لم يكن لاسراف نائب الملك مثيل . وكان عدد كبير من الأوروبيين يهرولون لتقديم مشروعات غريبة ، وكان اسماعيل فى لا مبالاة يتركهم يكسبون الثروات بسرعة بالغة . لقد وصل الأمر إلى حد الزعم بأنه ينبغي استقدام صينيين ليفلحوا الأرض !! . كان المستر كيف حين ضرب هذا المثل جادا جدية تلفت النظر . ووجد اسماعيل الفكرة باهظة الكلفة ، ولكنه قال أنه لو قدم الصينيون من تلقاء أنفسهم فإنه سيقدّم لهم العمل . لقد قدم له ألف مشروع آخر ، وكان ما يقبله من بينها يحقق لأصحابه الثراء بقدر ما يحقق لمصر الخراب .

(١) كرومر - المرجع السابق ، ص ٤٠

وفى سنة ١٨٧٥ وقع فى مصر حدثان مشهودان : الإصلاح القضائى ، وبيع أسهم نائب الملك فى قناة السويس إلى إنجلترا . فبدلا من المحاكم القنصلية ، تشكلت فى ظل الإصلاح القضائى المحاكم المختلطة للنظر فى الشئون المدنية وبعض الشئون الجنائية . وكانت هذه المحاكم مكونة من أعضاء أجانب ومصريين ، وتطبق قانونا مصرية صدقت عليه القوى الموقعة على اتفاقية الإصلاح القضائى المذكورة ، كما كانت تختص بالنظر ، بدلا من المحاكم المصرية ، فى كل ما يدخل فى نطاق هذا القانون مما يثور بين مصريين وأجانب من منازعات .

وفى سنة ١٨٧٦ بدأ التدخل الأوروبى فى شئون مصر بسبب أوضاعها المالية الحرجة . كانت قروضها وديونها السائرة قد تضخمت إلى حد لم تعد قادرة معه على الوفاء بها . ولجأ الدائنون إلى دولهم ، وأجبرت حكوماتهم الخديوى ، بشكل غير رسمى ، ليس فقط على تسوية الأمور ، ولكن كذلك على القبول بمراقبة أجانب لتصرفاته وتصرفات حكومته .

فهل كان من حق تلك الحكومات أن تفعل ذلك ؟ .

عندما دعت الحكومة الإنجليزية لحماية الدائنين الانجليز ، رد اللورد بالمرستون على ذلك بأنه لا يوجد أى التزام قانونى على حكومته بحماية مصالحهم ، وأن له حرية القيام بالمساعى الدبلوماسية التى يراها ، وأنه لن يسترشد فى ذلك إلا باعتبارات المصلحة التى تملئها السياسة الخارجية . "فاذا كان بعض الإنجليز قد سلموا رؤوس أموالهم الى دولة أجنبية فان ذلك كان بدافع تحقيق الربح . ولا بد أنهم أخذوا فى الاعتبار المخاطر الحتمية التى يمكن أن يتعرضوا لها فى حالة اعسار مدينهم . فاذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك فعليهم أن يتحملوا المصير الذى ينتهى اليه كل مضارب أخطأ فى تقديراته". فهل يمكن أن تصل المساعى الدبلوماسية المشار اليها الى حد الافتئات على الاستقلال الذاتى لبلد من البلاد ؟ . الجواب قطعاً بالنفى . وقد كتب المسيو دى فريسينييه ، الذى تولى وزارة الخارجية الفرنسية عدة مرات ، عن القروض المصرية ، وبعد أن استعرضها جميعا قال : "إن الاستعراض السابق للقروض يبين الهوة السحيقة التى كان أصحاب رؤوس الأموال يلقون فيها مدخراتهم . واذا كانوا يستحقون الرثاء فعلا ، فلا بد أن نلاحظ أيضا أن المخاطر المقرنة بتوظيف الأموال على هذا النحو كانت بادية تماما أمامهم ، وكان يمكن أن توضح لهم الطريق الذى

يسيرون فيه . ولو أنهم لم يأخذوا على عاتقهم مثل هذه المخاطر الكبيرة - عن قصد - بغية تحقيق أرباح لا حد لها لكانوا موضع تعاطف أكبر^(١) .

لماذا إذن سمحت القوى الأوروبية لنفسها بالإقتنات على الإستقلال الذاتى لمصر ؟ . لعل رأى المسيو كريتيان يمكن أن يوضح ذلك إلى حد ما ، فهو يقول : "من المرجح أن مثل هذا الانتهاك لمبادئ الإستقلال الإدارى الذاتى لهذه الدول ما كان ليحدث لو لم يكن مستوى حضارتها مختلفا بمثل هذا القدر الكبير عن المستوى الذى بلغة أعضاء المجتمع الدولى الآخرون" . لكن هذا التفسير غير كاف . ويعتقد المسيو مورا والمسيو رينو أن القوى الدولية تعامل البلدان الإسلامية بطريقة خاصة . ويستشهد على ذلك بالطريقة التى تعامل بها تلك القوى كل من تركيا ومصر . وتبدو لى هذه الفكرة أقل سلامة من فكرة المسيو كريتيان . والسبب الأساسى فى اعتقادى لا يكمن فى اختلاف الدين أو الحضارة . ويقدم لنا المسيو دى مارتنز تفسيراً آخر . فهو يرى "أن التدخل لم يكن له هدف سوى استغلال موارد مصر لصالح الدائنين الأوروبيين . فالدين يأتى أولاً ثم تأخذ البلاد ما يتبقى بعد ذلك . كان ذلك هو المبدأ الذى قامت عليه كل الترتيبات التى اخترعتها القدرات المالية للسادة كيف وجوشين وجوبير وويلسن وغيرهم"^(٢) . ويقرر كتاب آخرون تدخل هذه القوى فى الشؤون الادارية لبعض البلاد بضعف هذه الأخيرة ، ويسوق كتاب آخرون أسباباً غير هذه وتلك . ويوجد فى نظرى جانب من الصحة فى جميع هذه التفسيرات ، وإن كان أكبرها نصيباً من الصحة فكرة مسيو دى مارتنز ، ويضاف إليها ، بالنسبة لمصر بوجه خاص ، أسباب سياسية غير مجرد إستغلال موارد البلاد. ذلك أن إنجلترا ، التى كان رئيس حكومتها أول من كتب فى فقه عدم التدخل ، كانت أول من سلك طريق التدخل فى مصر . فقد كان شراؤها لأسهم قناة السويس فى سنة ١٨٧٥ ، وكانت كلمة نابليون ، التى تتذكرها إنجلترا دائماً ، "أن مصر أهم بلد فى العالم" ، يدعوها إلى التفكير فى طرق مواصلاتها إلى الهند . وكانت فرنسا تؤيد السياسة الانجليزية ، على الرغم من أنها كانت تبدو وكأنها هى التى تتخذ المبادرات فى كل الأمور ، وكان غرضها هو المحافظة على مصالح الدائنين الفرنسيين .

(١) دي فريسنييه ، المسألة المصرية . ص ١٥٤

(٢) دي مارتنز ، "المسألة المصرية والقانون الدولى" . مجلة القانون الدولى ، سنة ١٨٨٢ ، ص ٣٧١

وتمثل تصرفات هاتين القوتين انتهاكا ، ليس فقط للاستقلال الذاتى لمصر ، بل كذلك لمبادئ القانون الدولى . ومع ذلك فهناك سبب قانونى يركز عليه هذا الانتهاك . فقد كانت محاكم الاصلاح مختصة بالنظر فى القضايا التى تثار بين الحكومة المصرية ودانئها الأجانب . وكان على الدول الموقعة على اتفاقية الإصلاح القضائى هذه أن تسهر على تطبيق نصوصها . وربما رجحت هذه الحجة التى كانت ستبدو معقولة لو أنها أُسيقت فى بداية التدخل . لكن فكرة التدخل راودت انجلترا من قبل أن يجرى أى تفكير فى الإصلاح القضائى . وعلى الرغم من أن هذا الإصلاح كان قديماً فى الظهور فإن التمسك بهذه الحجة لم يبدأ إلا فى سنة ١٨٧٨ .

كتب المسيو بول لوروا - يوليو فى مجلة "الايكونوميست فرانسيسه" فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٧٨ (ص ١٦٢) قائلا : "على الحكومات الغربية أن تبذل جهودها لحمل نائب الملك على احترام أحكام المحاكم المختلطة التى ساهمت فى تأسيسها ، وعلى الوفاء بالتزاماته تجاه الرأسماليين الأوروبيين . وهذا أمر بديهي" . ربما كان هذا صحيحا ولكن أوانه كان قد فات .

ويصر بعض المؤلفين على تبرير هذا التدخل بما حققه من نتائج طيبة بالنسبة إلى مصر ، أى أن الغاية فى نظرهم تبرر الوسيلة . وإننى أتردد فى قبول هذه الفكرة ، ليس فقط لاختلاف نظرتى لما يعتبرونه "نتائج طيبة" ، بل كذلك لأن التدخل لم يكن يستهدف أبدا صالح المصريين . وفيما عدا بعض الشفقة التى كان يثيرها بؤس الفلاحين فى النفوس ، فإن الأوساط الرسمية ظلت تصمم آذانها من هذه الناحية . ورغم أن انجلترا كانت تنبأهى بما تقوم به من أعمال التمدين فى كل مكان ، فقد هدئت اسماعيل مرارا لاجباره على خدمة الديون حتى فى الأوقات التى كانت الخزانة المصرية فيها خاوية تماما ، والتى كان فيها من الانجليز من يكتب التقارير عن القسوة التى يتعرض لها الفلاحون . ولكن "الديون أولا ، والبلاد لها ما يبقى بعد ذلك" . ولم يكن يبقى شئ ، أو أقل القليل من ذلك المال الذى تم استخلاصه بالكرباج والبطش . لذا فإن تلك "النتائج الطيبة" تثير كثيرا من الريبة عندى . صحيح أن كثيرين من الكتاب الانجليز أمثال ملر وكرومر ودائسى وكولفن وكثيرين غيرهم كتبوا المجلدات للاشادة بالتحضر الذى أتت به إنجلترا إلى مصر ، وأنه لا يمكن إنكار التقدم الذى تحقق أثناء فترة الاحتلال الإنگليزى فى المجالين المالى والزراعى ، ولكن لا يجوز أن ننسى كذلك أن إنجلترا

قدمت الى مصر فى وقت كان المصريون يريدون فيه أن يمسكوا بأيديهم زمام التحديث فى بلادهم ، أى أنهم كانوا يريدون أن يستبدلوا الطغيان المطلق الذى كان يمارسه نواب الملك بحكومة دستورية . هذا فضلا عن أن النفع الحقيقى لهذه "النتائج الطبية" قد عاد على الأجانب أكثر منه على مصر . واذا ما اقتصرنا على بحث الإصلاح الاقتصادى - وهو الذى يتباهى الإنجليز به لأنه هو الأمر الوحيد الذى يستطيعون أن يتحدثوا عنه - لوجدنا أنه فرض على مصر أن تقتصر على إنتاج بعض المواد الأولية الزراعية التى تنتجها بكثافة . وهذا دور لا إستقرار فيه . فمئذ بدأت أمريكا فى اصلاح أراضيها واستغلال ثروتها الزراعية ، اضطرب البلدان الزراعية مثل مصر والهند إلى الدخول فى منافسة تكاد تكون مدمرة بالنسبة لهما . ولا يكتفى أن تبدو فى السوق المالية لبلد من البلدان بعض المظاهر الطبية للحكم على الثراء الاقتصادى لهذا البلد ؛ وتصديق هذه الملاحظة بوجه خاص على بلد مثل مصر حيث السوق المالية سوق دولية . وليست سوقا وطنية ، وبشكل يكاد يكون كاملا . ولا ينبغى ، من جهة أخرى ، أن نخطئ الحكم من خلال ما يبدو من ملاءة الحكومة المصرية . فلو أنه كان عليها أن تفى باحتياجات ميزانية جدية تأخذ فى حساباتها نفقات الدفاع الوطنى وجميع المصالح الوطنية الأخرى ، فلا أظن أنه كان يمكن لأحد أن يخاطر بالقول بأن حالة مصر مطمئنة . واذا عقدنا مقارنة بسيطة ، وبغير أية مبالغة ، بين حال مصر اليوم وبين ما كان ينبغى أن تكون عليه على ضوء وضعها فى سنة ١٨٨٠ ، أو بالأحرى فى سنة ١٨٧٦ قبل أى تدخل أوروبى ، لو كانت بها حكومة مخلصه حقا ، فمما لا شك فيه أننا سنجد أن وضعها الراهن يدعو للثناء . فلو أنه أتيح لمصر أن تكون محايدة ، على نحو ما كان يطالب به قبل سنة ١٨٨٠ وبعد سنة ١٨٨٢ لكان بوسعها أن تحقق الإصلاح بطريقة تتلاءم على نحو أفضل و تطورها التاريخي. ولكن من سوء حظ مصر ، وكثير من البلدان الشرقية ، أنه يراد لها أن تتبع نموذجا للحضارة لا صلة لها به . وما دام هذا النهج الجديد مجهولا بالنسبة إليها فإنها تضل طريقها فيه . ربما كان بوسع المصريين أن يوفقوا بين هذه الحضارة الجديدة وبين حضارتهم لو أنهم استزرعوا تدريجيا ، وتبعوا لتطورهم الخاص . أما وهم يجدون أن من شبه المستحيل التفاهم مع أولئك الذين يفرضون عليهم هذا السلوك

الجديد ، فانهم يشعرون بالفزع الذى يفقدون معه الوعى بحر اكهم الاجتماعى . وهذا هو حال مصر اليوم . والسبب فى هذا الحال هو التدخل المفرط من جانب اوروبا .

فالكيان الاجتماعى غير المتجانس القائم فى مصر اليوم يضطرها للكفاح من أجل البقاء . ومفهوم الوجود الجماعى لا يكاد يكون له وجود بالنسبة الى الغالبية العظمى من أبناء الشعب المصرى . فالوظيفة الفعلية لهذا البلد . شأنه فى ذلك شأن العديد من المستعمرات الأوروبية ، هى أن يكون سوقا للتجارة الأوروبية . وان ينبى احتياجات الصناعات الأوروبية من المواد الأولية . وأن يفر العمل للربح للأوروبيين المغتربين الذين يتكالبون على هذه الأرض الغنية التى تفيض خيراتها على غير أبنائها . وهذه المهمة التى تؤديها مصر بامتياز تدعو جميع الأوروبيين الذين لهم علاقة بها إلى الزعم بأنها تقدمت على طريق الإصلاح وأنها قطعت أشواطا كبيرة فى سبيل التقدم منذ أن أمسكت أوروبا بزمام الادارة فيها . ربما يكون للأوروبى العذر فى أن يقول ذلك . لكن المؤرخ الذى يدرس حالة خلايا النسيج الاجتماعى المصرى . او رجل الاقتصاد الذى يدرس الثروة الوطنية ، لا مناص لهما من الاعتراف بأن هذا البلد التعس وصل الى حالة من التفكك يصعب معها أن يكون له وجوده الذاتى الخاص به .

وقد ازداد الوضع تدهورا بعد عام ١٨٧٦ ، وهو العام الذى أنشأ فيه إسماعيل صندوق الدين . فقد لجأت الحكومة المصرية ، التى لم يعد لها أن تعقد القروض . إلى المرابين للحصول على النقود ، الأمر الذى أدى إلى زيادة ديونها السائرة الى حد غير معقول . فقد زادت هذه الديون فى عامين بمقدار خمسة ملايين جنيه وازداد بذلك وضع البلاد حرجا . وتجاوز التدخل الأوروبى الحد الذى كان قد بلغه بحيث لم تعد الشئون المالية للبلاد هى وحدها بأيدى الأجانب ، بل أصبحت ادارتها كذلك بأيديهم . وتجمعت حينئذ كل الامتيازات والتنازلات التى حصل عليها إسماعيل من السلطان فى أيد أجنبية تعمل ضده . يقول المسيو رينو إنه "فى عام ١٨٧٩ كانت مصر ملكا للجميع فيما عدا تركيا . وأنت سياسة إسماعيل ثمارها حيث كانت تعتمد على استغلال التعارض بين أوروبا والباب العالى لانتزاع التنازلات من جانب السلطان بما يحقق لمصر استقلالا شبه كامل . وكان هذا أسلوبا لا يخبى ، لكنه كثير المخاطر ، وكان

محمد على قد جربته من قبل وكلفه الكثير". وبالفعل لم تتوان أوروبا ، حين ضاقت بإسماعيل إلى حد ما ، عن طلب عزله ، وأصبح المجال أمامها منذ ذلك الوقت مفتوحا تصول فيه وتجول كما تشاء . وكان الخديوى الجديد أشد الناس سلبية في العالم . وقد أثار هذا التدخل المصريين ، لكن إنجلترا التي كانت ممثلة لأوروبا في سنة ١٨٨٢ لم تجد حرجا في ادخال قواتها المسلحة إلى بلد أجنبي دون سبب قانوني وفي اخضاع الثائرين من أبنائه ، واعتقلت رؤساءهم وأعادت النظام واستقرت في مصر بحجة حماية أمن الخديوى . وسار الأمر على هذا النحو و وعدت إنجلترا بالانسحاب ولكنها لم تتسحب على الرغم من الاحتجاجات الفرنسية التي استمرت عشرين عاما .

كان من أثر الاحتلال الإنجليزي إبعاد القوى الأخرى عن التدخل في شئون مصر . وبعد فترة وجيزة من الاحتلال اضطرت فرنسا إلى إيقاف ، أو بالأحرى إلغاء ، الدور الذي كانت تقوم به قبل سنة ١٨٨٢ . وتمثل هذا الدور في العمل لدى الحكومة المصرية ، بالتضامن مع إنجلترا ، على حماية المصالح الأجنبية في مصر بالطرق الرسمية وغير الرسمية . ويظهر ذلك الدور في قيام فرنسى بشغل وظيفة المراقب العام التابعة للحكومة المصرية . وفي سنة ١٩٠٤ ، وضع الاتفاق السوى بين فرنسا وإنجلترا حدا لمضايقات كل منهما للأخرى . واحتفظت إنجلترا بفضل هذا الإتفاق بوضعها الواقعى القائم في مصر منذ سنة ١٨٨٢ .

ومنذ بداية الاحتلال ، انتهجت إنجلترا سياسة استعمارية منتظمة . وكان الهدف الذى حددته لنفسها منذ وقت مبكر فى أعقاب احتلالها مصر هو إعادة التوازن الى الحالة المالية للبلاد وتحسين مواردها الاقتصادية على النحو الذى يجرى العمل به فى المستعمرات . لذا فعندما تفاقم الوضع بعد أحداث سنة ١٨٨٢ ، وكان لابد من تعديل النظام المالى الذى وضعته أوروبا فى سنة ١٨٨٠ ، ساندت إنجلترا الأفكار الرامية إلى تحسين وضع مصر المادى . وطلبت إخضاع الأجانب الذين استقروا فيها لعدد لا بأس به من الضرائب التى كانوا معفون منها من قبل ، ونجحت فى ذلك . وأرادت - ولكنها لم تنجح هذه المرة - تخفيض سعر الفائدة على الدين العام ، واقترحت ضمان قرض تصدره مصر يكون من شأنه تحسين حالتها المالية. وكان من المقرر أن

يخصص من هذا القرض الجديد مليون جنيه لمنشآت الري بقصد زيادة الطاقة الإنتاجية لهذا البلد الزراعى . وابتداء من سنة ١٨٨٥ ، وهو العام الذى صدر فيه هذا القرض المضمون ، خصصت مبالغ كبيرة للقرض نفسه ، أى الري ، الأمر الذى يبين حرص إنجلترا على أن تستخرج من أرض مصر الخصبة كل ما تستطيع إنتاجه من مواد أولية . صحيح أنه كان من شأن هذه السياسة أن تحول دون استمرار الانطلاق نحو الصناعة الذى كان أخذاً فى النمو منذ عهد إسماعيل ، ودون التوسع فى التعليم وفى غيره من الإصلاحات الاجتماعية ، وأنه كان من شأنه كذلك أن يميز الأجانب ويسمح لهم بالاثراء السريع على حساب مصر والمصريين ، ولكنها كانت ستؤدى إلى استقرار الحالة المالية لمصر ، الأمر الذى سرعان ما ظهر أثره فى أسعار سندات الدين المصرى فى السوق . فابتداء من سنة ١٨٨٩ بلغت قيمة سندات الديون أسعارها الاسمية وتجاوزتها ، وزادت جميعاً عن السعر المحدد لاهلاكها . على أنه لا يمكن أن ينسب كل هذا التقدم الى إنجلترا ، إذ أن صندوق الدين ، وهو جهاز دولى ، كان قد بذل الكثير لتحقيق هذه النتائج . وكان للشعب المصرى ، ذلك الشعب الذى يتميز بالعمل الدؤوب المنتج ، نصيب كبير فى هذه الحركة أيضاً . ومن المؤكد أنه كان يمكن بلوغ هذه النتائج نفسها لو أن الرقابة الأوروبية كانت قد استمرت . على أن ذلك كله لا يمنع من أن نعتز بإنجلترا بتنظيمها للشئون المالية وللرى ، وأن نلقى عليها فى الوقت نفسه باللوم لتطرفها فى سياستها الاستعمارية . ولا ينبغي أن ننسى كذلك أن إنجلترا ، لو أنها أوفت بما وعدت به ، ووافقت على ما طلبته فرنسا من ترك مصر وشأنها ، فإن الرقابة التى كان يمارسها هذان البلدان لم تكن لتحول بينها وبين المضى فى طريق التقدم الذى بدأ فى ظل حكم إسماعيل والذى وضع نظامه ، على حساب مصلحة مصر ، بواسطة الثنائى الإنجليزى - الفرنسى الذى قام فى سنة ١٨٧٦ . وكانت أسعار سندات الدين المصرى ستحتفظ كذلك بمستواها فى السوق .

وعلى أية حال ، فإن مسألة الجلاء لم تعد مطروحة اليوم فى أوروبا ، وعلى مصر أن تحلها على النحو الذى تراه . والسياسة الانجليزية ، على الرغم من الأخطاء

التي تركبها منذ ألغيت فى سنة ١٩٠٤ الرقابة التي يمارسها صندوق الدين ، تميل إلى تهدئة الدائنين والعمل على أن تتجه أسعار سندات الدين إلى الارتفاع فى السوق . ويجدر بى أن أذكر هنا ، قبل أن أشرع فى دراسة الدين المصرى ، أنه مما يؤسف له ألا يكون هناك مؤلف واحد تناول المسألة المصرية من وجهة النظر المصرية وبالحيدة اللازمة. فالمؤلفون الانجليز جميعا باستثناء المستر كاي الذى وضع كتابه فى العام الأول للاحتلال الانجليزى ^(١) ، يكتبون للاشادة بالأعمال الكبرى التي حققها الانجليز فى مصر . ويتحدث معظم المؤلفين الفرنسيين عن دور فرنسا فى المسألة المصرية . على أننى وجدت مع ذلك فى الوثائق الرسمية روايات ووقائع تتحدث عن نفسها . وسأحاول الآن أن أستعرض تاريخ الدين المصرى .

^(١) كاي . "إتلاف المصريين" Spoiling the Egyptians .

الفصل الأول

سعيد

"عاشت مصر بغير ديون طيلة عهد محمد على وخليفته المباشرين إبراهيم وعباس".

عين سعيد نائبا للملك في مصر عند وفاة عباس في سنة ١٨٥٤ . وبإعتلائه العرش تنفس الفلاحون الصعداء كما لو كانوا يفيقون من كابوس طويل^(١) ، فقد كان أفضل من سلفه الرهيب عباس في كل شيء . توقع الناس إجراء إصلاحات كبيرة وظنوا أنهم سيدخلون بذلك عصرا جديدا . ولو أن سعيدا كان لديه من النشاط والذكاء ما يتطلبه الحكم لحقق على الأرجح الآمال التي ولدها اعتلاؤه العرش عند الناس . ولكن ، مع الأسف ، فإن هذا بالذات هو ما كان ينقصه . كان يفتقر الى كل ما يتطلبه فن الحكم من قدرات^(٢) ، بل كان عاجزا فيه تماما^(٣) . ويشير المستر سينيور الى محادثة دارت بينه وبين المستر والنبي ، القنصل العام لبريطانيا العظمى في القاهرة ، في سنة ١٨٥٥ ، حيث يقول : "إن سعيد باشا يفتقر الى أية جدية ويتسم بالسطحية ويعتقد أنه يعرف كل شيء ، وقد أفسده الثناء الذي يسمعه من الأجانب المحيطين به . أنهم يقولون له ، وهو يصدقهم فيما يقولون ، أنه عبقرى على المستوى العالمى . وهو لا يبرم أمرا ، ولا يفعل إلا القليل ، وأخشى أن يكون بصدد إعداد كارثة كبرى لنا عما قريب"^(٤) .

كان نوبار باشا يقول وهو يتحدث عن شئون مصر "أعتقد أن الانهيار حدث في عهد سعيد . كان هو أول من سلك طريق الإستدانة . فالمتاعب المالية والتدخل

(١) التاريخ المالى لمصر ، ص ٢

(٢) كرومر . "مصر الحديثة" ، ص ١٦

(٣) كرومر . المرجع السابق ، ص ١٦

الأوروبي المخرب في شئون البلاد ، ترجع في الواقع الى سنة ١٨٥٤ ، وهى السنة التى منح فيها سعيد امتياز حفر قناة السويس إلى المسيو دى ليسبس^(١) .

بهذه الصفات ، وهذه العيوب ، اعتلى سعيد العرش وفى ذهنه فكرة رفيعة عن نفسه ، تحركه همة كان يمكن أن تكون نافعة للبلاد لو لم تشلها أفكار محمد على عن استزراع الحضارة الأوروبية في مصر ، ولو لم يعتبر الأوروبيون ، الذين جذبهم هذه الفكرة ، مصر غنيمة لهم .

وبعد قليل من توليه العرش عرض عليه المسيو دى ليسبس فكرة إنشاء قناة السويس البحرية . وتردد نائب الملك في البداية إدراكا منه للمعارضة التى كانت انجلترا ستبديها لأى مشروع من هذا النوع . ولكنه وافق أخيرا وحرر أول عقد امتياز في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ . وحرر عقدا آخر ، هو الذى شكلت بمقتضاه شركة قناة السويس ، في ٦ يناير سنة ١٨٥٦ ، أى بعد أكثر قليلا من عام واحد . وتضمن هذا العقد امتيازات حقيقية منحها سعيد "لصديقه" مسيو دى ليسبس . ونصت المادة الثالثة عشرة من هذا العقد الثانى على ما يلى :

"منح الحكومة المصرية إلى الشركة صاحبة الامتياز ، وطوال مدته ، امكانية استخراج جميع المواد اللازمة لأعمال بناء وصيانة المنشآت والأبنية الخاصة بالمشروع من المناجم والمحاجر المملوكة للدومين العام ، دون أن تدفع عنها أية رسوم أو ضرائب أو تعويضات . كما تعفى الشركة من جميع الرسوم الجمركية ، ورسوم الدخول وغيرها من الرسوم المفروضة لادخال أية آلات أو مواد تستقدمها الشركة من الخارج وتحتاج إليها أقسامها المختلفة خلال فترة الإنشاء أو الإستغلال" . وتنص الفقرة الثانية من المادة الثانية على ما يلى : "فى جميع الأحوال يكون أربعة أخماس العمال القائمين بهذه الأشغال (إنشاء القناة) من المصريين" .

(١) كوشريس - "الوضع الدولي لمصر والسودان" . ص ٦٧

على أن هذه التنازلات ، التي نبعت من نفس سخية سخاء مبالغاً فيه ومن عقل شديد الليبرالية ، سرعان ما ترتبت عليها فى الواقع نتائج سيئة . ولو التزم سعيد قدرا من الحيطة لكان بوسعه التنبؤ بها . أفلا يعنى تمكين الشركة من استخراج كل ما تريده من المناجم والمحاجر المملوكة للدولة دون أن تدفع عن ذلك أية رسوم أو ضرائب أو تعويضات تخليا من الحكومة عن حقها الطبيعي فى تحصيل الرسوم والضرائب ، بل وكذلك فى ضياع رأس المال نفسه والعائد الذى يحققه ! صحيح أنه كان من حق الحكومة الحصول على ١٥٪ من أرباح الشركة ، لكن يبدو لى أن من الطبيعى ، والقناة تخترق أرضا مصرية ، أن يكون للدولة الحق فى جزء من الأرباح ، فضلا عن حقها الطبيعى فى الإنتفاع بطريقة مفيدة من الدومين العام الذى يعتبر رأس مالها المملوك لها . لذا، فإن هذا الامتياز الأول كان فيه غبن شديد لمصر ولحقوقها . ولا تفسير لذلك إلا كرم سعيد باشا المفرط ، البالغ حد البله ، وللأسلية الشديدة أيضا من جانب الشعب المصرى . وليس من الصعب أن نتبين ما لمثل هذا الامتياز من أثر على إيرادات الدولة المصرية .

ولعل من اليسير كذلك أن نتبين أثر الامتياز الثانى الذى يعطى للشركة الحق فى أن تدخل إلى مصر أية آلات أو مواد تستحضرها من الخارج أثناء فترة الانشاء أو الإستغلال . فضلا عن الخسارة الناتجة عن نقص إيرادات الجمارك لهذا السبب ، فانه يفتح الباب أمام التهريب . ويشهد بذلك الرسائل التى كان يوجهها القنصل الإنجليزى بعد ذلك الى حكومته^(١) . وليس فى الامكان هنا تقديم أرقام عن إيرادات الجمارك ، اذ لم يكن لمصر ميزانية قبل سنة ١٨٨٠ .

وفيما يتعلق بتشغيل العمال المصريين فى حفر القناة ، فلعله كان من الممكن أن نعتبر ذلك قيذا فرضه نائب الملك على حرية الشركة لو أن عمل هؤلاء العمال كان يتم فى ظروف طبيعية ، وأنهم كانوا يحصلون على الأجر الضئيل المقرر لهم وهو

(١) أنظر سيمور كاي ، "تدليل المصريين" ، ص ١٢

٢٥ ر ، فرنكا للرجل البالغ و ٢٥ ر للطفل . ولكن ، وللأسف ، فإن الأمر لم يكن كذلك ، إذ أن نظام السخرة كان مطبقا تطبيقا صارعا ^(١) .

عن المفهوم تماما إذن أن تتناقص إيرادات الخزنة بشكل ملحوظ . وكان سعيد أكثر اسرافا من الباشوات الثلاثة الذين سبقوه ، سواء كان ذلك من أجل متعته الشخصية أو لبعض الأعمال العامة . وكانت في معيته جماعة تشكل جيشا صغيرا ، وكان على استعداد للتعهد بأية مصروفات تطلب منه . ومن أجل الحصول على المال "كان ناظر المالية قد حصل على دفعات مقدمة من حسابات جارية مفتوحة لدى بعض بنوك القاهرة والاسكندرية ، وكان يسدها بسندات أسمية غير قابلة للتحويل . وربما نفدت نقود الحكومة لو أنها استمرت في هذا المحيط الضيق . لذا أقنع بعض الدائنين ناظر المالية بإصدار أذن لحاملها ذات تاريخ استحقاق محدد . وقد لقيت هذه السندات الجديدة اقبالا كبيرا" . وهكذا ظهر الى الوجود دين مصر العام .

كانت توجد في السوق ، بالإضافة إلى سندات الخزنة ، سندات للمرتبات ^(٢) . ذلك أن الموظفين الذين لم يكونوا يحصلون على رواتبهم لعدم توافر النقود ، كانوا يسددون فواتير مورديهم بالسحب على وزارة المالية في حدود المتأخر لهم من مرتبات . وكان معظم هؤلاء الموردين من الأجانب فكان لابد للمالية في النهاية أن

^(١) يقول دايبي : " لم يحدث أن طبق نظام السخرة بمثل الشدة التي طبق بها في حالة قناة السويس . فموجب بصوص عقد الامتياز لم تحصل مصر على أى فائدة ، مباشرة أو غير مباشرة ، من إنشاء القناة . وربما تصور أصحاب الامتياز أن سعيدا كان سيدفع مقابلا للعمل الذي تعهد بتقديمه . ولو كان الأمر كذلك فلابد أنهم كانوا يجهلون كيفية سير الأمور في مصر في ذلك الوقت . كان مدير كل إقليم يتلقى أمرا باحضار عدد معين من العمال . وكانت هذه الأوامر تبلغ الى العمدة والمسايخ فكان يرسل من كل قرية عددا من الفلاحين البؤساء الى خليج السويس ، تحت مراقبة الحند ، حيث كانوا يضطرون الى العمل تحت تهديد المعتشين المسلحين بالكرايج . وحددت الشركة عدد العمال اللارمين بخمسة وعشرين ألفا ، كانوا يعملون دون الحصول على أى أجر . وكانت الأعذية التي تعطى لهم رديئة للغاية . وسبب سوء التغذية ، والملابس المهترئة ، وحر النهار وبرد الليل ، والاجهاد في العمل والوس ، كان هؤلاء العمال يموتون كقطعان الأعمام . وكان لابد من استقدام فلاحين آخرين ليحلوا محل الذين أصابهم المرض أو قضى عليهم الموت" .

وعلى ألا ننسى أن المستر دايبي الإنجليزي هو نفسه وأنه ، كما يقول عمه اللورد بالمستون "بحكم التساقص السياسي فإنه كان يعارض كل توسع في نفوذ فرنسا في مصر" ، وهناك قدر كبير من الصحة فيما يقول .

نظر دايبي ، تاريخ الحديوية ، ص ٣٥

^(٢) تاريخ مصر المالي ، ص ٦

مرتبات . وكان معظم هؤلاء الموردين من الأجانب فكان لابد للمالية فى النهاية أن تسدد مطالباتهم عندما يتقدمون إليها . وكل ما كانت تجنيه من ذلك هو التأخير والإبطاء . وقد بلغ هذا الوضع درجة من التنظيم إلى حد أن أصبح لسندات المرتبات سوقا خاصة بها وسعرا للخصم .

كان نائب الملك بحاجة دائما إلى المال ، وكان يبحث عنه فى كل مكان . ونص الاتفاق المالى الأول بينه وبين شركة قناة السويس ، اتفاق سنة ١٨٦٠ ، الذى اكتتب بموجبه فى ١٧٧ ٦٤٢ سهما من أسهمها ، على دفع قيمتها بسندات على الخزانة . وعندما نفذت موارده النقدية المباشرة ، "انقض على صندوق الأيتام وإيداعات تركات القصر" (١) .

على أنه ينبغي الاعتراف مع ذلك بأن سعيدا أجرى عددا من الإصلاحات النافعة . فقد "ألغى عقوبات الإكراه البدنى ، وحد من بطش المديرين ونظم جباية الضرائب والتجنيد" (٢) .

وقد أصاب المرض سعيدا فى سنة ١٨٦٢ وكان لابد أن يسافر الى أوروبا . لكن كان من الضروري تسوية وضعه المالى قبل ذلك . وشرع فى التفاوض على قرض من أوروبا . وكان الهدف المعلن لهذا القرض هو انتهاء الديون السائرة لمصر . وفاز بالصفقة بنك ساكس مينتجن ، وكلف وكلاؤه فى لندن ، بيت جوشين وفروهلينج بالإصدار . وكانت السندات تحمل فى صدرها عبارة "صدر بأذن جلالة السلطان" .

كان على المصرف المتعاقد أن يقدم مبلغ ٥٠٠ ٠٠٠ ٢ جنيه . وتصدر الحكومة مقابل هذا المبلغ سندات بـ ٨٠٠ ٢٩٢ ٣ جنيه ، كما تتعهد بأن تدفع ثلاثين قسطا سنويا لخدمتها قيمة كل منها ٢٦٤ ٠٠٠ جنيه ، وجملتها فى ثلاثين عاما

(١) المرجع السابق

(٢) كوشريس ، المرجع سالف الذكر ، ص ٣٩

٧ ٩٢٠ ٠٠٠ جنيه ، أى أن الفائدة على المبلغ المتحصل فعلا تصل إلى ١٠٪ سنويا أو ٨٪ على القيمة الاسمية للقرض ^(١) .

وفى سنة ١٨٦٣ أبرم اتفاق مالى آخر بين نائب الملك وشركة قناة السويس سدد فيه التزاماته بسندات على الخزانة أيضا . وتنص المادة الأولى من هذا الاتفاق على ما يلى : "تحتفظ الشركة بحقها فى التصرف بكل حرية فى سندات الخزانة المصرية التى سلمت إليها بموجب اتفاق السادس من أغسطس سنة ١٨٦٠ ، مع حقها فى تعديل فئاتها وفى التنازل عنها للغير على النحو الذى تراه " . وفى هذا العام نفسه، ١٨٦٣ ، توفى سعيد وخلفه إسماعيل .

^(١) أنظر "التاريخ المالى لمصر" ، ص ١٠ ، ويقول المسيو أرمانيون في كتابه "الوضع الاقتصادى والمالى لمصر" أن الدين العام بلغ ٣ ٢٩٢ ٣٠٠ جنيه . ويمثل هذا المبلغ القيمة الاسمية لسندات ٧٪ التى أصدرت على شريحتين الأولى بسبة ٨٤٪ والثانية بسبة ٨٢٪ - ص ٣٨

الفصل الثاني

إسماعيل حتى سنة ١٨٧٦

خلف إسماعيل سعيدا فى سنة ١٨٦٣ ، وكان على نقيض سلفه تماما . فقد كان سعيد مثقفا ولكنه ضعيف خامل ، فخلفه رجل لم يتوفر له من الثقافة ما يتطلبه المنصب الذى دعى لأن يشغله ، ولكنه كان ممثلا نشاطا وحزما .

ولم يصبح إسماعيل وليا للعهد إلا قبل شهر من وفاة سعيد . فقد توفى شقيقه أحمد قبل قليل من وفاة عمه نائب الملك . وكان إسماعيل حتى ذلك الوقت مجرد عضو فى الأسرة لا يعنيه من الأمر إلا انشغاله بأملكه الخاصة . فقد كان مالكا ثريا يفلح الأرض بالطرق الحديثة مستخدما الآلات ، ويحقق منها بالتالى الربح الوفير ^(١) . وقد تعددت أسفاره الى أوروبا حيث أتيج له أن يشهد القوة الاجتماعية للحضارة الأوروبية ، وان غابت عنه قوتها المعنوية . من هنا أدرك مدى الفائدة التى يمكن أن يجنيها من تعاطف أوروبا معه ^(٢) ، "لقد اعتلى العرش فى وقت بدت فيه امكانيات تنمية ثروة مصر وكأنها لا تقف عند حد" ^(٣) . وفى سنة ١٨٦٢ بلغت الإيرادات ٠٠٠ ٩٢٩ ٤ جنيه مصرى والمصروفات ٠٠٠ ٣٣٠ ٤ جنيه مصرى . وفى سنة ١٨٦٣ زادت الأمور تحسنا . فقد أدى استمرار حرب الانفصال الأمريكية إلى استمرار ارتفاع أسعار القطن المصرى . هذا فضلا عن أن الدين المجمع لم يكن يبلغ أربعة ملايين جنيه انجليزى ، وأن الرخاء كان سائدا ، والشعب هادىء وشديد الدأب فى عمله ^(٤) . ولم يكن لإسماعيل والأمر كذلك أن يشكو من أى شىء .

كان أول ما قام به هو نشر الوثائق عن حالة مصر كما تركها سعيد . وتفيد هذه الوثائق أن: "الدين بلغ ٣٦٧ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنكا أو ما يعادل ٦٨٠ ٠٠٠ ١٤ جنيه إسترليني بما فى ذلك مبلغ ٨٨ ٨٢١ ٠٠٠ فرنك التى اكتتب بها نائب الملك الراحل فى ١٧٧ ٦٤٢ سهما من أسهم شركة قناة السويس" . ولم يكن هذا المبلغ ديناً معدوماً.

^(١) بلس ، "التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر" ، ص ١٥

^(٢) دايسى ، المرجع سالف الذكر ، ص ٥٦

^(٣) ميلر ، "انجلترا فى مصر" ، ص ٢٦٣

^(٤) أرمانجون ، "الوضع الاقتصادى والمالى لمصر" ، ص ٨

فقد أوضح ناظر المالية عندما فكر فى إعلان أفساط الدين المصرى ، عشية اقدمه على عقد فرض فى يونيو ١٨٦٥ ، "أنه اذا لم يكن قد أدرج التعويض الذى قرره الامبراطور نابليون الثالث للشركة والبالغ ٨٤ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك فى هذه الأفساط فان ذلك يرجع الى أنه أدرج فيها الدفعات الخاصة بالـ ٨٨ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك التى تمثل قيمة الأسهم المشتراة (١٧٧ ٦٤٢ سهما) ، وهو مبلغ يتجاوز التعويض المذكور بكثير" (١) .

لذلك ، ووفقا لوثائق إسماعيل نفسها ، والتى لم يقصد فيها قطعا إلى التقليل من تعهدات سلفه، يتعين أن نعتبر أن الدين المصرى ، المجمع منه وغير المجمع ، قد بلغ وقت وفاة سعيد ٢٧٩ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك أو ١٦٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه استرلينى .

كان على مصر أن تتحمل فى السنوات التى تلت اعتلاء إسماعيل العرش ، فضلا عن عبء هذا الدين ، بعض النفقات الاستثنائية مثل تعويض شركة قناة السويس ، ونقص الإيرادات لعدة سنوات ، وعبء المراكب الأوربيين . لكن نائب الملك نفسه كان عبئا أكبر من هذا كله ، وها هى حكومته تلهث وراء القروض ، الواحد تلو الآخر . ليصل بها ذلك فى سنة ١٨٧٦ ، أى بعد ثلاثة عشر عاما ، إلى الإفلاس الذى تبعه التدخل الأوروبى بأشكاله المختلفة ، الذى انتهى بسقوط اسماعيل فى سنة ١٨٧٩ .

ونحن اذ نتتبع تاريخ هذه الديون المختلفة انما نتتبع فى الحقيقة تاريخ مصر . يذكر المسيو ب. أرمانيون أنه "يمكن القول أن تاريخ مصر المعاصرة هو تاريخها المالى . وتصدق هذه الملاحظة بوجه خاص عند بحثنا لعهد اسماعيل باشا" (١) .

ولعل من المفيد قبل أن نمضى فى استعراض هذا التاريخ أن نتوقف قليلا عند اسماعيل نفسه .

يتفق المؤرخون الذين يتناولون تاريخ مصر على أن اسماعيل كان ذو شخصية جذابة، صلب الارادة ، سخيا لا يحسب للغد حسابا . ويزداد معظمهم تشددا تجاهه ، اذ "يقللون من جدارته ولا يشعرون بأى شفقة نحوه" (٢) . أما المؤرخون الآخرون

(١) التاريخ المالى لمصر

(٢) المجلة السياسية والبرلمانية ، سنة ١٩١٠ . ص ٢٣٧ .

(٣) أنظر ملتر وبلت . المرجع سالف الذكر . وانظر كذلك تقرير لجنة التحقيق العليا .

فمشاعرهم تجاهه أكثر رقة ويشعرون بالأسى لمصير هذا الخديوى العظيم حفيد محمد على (٣) .

وملنر هو أشد المؤرخين الأولين قسوة عليه . فبعد أن رسم له صورة شخصية (٤) وتناول فترة سجنه وبؤسه فى الآستانة بعبارات مؤثرة ، يخلص مع ذلك الى أنه لا يستحق أية شفقة . ويرى بلنت هذا الرأى نفسه ، كما أن لجنة التحقيق العليا كانت ترى هذا الرأى كذلك (٥) .

وبفضل نشاط إسماعيل وطاعة شعبه له ، وبشئ من العقل والتبصر ، أصبح رئيسا لدولة من أكثر دول الشرق رخاء ، ولكنه اغتر بالثناء وأفلت منه الزمام ليفضى به ذلك فى النهاية إلى المأساة . فنزواته كلها لابد أن تلبى ، وإذا ما وصلت صرخة الفلاحين إلى أسماعه فانه كان يصم آذانه عنها . كانت أحلامه رائعة ، عادت إلى ذاكرته كل أحلام جده ، وكان يريد أن يكون هو الخليفة الحقيقى لمحمد على . فكر مثله فى التخلص من نير تركيا ، ولكنه كان يعلم أن القوة المسلحة لن تحقق النتائج المرجوة بسبب موقف أوروبا . لذا سعى لتحقيق ذلك على نحو آخر . ففند اعتلى العرش أغدق على حكام تركيا الهبات ، فلم تمض بضعة أسابيع حتى زار السلطان عبد العزيز مصر . "وحصل فؤاد باشا ، الذى كان يصحب سيده السلطان بصفته الصدر الأعظم ، على ٦٠ ٠٠٠ جنيه استرليني نظير الخدمات التى كان يؤديها ، أو التى يمكن أن يؤديها ، لاقامة علاقات طيبة بين جلالة السلطان ونائب الملك" (١) .

(٣) أنظر دايسى وكوشرس ، المرجع سالف الذكر.

(٤) ملنر ، المرجع السابق ، ص ٢٦٢ ، وفيما يلى الصورة الشخصية التى رسمها ملنر لإسماعيل : "يعتبر إسماعيل بداته ، سواء فى التاريخ أو فى الأوهام ، نموذجاً ممتازاً للرجل للسرف الشدد . فما من مسرف غير مبال استطاع أن يندد بمنزل هذا الاصرار موارد هذا العذر من الصخامة . لقد اعتلى العرش فى وقت بدت فيه امكانيات تسمية تروية مصر وكأنها لا تقف عند حد . كانت الأراضى كلها ملكاً له يتصرف فيها كما يحلو له ، وكان العالم كله مستعداً لأن يرسل اليه الأموال لاستثمارها . جمع إسماعيل فى شخصه كل الصفات ، الطيبة منها والسيئة . التى يمكن أن تعمل منه مسرفاً مثالياً . فهو فاسق وشهوانى وطموح وشح للمظاهر وعديم المادى ، كما أنه كان شعورها بالمشروعات المقاتلة لتحقيق التقدم المادى لبلاده . فالإضافة الى الملايين التى أنفقها فى حملات الاستئصال والرف والمعدات أتفق الكثير كذلك لتعميد مشروع كبير للتسمية الزراعية . لكنه مداه بغير استعداد كاف وتكلفة باهظة"

(٥) ورد فى تقرير لجنة التحقيق ما يلى : "لم يكن القانون سوى تعبيراً عن إرادة رئيس الدولة" ، وأيضاً "لا يمكن أن سكر أن رئيس الدولة يتمتع بسلطات لا حدود لها" . وانتهت اللحة فى تقريرها الى أن مصر فى حالة انحسار .

انظر بلنت ، المرجع السابق ، ص ٢٢

(١) دايسى ، المرجع السابق ، ص ٥٨

ولم يكن إسماعيل يشعر تجاه شركة قناة السويس بنفس شعور سلفه. فمنذ بداية عهده وجد أن مطالبة البلاد بالوفاء بكل ما كان سعيد قد وعد به يعد أمرا شديدا الوطأة . لذا، بدأ الصراع بينه وبين الشركة ، وانتهى الأمر بعرض الموضوع على التحكيم من قبل الامبراطور نابليون الثالث . وقضى الحكم على الحكومة المصرية بتعويض قدره ٨٤ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك أو ما يعادل ٣ ٣٦٠ ٠٠٠ جنيه استرليني . وأنفقت الحكومة بالإضافة إلى مبلغ التعويض مبالغ كبيرة لنشر الحكم وخلافه .

ومنذ البداية أصاب الماشية وباء أعاق تحصيل الضريبة العقارية . وكان هذا الوباء هو السبب الأول الذى دعا إسماعيل للاقتراض بدءا من سنة ١٨٦٤ . وقد ورد بند فى حساب مصروفات ميزانية هذا العام يعادل حوالى ٢٥ ٠٠٠ كيس (أى ما يزيد قليلا على ثلاثة ملايين فرنك) بشأن "خسائر القمح والماشية والزبد المستورد بواسطة الحكومة" . كذلك كان نائب الملك من هواة شراء الأراضي ، وهى هواية كانت تلازمه من قبل أن يتولى العرش ، ولكنها تزايدت يوما بعد يوم . وقد تضخمت الذمة المالية "للدوائر" الخاصة بأعضاء أسرة نائب الملك ، والتي كانت فى الأصل متواضعة للغاية ، الى حد أنها أصبحت تضم بدءا من سنة ١٨٦٥ ما يقرب من الخمس من أجود أراضى مصر الوسطى والدلتا (١) .

ولما كانت مصر فى رخاء اقتصادى فى ذلك الوقت ، فكر إسماعيل فى ابرام قرض يواجه به كل مصروفاته . ولم تكن فكرة اصدار قرض داخلى من الأفكار التى يمكن أن ترد الى ذهنه فى ذلك الوقت . فلم يكن المصريون يعرفون القيم المنقولة بعد ، ولم يكن اليونانيون وغيرهم من المراهبين المستوطنين يغريهم الإقراض بفائدة ٧% أو حتى ٩% . فلم يكن هناك إذن سوى أوروبا للقيام بذلك . لذا وبعد موافقة السلطان عبد العزيز شرع فى المحادثات التى استمرت ثلاثة أشهر ، ووقع عقد القرض فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٦٤ ، وتكفل بهذا القرض البيت المالى فروهلنج وجوشين .

وأصدر القرض فى لندن بنسبة ٩٣% . وكانت قيمته الاسمية ٨٠٤ ٠٠٠ ٠ جنيه استرليني بفائدة ٧% ، على أن يتم إهلاكه على مدى خمسة عشر عاما بالقرعة

(١) أنظر : التاريخ المالى لمصر ، المرجع سالف الذكر

التي تجرى كل ستة أشهر في الخامس عشر من فبراير ومن أغسطس من كل عام ، على أن تدفع قيمة الكوبونات في الأول من أبريل والأول من أكتوبر . وبلغت قيمة الأعباء السنوية لخدمة هذا الدين من فوائد واهلاكات ٢٥٠ ٠٢٥ جنيه استرليني . وخصصت ضمانا لذلك إيرادات مديريات الشرقية والدقهلية والبحيرة . وبلغ ما حصلت عليه الحكومة من هذا القرض ٦٣ ٠٨٦٤ ٤ جنيه استرليني .

يذكر ملنر "أن هذا القرض كان محدودا نسبيا وأصدره مصرف يتمتع بالثقة والسمعة الطيبة . صحيح أن شروطه كانت قاسية ، ولكنها لم تكن مبهظة" .

وفي سنة ١٨٦٥ عقد قرض جديد . وكان المبرر المعلن له هو استبدال الديون السائرة للحكومة . فالقوائد الباهظة التي كانت تدفعها الدولة للمرابين كانت ستؤدي بالخرانة العامة إلى الإفلاس ، وكان الأفضل قطعاً أن يكون هناك قرض عادي بدلا من الديون الصغيرة العديدة التي يصعب سدادها . وكان من بين الأسباب التي أدت الى كثرة هذه الديون السائرة ما سمي بأذونات القرية . ذلك أن أسعار القطن انخفضت انخفاضاً كبيراً بعد انتهاء حرب الانفصال الأمريكية . وكانت تلك ضربة قاسية أصابت الملاك المصريين ، ولم يعد من الممكن معها الحصول منهم على شيء . بل ان الحكومة وجدت أن الوضع بلغ من الصعوبة حدا اضطرت معه الى التدخل بين المدينين والدائنين تفادياً للإفلاس . ذلك أن الملاك ، اعتماداً على الأسعار المرتفعة للقطن ، كانوا قد أبرموا قروضا لم يعد بمقدورهم سدادها . ونتجت عن ذلك شكاوى وملاحقات اضطرت معها الحكومة إلى التدخل للتوسط بين الطرفين ، فأصدرت أذونات أطلق عليها أذونات القرية ، دفعت بموجبها إلى الدائنين ديونهم ، وخففت بها العبء عن المدينين الذين كان يتعين عليهم سداد قيمتها للحكومة على أقساط مؤجلة .

وكلف نوبار باشا ، بعد أن عين ناظراً للأشغال العمومية ، بإجراء المحادثات الخاصة بهذا القرض . وبعد أن اتفق مع السادة أوبنهايم وشركاه على مبلغ ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه انجليزي، وجد الخديوي سعر الفائدة مرتفعاً للغاية فلم ينفذ العقد . ولم تتم تسوية الأمر بشكل نهائي إلا في ٥ يناير سنة ١٨٦٦ .

لكن إسماعيل لم يكن ليطبق البقاء بغير مال الى أن يتم هذا الترتيب الجديد ، لاسيما وأنه لم يكن واثقاً من إتمامه . لذا كان لابد من اللجوء الى قرض آخر . لكن

رؤى هذه المرة أن يكون القرض شخصيا للخيوى . وبذلك أبرم أول قرض من قروض الدائرة السنية . ولم يكن السادة أوبنهايم وشركاه قد يسوا بعد اخفاقهم أول مرة ، بل رغبوا فى المشاركة فى هذا القرض الجديد . وقد تقدم لهذا الغرض كذلك بنك الأنجلو - اجيبيشيان . وبعد اختلافات واتفاقات عديدة رأى المتنافسان أن من الخير أن يشتركا معا فى عقد هذا القرض لكن السادة أوبنهايم وشركاه انسحبوا فى اللحظات الأخيرة وأبرم بنك الأنجلو - اجيبيشيان الصفقة وحده . وتعهد البنك بأن يدفع فعلا ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه استرلينى مقابل سندات بـ ٣ ٣٨٧ ٣٠٠ جنيه استرلينى بفائدة ٧٪ . وكانت نسبة الاصدار قد حددت بـ ٩٢٪ .

ولم يتقبل السادة أوبنهايم هذا القرض بارتياح . وكان إسماعيل يعرف ذلك . ولما كان الاقتراض لا يمثل فى نظره أمرا ذا بال ، رأى أن من اللياقة التفاهم معهم . وفى ٥ يناير سنة ١٨٦٦ ، تم الترتيب التالى : يحصل السادة أوبنهايم وشركاه على سندات الـ ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه انجليزى مقابل دفعهم مبلغا مقطوعا قدره ٢ ٦٤٠ ٠٠٠ جنيه . ولما كان هذا القرض خاصا بالسكك الحديدية ، فان هذا المبلغ كان سيدفع نصفه فقط نقدا والنصف الآخر فى شكل توريدات للسكك الحديدية . وحصل المصرف على عمولة عن هذه التوريدات قدرها ٥٪ . وبلغت نسبة السندات المصدرة من هذا القرض ٨٧٪ . وكانت شروطه أفضل من شروط قرض الأنجلو ، وذلك لأسباب عديدة .

وطرحت سندات كل من القرضين فى السوق ، إلا أن الجمهور استقبل سندات قرض الدائرة السنية أسوأ استقبال . وأراد بنك الأنجلو - اجيبيشيان ارغام الدائرة على استعادة السندات التى لم يتم الاكتتاب فيها ، فاحتج بأن الخيوى أخطأ لاصداره قرضين فى وقت واحد بشروط مختلفة . وأصبح الوضع حرجا الى حد تطلب تدخل رجل آخر من رجال المال ، هو المسيو سيرنوشى ، لاجراج الدائرة من هذا الحرج . لذا تنازل الخيوى عن السندات غير المكتتب فيها الى المسيو سيرنوشى مقابل ٧٢٪ من قيمتها بالإضافة إلى نسبة ٢٥٪ عمولة . وبهذا للتحايل باهظ الكلفة تمت تسوية هذه المسألة المتعلقة بأول سندات للدائرة وذلك فى سنة ١٨٦٧ .

ويبدو لى ، إزاء هذه التصرفات الجنونية من جانب اسماعيل والحيل المعقدة التى نصبها له الممولون الأوروبيون ، أن من الصعب أن نحدد مقدار مسؤوليته عن

هذا الوضع . فهل كان بوسعهم أن يفهم أنه يحفر لنفسه حفرة سحيقة لا قرار لها ؟ لا اعتقد ذلك . لقد كانت لديه أفكارا يريد لها أن تتحول الى واقع ، بل ربما بلغ به الخيال حد الجنون . كان يظن ، وهو نائب الملك الذى يتطلع لأن يصبح ملكا ، أنه يضع يده على كنز لا يفنى وعلى بلد لا حدود لثروته . وحتى يكون ملكا حقيقيا ، على النحو الذى يراه هو ، لابد له أن يكون سيدا لبلده أو بالأحرى مالكا له . فمنذ اعتلائه العرش سعى إلى امتلاك أكبر قدر من الأراضى ، وشجعت حاشيته على ذلك ، فاشترى فى سنة ١٨٦٦ أملاك شقيقه مصطفى فاضل باشا وعمه حليم باشا . فضلا عن رغبته فى امتلاك أراضيهما ، فانه كان يهدف إلى غرض آخر . كان يريد التخلص من هذين الشخصين اللذين كان يمكن أن يسببا إليه وهو نائب الملك ، لاسيما وأنه كان يتفاوض فى ذلك الوقت مع الآستانة لتكون وراثته العرش من بعده لأكبر أبنائه الذكور . وقد كلفه شراء أراضى الأميرين والتفاوض على وراثته العرش الكثير ، مما اضطره الى إبرام قرض سنة ١٨٦٦ بمبلغ ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه بفائدة ٧٪ وحدد موعد سداذه فى عام ١٨٧٤ . ولم يكن هذا المبلغ فى حد ذاته مبلغا ضخما ، ولكن اذا ذكرنا أنه جاء بعد ثلاثة قروض أخرى : قرض ١٨٦٤ ، وقرض ١٨٦٥ ، وقرض السكك الحديدية ، فان ذلك يسمح لنا بأن نتصور مدى اسراف اسماعيل . على أية حال فان العبء الذى كانت تتحمله مصر حتى هذا التاريخ كان لا يزال معقولا .

وتلى فرمان وراثته العرش علنا على الجمهور بمجرد وصوله مصحوبا بالمراسم المعتادة . ووجد الدائنون فيه ضمانا جديدا لهم . فخلفاء اسماعيل سيكونون من أبنائه وستكون مصر وكأنها ملكهم الخاص ، ولن يفكر أى منهم فى التخلّى عن ارتباطات التزم بها جده . وكان لذلك أثر طيب على سوق سندات الدين المصرى ، وهو أثر استمر حوالى ستة أشهر . وعندما كانت الأموال المستخدمة فى تجارة القطن تعود فى أوائل شهر مايو الى الاسكندرية لاستخدامها فى تجارة الأوراق المالية ، كان هناك أنواع عديدة من السندات فى السوق بما جعل الناس يترددون فى استثمار أموالهم فيها . كان الخيار واسعا بالفعل . كانت هناك أذونات Malich وأذونات القرية ، وأذونات الدائرة ، هذا بخلاف سندات القروض . ولما لم تلق الأذونات اقبالا من المشترين ، وكانت الخزنة دائما فى حاجة الى المزيد من المال على الرغم مما كانت تبثله من أموال كثيرة ، اتجه التفكير على الفور الى الاقتراض .

فكر إسماعيل فى اللجوء إلى قرض وطنى . لكن الشعب المصرى كان يخشى
اند الخشية أن يضع أمواله طواعية فى أيدي إسماعيل . لذا ، كان لابد من تغيير
طبيعة القرض بتحويله من قرض وطنى إلى قرض داخلى . لكن مصيره لم يكن أقل
سوءا ، مما اضطر الخديوى الى اللجوء الى الاقتراض الخارجى ، واضطره كذلك الى
أن يقبل أن يكون سعر الفائدة هذه المرة ٩٪ . وكان مقدار هذا القرض ٢ ٨٠٠ ٠٠٠
جنيه .

ما الذى يعنيه ذلك إذن ؟ هل ستتكاثر القروض عاما بعد عام بلا نهاية ؟ لقد
عقدت أربعة قروض فى أربع سنوات بخلاف الديون السائرة التى كانت تتزايد كل
يوم ، والخزانة مع ذلك لا تبدو راضية . طرأت هذه الأفكار على ذهن إسماعيل
وناظر ماليته ، اسماعيل صديق . لقد بلغت الديون السائرة وحدها ، حسب تقدير ناظر
المالية ، تسعة ملايين جنيه . كان لابد إذن من توحيد هذه القروض . وكانت تلك هى
الحجة التى أبدت لعقد قرض جديد هو ذلك الذى أبرم فى سنة ١٨٦٨ .

ولم تكن لهذه الحجة أية قيمة فى نظر المستر " كيف " . فهو يعتقد أن هذا
القرض ، شأنه شأن قرض سنة ١٨٦٤ ، فرضته على الحكومة احتياجات قناة السويس
- ومن السهل تبرير هذا رأى ، الا أنه لابد أن نذكر أن النفقات التى تطلبها القناة
من الحكومة تمت فى سنة ١٨٦٩ وليس فى سنة ١٨٦٨ . فما لم تكن الحكومة قد
أبرمت هذا القرض تحسبا لافتتاح القناة حتى لا تجد نفسها خاوية الوفاض فى هذا
الوقت ، فان حجة المسيو كيف تكون بغير سند . أما أنا فأرى أن الحكومة المصرية لم
تكن قادرة على أن تحسب لغد حسابا ، وأنها أبرمت هذا القرض بسبب حاجتها الى
المال فحسب . أما الهدف من الحصول على هذا المال فلم تكن تعنى بالسؤال عنه ،
ولو أنها سألتها لما غنيت بالإجابة عنه . هذا طابع كل مسرف ، ولا شك فى أنها كانت
كذلك . فالأسباب التى تتذرع بها الحكومة لعقد هذه القروض أسباب واهية عادة فعلى
سبيل المثال تذرع ناظر المالية لعقد هذا القرض بسبب هو توحيد الديون ، بينما يرى
المستر كيف أن السبب الحقيقى هو افتتاح قناة السويس . وعلى الرغم من أن قيمة
هذا القرض كانت ١١ ٨٩٠ ٠٠٠ جنيه استرلينى ، الا أن الحكومة لم تحصل منه
الا على ٧ ١٩٣ ٣٣٤ جنيه استرلينى ولم يتم مع ذلك توحيد الديون المشار اليه ،

وبقيت مسألة نفقات افتتاح القناة التى لم تسدد الا من هذا القرض نفسه على ما سنرى .

والواقع أن الحكومة كانت تلجأ إلى المرابين لإقراضها ديونها السائرة بسعر فائدة فاحش . وكان الدائنون فى هذه الديون يتقدمون كل يوم الى الخزنة التى كانت ملزمة بأن تسدد لهم ديونهم . وعندما كان يشتد الحاحهم ، ولم يكن بالامكان الاقتراض من مراب صغير آخر لسداد دين مراب صغير مثله ، لم يكن هناك بد من اللجوء الى القروض الكبيرة للتخلص من هؤلاء المرابين ولو بصفة مؤقتة ، وللحصول على بعض الأموال السائلة فى نفس الوقت .

كانت الأموال التى تستدينها الحكومة المصرية من صغار المرابين أو من البيوتات المالية الكبيرة تتفق فى أوجه الترف التى يستمتع بها نائب الملك . ومع أنها كانت باهظة الكلفة فى حد ذاتها ، فقد كانت تدفع فيها مع ذلك أثمان مضاعفة . كما أن فكرة استئراج الحضارة الأوروبية فى مصر كانت باهظة الثمن هى الأخرى . فكم من القصور شيدت ، وكم من المسارح أقيمت ، والطرق شقت بأسعار جنونية . وما من شك فى أن ذلك كله أثمر أحيانا أمورا طيبة ، ولكنها كانت تضيع وسط المعاناة التى كان ينوء بها كاهل الشعب فى ذلك الوقت.

كان السادة أوبنهايم هم الذين فازوا بقرض سنة ١٨٦٨ . وكانت القيمة الاسمية لأصل هذا القرض هى ١١ ٨٩٠ ٠٠٠ جنيه وسعر فائدته ٧٪ . وكان المتحصل منه فعلا هو ٧ ١٩٣ ٣٣٤ جنيه ، على أن يتم إهلاكه خلال ثلاثين عاما . وكان الضمان فى هذه الحالة إيرادات الجمارك ورسوم المرور ورسوم الأهوسة وإيجارات الأراضي الزراعية ، والملح ومصايد الأسماك والملاحات .. التى كان يحصل منها جميعا حوالى مليون جنيه .

ولما كانت الحكومة المصرية تتصور أنها ستوحد ديونها، أو على الأقل أنها ستقوم بإنهاء ديونها السائرة عن طريق اقتراض مبلغ كبير ، وأنها لجأت فى شأن عقد هذا القرض إلى أخذ رأى مجلس شورى النواب ، فقد نص هذا العقد على قبول جميع الأنونات المتداولة أيا كان تاريخ استحقاقها سدادا لقيمة السندات الجديدة ، وذلك بقيمتها الاسمية كاملة بالنسبة إلى السندات التى تستحق خلال سبعة أشهر وبخصم ٩٪ من هذه القيمة بالنسبة إلى جميع السندات الأخرى .

كان الوقت قد حان فعلا لتخفيض الديون السائرة بقدر الإمكان ، ذلك أن عيبتها كان ثقيلا ، وأنها كانت تستنفد جانبا كبيرا من إيرادات الخزانة ، بالرغم من أن عبء القرض الجديد كان ثقيلا هو الآخر كما تدل الأرقام على ذلك بوضوح .
ونص عقد قرض سنة ١٨٦٨ على امتناع الحكومة عن إبرام أية قروض جديدة لمدة خمس سنوات .

وشهد العالم فى سنة ١٨٦٩ إنجاز العمل فى القناة التى تربط بين البحرين .
وكان المسيو دى ليسبس والخبير اسماعيل حريصين ، لأسباب مختلفة ، على دعوة أكبر عدد ممكن من الشخصيات لحضور افتتاحها . وأقيمت الحفلات الباهرة ، ومن المؤكد أن المدعوين الذين كانوا يحضرون من بلادهم الى مصر ويققيمون فيها ويشهدون الافتتاح ثم يعودون الى بلادهم بغير مقابل وعلى حساب الحكومة المصرية ، لم يروا من قبل مثل هذا الكرم ، بل مثل هذا البذخ . وما إن انتهت حفلات الافتتاح وأطفئت الأضواء حتى طرقت ضربات الفاقة أبواب مصر والخزانة المصرية . وخلال هذا العام نفسه ، ١٨٦٩ ، جرى اللجوء ، من أجل اقتراض الأموال إلى وسائل ليس من شأنها إلا أن تؤدي إلى الخراب . لم يجرؤ أحد على طلب الأموال من أوروبا التى كانت لا تزال مبهورة بهذه الحفلات الرائعة ، ولم يكن بد والأمر كذلك من البقاء داخل حدود مصر . ويجدر بنا أن نشير إلى أن الأسلوب الذى اتبع حينئذ ، والذى وصفته لجنة التحقيق وأشار إليه عدد من الكتاب ، أقصد أسلوب "بيع الآجل بثمن عاجل" كان يتم على النحو الآتى : تباع الحكومة ، التى كانت بحاجة إلى المال ، إلى أحد البيوت الشرقية ، كمية من الحبوب ، لم تكن حاضرة تحت يدها ، على أن تسلمها له خلال فترة معينة ، بينما تحصل هى على الثمن مقدما . وحين يحل موعد التسليم كانت الحكومة تسلم ما لديها من حبوب تجمعها عينا سدادا للضرائب . ولكن ذلك كان يمثل قدرا محدودا مما كان يتعين عليها تسليمه ، فكانت تشتري الباقي بأسعار أعلى بكثير من السعر الذى باعت به مقدما . وكانت الحكومة تسدد ثمن ما تشتريه بأذن على الخزانة بلغت فائدتها ١٨% و ٢٠% أو يزيد . يقول اللورد كرومر

"إن من المتعذر تحديد سعر الفائدة الفعلى الذى دفعته الحكومة فى النهاية مقابل النقود التى حصلت عليها مقدما . ولا بد أن هذا السعر كان مرتفعا جدا" (١) .

فقيم إذن استخدم قرض سنة ١٨٦٨ ؟ لقد عاد ما كان قد انقضى من الديون السائرة إلى الظهور مرة أخرى على إثر العمل بهذه الطريقة . ويعنى ذلك أن الاثنى عشر مليونا ، مع شدة وطأتها ، لم تعد إلا فى افتتاح القناة . لكن تكاليف هذا الافتتاح لم تزد فى نظر المستر كيف عن أربعة ملايين ، فأين ذهب الباقي ؟ لم يكن أحد يعرف الإجابة بما فى ذلك إسماعيل نفسه .

كان الخديو يشعر منذ زمن طويل بثقل العبء الذى يحمله . كان يتفاوض مع رجال البنوك من أجل إنشاء بنك مصرى . وقد كلفت هذه الفكرة إسماعيل الكثير هى الأخرى ولكنها لم تتحقق .

لم يكن هنالك من سبيل للاقتراض بشروط معقولة نسبيا إلا باللجوء إلى أوروبا . ولكن عقد قرض سنة ١٨٦٨ لم يكن يسمح لإسماعيل بالاقتراض قبل مضى خمس سنوات .

وفضلا عن ذلك فإن السلطان ، الذى انزعج لكثرة قروض إسماعيل ، أصدر فرمانا بمنعه من التعاقد على أى قرض بغير تصريح من الباب العالى . لقد كان جلالته يعنى بمصلحة الولايات التابعة له ، وكانت مصر من بينها ، وقد راعه مركزها المالى بالرغم من أن جانبها كبيرا من الأموال المقترضة كان يدفع الى خزينة الأسنانه . لكن طيبة قلب السلطان، على الرغم من أنها كانت بغير حدود تجاه لإسماعيل ، لاتحتمل أن تتعرض مصر لمثل هذه المعاناة . وقد جاء فى هذا فرمان ما نصه : "لما كان من شأن القروض الخارجية أن ترتفع إيرادات البلاد لسنوات طويلة ، فإننا لا يمكن أن نقبل استقطاع أية مبالغ من إيرادات مصر وتخصيصها لخدمة القروض دون أن تعرض الأسباب التفصيلية التى تدعو إليها على حكومتنا الإمبراطورية ، ودون أن نصدر من جانبنا تصريحا مسبقا بها" .

كان إسماعيل بحاجة الى المال . فماذا يفعل إزاء هذا الوضع ؟ كان الاقتراض الشخصى هو الوسيلة الوحيدة المتبقية أمامه ، فلجأ إليها فعلا ، وأبرم فى سنة ١٨٧٠

(١) أنظر تقرير لجنة التحقيق فى المرحع سالف الذكر للورد كرومر ، ص ٤١

قرضا للدائرة بلغت قيمته الاسمية ٨٦٠ ١٤٢ ٧ جنيه استرليني بفائدة ٧٪ يسدد خلال عشرين عاما، وبلغ القسط السنوى اللازم لخدمته ٨٦٦ ٩٦٠ جنيه . وقد حصل من هذا القرض فعلا ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه . وقيل تفسيراً له أنه سيخصص لاقامة مصانع للسكر وسبك حديد زراعية . ويرى المستر "كيف" أن هذه المصانع وهذه السبك الحديدية ، على الرغم من أنه كان يمكن أن تحقق عائدا بسيطا يزيد عن تكلفة الإنتاج ، فإنها تمت بغير خطة سليمة . ولم يكن ذلك بالأمر الغريب ، فقد بدئ في هذا المشروع ، كما يقول ملتر ، دون اعداد كاف وبتكلفة باهظة.

تضخم الدين المصرى إلى غير حد مما جعل إسماعيل يشعر بقلق شديد . فبالإضافة إلى القروض التى تمت فى أوروبا ، بلغت الديون السائرة ١٨ مليون جنيه استرليني . ولو كان إسماعيل قد تولى تسوية الأمور وحده لما كانت قد تفاقت الى هذا الحد المفرع . ولكنه كان محاطا بحاشية من المنافقين ، يحرضون على مصالحهم الشخصية أولا وقبل كل شيء . فقد كان الموظف يلتحق بخدمة الحكومة بمرتب أربعين جنيها شهريا ، ولكنه لا يلبث أن يصبح مليونيرا ثريا فى بضع سنين . لقد أصبح إسماعيل صديق ، ناظر مالية إسماعيل العزيز ، أكثر رجال مصر ثراء بعد سيده . كما أن عديدا من الأوروبيين الذين كانوا يجيئون من بلادهم فقراء لم يلبثوا ، وقد التحقوا بحاشية الخديوى ، أن أثروا وبدأوا يتباهون بثرائهم . فكل من كان فى معية إسماعيل كان يثرى على حسابه وعلى حساب مصر .

لابد أن تنتهى هذه الديون إذن وأن تنهض مصر من هذا الوضع الحرج . لقد لاحظ السلطان نفسه ذلك اذ قال إن القروض الأجنبية ترتعن إيرادات البلاد لسنوات طويلة قادمة ، فما الذى يمكن تخيله من أساليب لكيلا يكون الأمر موضع ملاحظة أحد ؟ .

تفقق الذهن عن فكرة قيام ملاك الأراضى بسداد جميع هذه الديون مقابل اعفاء أراضيهم من نصف الضريبة العقارية إلى الأبد . وكانت تلك هى فكرة قانون المقابلة . واليك تلك الفكرة المركبة التى إعتقدت الحكومة أن العمل بها سيسمح بإنهاء جميع ديون مصر . فهذه الديون تبلغ فى مجموعها ستة أضعاف الضريبة العقارية التى تحصلها الخزنة سنويا . فإذا دفع الممولون ضريبة مضاعفة لمدة ست سنوات ، وانقضت بذلك الديون، ستمكن الحكومة من انقاص هذه الضريبة بصفة نهائية ، ما

دام أنها لن تتحمل عبء هذه الديون بعد ذلك وأنها لن تكون لذلك بحاجة الى المال اللازم لسدادها . هذه هي الفكرة الأساسية لهذا القانون . وهو قانون طويل ويتناول ، فضلا عن تنظيم المقابلة ، ترتيبات أخرى تتعلق بتنظيم الملكية العقارية .

وربما بدت هذه الفكرة جيدة لو أنها كانت صادرة عن حكومة تدرك معنى الشرف . ولكن موظفي الحكومة المصرية حينئذ كانوا جماعة من محدثي النعمة ، مما لم يكن معه شك في أن الأموال التي ستحصل لن تلبث أن تبذل . ويذكر المستر كيف أن قانون المقابلة ربما كان هو المثل الصارخ على عدم التزام الحيلة من جانب الحكومة وتضحيتها بالمستقبل في سبيل الحاضر . وهو على حق في هذا . فالحكومة لم تكن تفكر قط في المستقبل . وقوله هذا أكثر صحة مما ذكره اللورد كرومر ، وما ذكرته معه لجنة التحقيق ، من أن "الحكومة المصرية لم يكن لديها يوما نية الإلتزام فعلا بروح قانون المقابلة" . على أنه لا مبالغة في ذلك . فالحكومة لم تكن تعرف ماذا تفعل . كل ما كانت تعرفه أن من شأن هذا الاجراء أن يوفر لها ما تريده من أموال الآن ، أما الغد فقد رأت أن من الحكمة أن تترك أمره لغد ! .

وإذا كان لنا أن نبحث بتعمق قيمة قانون المقابلة هذا ، فسوف نصل إلى الأخذ بالرأى الذى انتهت اليه لجنة التحقيق . فقد ذكرت اللجنة في تقريرها أنه "أيا كانت قيمة الأسباب العامة التي تساند أو تعارض تحديد فئة الضريبة العقارية بصورة أبدية ، فما من شك في أن تطبيق هذا الإجراء لا يلائم مصر في ظروفها الحالية . فالبلد زراعى بطبيعته ، وتشكل الضريبة العقارية المورد الأساسى فيه . وفي مثل هذا البلد فإنه مما يتعارض تماما مع المبادئ المالية السليمة أن تقوم الحكومة ، من أجل مواجهة صعوبات مؤقتة ، بالتضحية بالمستقبل ، ليس فقط بتحديد الضريبة العقارية بقيمة ضئيلة ، ولكن بالتعهد كذلك بعدم زيادتها لفترة غير محددة .

إلى أى مدى حقق تنفيذ قانون المقابلة أغراضه ؟

صدر الأمر إلى ناظر المالية بتنفيذ هذا القانون فى أغسطس سنة ١٨٧١ ، وبحلول نهاية شهر ديسمبر قدرت حصيلة الصندوق الخاص بالمقابلة بمبلغ خمسة ملايين جنيه ، "وكان قد سدد القسم الأكبر من هذا المبلغ بمعرفة كبار ملاك الأراضي والباشوات" الذين كانوا يريدون أن تكون ملكيتهم للأرضى التي تقع في حيازتهم ملكية خالصة تماما . وسارعت الحكومة إلى انتهاء الديون السائرة فانقضت فعلا جزء كبير

مها . ولم يسع ناظر المالية ، من فرط نشوته ، الا أن ينشر فى الجريدة الرسمية اعلانا يجدد فيه التزام الحكومة بالوفاء بجميع الديون السائرة من حصيللة المقابلة . وكما سبق أن ذكرنا فان تصرفات حكومة من هذا النوع ، يوجد اسماعيل على رأسها ، لم تكن لتؤدى ، مع الأسف ، إلا إلى الفوضى ، لأن هذه التصرفات لم تكن تسير أبدا فى الاتجاه السليم . فبعد بضعة شهور انحرف إستخدام حصيللة المقابلة عن غرضها الأصلى وهو إنهاء الدين ، وبدأ صندوق المقابلة فى إصدار أذونات المقابلة وطرحها فى الأسواق إلى حد أنه فى الفترة من أكتوبر ١٨٧١ حتى يونيو ١٨٧٢ كان جانب الخصوم المستحقة على الحكومة قد بلغ ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيهها .

نسيت الحكومة فى مثل هذا الوقت القصير الغرض الذى صدر من أجله هذا القانون الجديد الذى أضاف عبئا جديدا على الناس . ولم يفكر أحدهم فى سؤال الحكومة عما تفعله بحصيللة المقابلة . ولعله يجدر بنا أن نشير الى ما ذكرته لجنة التحقيق من "أن آخر ما يفكر فيه للموظف المكلف بتحصيل ضريبة ما ، بل والممول الذى يجبر على دفعها ، هو معرفة للقانون الذى فرضت هذه الضريبة بمقتضاها" . وقد تحولت المقابلة ، التى كانت فى البداية أقرب إلى القرض منها إلى الضريبة ، فأصبحت بعد عام واحد فقط ضريبة كغيرها من الضرائب ، وكانت جبايتها تتم بموجب أوامر عليا وليس بمقتضى قانون انشائها . وكانت المبالغ التى تحصل منها ، شأنها شأن غيرها من المبالغ ، تذهب كلها فى هذه الهوة السحيقة التى لا قاع لها والتى يطلق عليها الخزائنة المصرية .

بعد أن أخفقت محاولة إنهاء الدين عن طريق المقابلة ، واقتربت نهاية المدة التى حظر عقد قرض سنة ١٨٦٨ على الحكومة خلالها إيراد أية قروض جديدة ، وبعد أن نجح الخديوى - بتكلفة باهظة بغير شك - فى اقتناص فرمان من الباب العالى يسمح له بالاقتراض على نحو ما يريد ، بدأ التفكير من جديد فى عملية مماثلة لتلك التى تمت فى سنة ١٨٦٨ ؛ أى فى توحيد الديون . لكن الوضع هذه المرة كان أشد خطورة بكثير والخزينة خاوية تماما . كانت الحكومة سرنج فى محاولتها الوفاء بالتزاماتها ، وقد سبق لها أن لجأت فى سنة ١٨٦٩ إلى بيع الأجل من الحبوب بثمن عاجل للحصول على المال على نحو ما رأينا . لذا لجأت فى سنة ١٨٧٢ إلى عملية مماثلة لتوفير المال اللازم لها فأصدرت أذونات كان يتم بيعها فى السوق بنسبة خصم

١٢ أو ١٤ ٪ ، ثم تعيد الحكومة شراءها بنسبة خصم ٨ ٪ فقد . واستمر هذا الوضع طوال الفترة التي تفاوضت فيها الحكومة على قرض جديد متذرة فيه بالحجة نفسها وهي توحيد الديون للخروج من الأزمة .

وبعد قليل من التردد الذى لم يجد شيئا أبرمت الحكومة مع السادة أوبنهايم قرضا كبيرا بلغت قيمته الاسمية ٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه استرليني يسدد على ثلاثين سنة وبفائدة ٧ ٪ . وكانت شروط هذا القرض شديدة الوطأة ، يقدم المقرضون بموجبها مبلغا مقطوعا قيمته الاسمية ١٦ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه بنسبة إصدار ٧٥ ٪ أى أن ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيهها فقط هي التي حصلت منه فعلا . ولما كان الغرض الأساسى من القرض هو التخلص من الديون السائرة ، كان للمقرضين الخيار فى أن يدفعوا من هذا المبلغ تسعة ملايين بموجب أذونات على الخزانة وكمبيالات المقابلة بسعر خصم ٧ ٪ . ويقول المستر كيف فى حديثه عن هذا القرض أن الخزانة كانت تقبل هذه السندات ، التي كان يحصل عليها المكتتبون فى هذا القرض بتخفيض كبير يصل أحيانا الى ٦٥ ٪ ، بنسبة خصم قدرها ٩٣ ٪ ، الأمر الذى أدى الى تزايد أرباح الوكلاء فى إبرام هذا القرض . ويصبح من السهل فى ضوء ذلك التنبؤ بمصير الستة عشر مليونا الأخرى التي ظلت قابلة للسحب . ولم يغفل المتعاقدون "احتمال أن يتجاوز الاكتتاب العام مبلغ الـ ١٦ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه ، حيث تكون الزيادة للحكومة مقابل حصول المتعاقدين معها على عمولة قدرها ٣ ٪ من القيمة الاسمية للزيادة" . وكانت النسبة المقررة للسحب من المبلغ المتبقى هي ٧٥ ٪ أيضا . وبلغ القسط السنوى لخدمة هذا الدين ٢ ٥٦٥ ٦٧١ جنيه ، وقدم ضمانا له إيرادات السكك الحديدية بالوجه البحرى ، وعائدات الضريبة على الرؤوس والضرائب غير المباشرة ، فضلا عن مليون جنيه تستقطع من حصيلة المقابلة . وبدل هذا الضمان الأخير على الطابع الاحتمالى ، بل الوهمى ، لهذه الضمانات . ذلك أنه كان من المقرر أن ينتهى العمل بالمقابلة خلال بضع سنوات . غير أنه ذكر ردا على ذلك أنه متى أفرج عن القيم الأخرى التي تضمن حاليا قروضا أخرى فإنها ستخصص لضمان هذا القرض بدلا من المقابلة . وتعهدت الحكومة فى البند الأخير بالامتناع عن إصدار أى قرض عام آخر قبل ١٥ يوليو سنة ١٨٧٥ ، وأنه ابتداء من هذا التاريخ وحتى ١٥ يوليو سنة ١٨٧٨ لا يجوز لها إصدار قروض تزيد قيمتها الفعلية عن عشرة ملايين جنيه .

لكن الإقبال على الاكتتاب فى هذا القرض كان محدودا نسبيا . فوفقا لما ذكره المستر " كيف "بلغ مجموع ما حصلت عليه الحكومة منه ٧٧ ٠٧٤٠ ٢٠ جنيه . وما كان يمكن للحكومة بذلك ، حتى ولو كانت شديدة الحيلة - وهى لم تكن كذلك بل كانت أبعد ما تكون عنها - انهاء الديون السائرة التى بلغت فى ذلك الوقت ٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه . لذا فإن هذا القرض ، على الرغم من شدة وطأته على الحكومة ، لم يحسن الوضع على أى نحو يذكر . فقد استغرق سنويا مبلغ ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه ، واستمرت الحكومة فى اللجوء لأساليب كان يفرضها عليها المرابون فى القاهرة والإسكندرية ولم يكن من شأنها إلا أن تؤدى إلى الخراب . وازاء ضخامة الأقساط السنوية اللازمة لخدمة الديون المختلفة ، لم يكن من الغريب أن نرى الحكومة تبحث عن المال فى جميع الإتجاهات . وفى سنة ١٨٧٤ أصدرت الحكومة سندات بمبلغ ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه بضمنان "الرزنامة" ^(١) ، الأمر الذى كان بمثابة دين دائم لا تلزم الحكومة بسداده أبدا ما دامت تسدد عنه قسما سنويا بنسبة ٩٪. وبلغ ما تم الاكتتاب فيه ٣ ٣٣٧ ٢١٠ جنيه ، وما حصلت عليه الخزنة ٠٠٠ ١ ٨٧٨ جنيه منها ٢٩ ٣٢٠ سددت بأذونات خزنة والباقي نقدا . ولم يدفع من كوبونات هذه السندات سوى كويون واحد لبعض المكتتبين دون غيرهم" . كان هذا علاجا مؤقتا فقط ، إذ أن الحالة ظلت على ما هى عليه من سوء . وبدأت الحكومة تبحث عن الأموال من جديد . ولما كانت هناك ارتباطات على الإيرادات كلها ، وكان اللجوء للاقتراض متعذرا ، وكانت جميع دوائر الخديوى مرهونة ، فكر اسماعيل ، وهو المسرف الذى لا يكثرث لشيء ، على نحو ما يفكر كل مسرف غير مبال ، فى أن يبيع أملاكه الشخصية . كانت المحادثات جارية لبيع أسهمه فى قناة السويس . ورغم أن هذه المحادثات بدأت فى باريس ، إلا أن انجلترا هى التى فازت بالصفقة . ويلقى حديث اللورد ديربى الى المسيو جافارد ، القائم بالأعمال الفرنسى فى لندن قبل ابرام الصفقة ، كثيرا من الضوء على الوضع الراهن والمستقبل فى مصر ، وعلى موقف هاتين القوتين منها . فقد قال له : "لابد لكم من الاعتراف بأننا نحن أول

^(١) الرزنامة أشبه بصندوق للمعاشات كانت تستثمر أمواله فى مشروعات صناعية وتجارية (المترجم)

المعنيين بالقناة لأن السفن التي ترفع علمنا تستخدمها أكثر من السفن التي ترفع علم أى بلد آخر ، وأصبح الإبقاء على هذا الممر بالنسبة لنا مسألة جوهريّة ، لذا فأننى سأشعر بارتياح شديد حين نتمكن من حمل المساهمين على التخلّى عن أسهمهم فى الشركة ليحل محلها نوع من التّجمع تمثّل فيه جميع القوى البحريّة . وسنبذل قصارى جهودنا فى جميع الأحوال لكيلا تحتكر أيد أجنبية أمرا نتوقف عليه مصالحنا . ان الضمان الذى تشكّله سيطرة الباب العالى لم يعد كافيا اليوم ، فاذا ما فقدنا الضمان الذى تمثّله لنا مشاركتنا للخدوي فاننا سنكون تحت رحمة المسيو دى ليسبس بصورة كاملة رغم أننى أكن له كل تقدير . فالشركة والمساهمون الفرنسيون يمتلكون بالفعل ١١٠ مليوناً من المائتين التى يتكون منها رأس المال ، وهذا كافٍ . وبعد إبرام الصفقة كتب المسيو مازادى فى مجلة La Revue des Deux Mondes قائلا : "إن العمل كله عمل سياسى وهذا هو ما يسبغ عليه خطورته . وحتى لو لم يشكل فى حد ذاته امتلاكاً فعلياً لأراضٍ مصريّة ، فانه أول خطوة فى هذا الطريق . فإجتزأ لم يعد بمقدورها أن تتخلّى عن العميل الذى تتعامل معه ، فهى ستراقبه ، وستقدم إليه مختلف أشكال المساعدة ، وستطالبه بطبيعة الحال بضمانات أخرى كذلك" .

حصل إسماعيل من بيع أسهمه فى قناة السويس على أربعة ملايين جنيه استرلينى . وماذا كان يمكن لمثل هذا المبلغ أن يصنع وهو فى مثل هذا الوضع الحرج أشد الحرج . كان يتلمس منذ فترة طويلة الطريق الذى يحصل منه على المال ، وفى كل مرة يحصل عليه فيها كان يتطلع إلى المزيد منه .

وها هو اليوم يواجه موقفاً بالغ الصعوبة فى تاريخه ، يتجمع فيه ماضيه كله فوق رأسه بطريقة تكاد تفتك به ، وها هى القروض تبدو أمامه أشباحاً مخيفة تصرخ كل منها دون كلل فى وجهه مطالباً بقيمة الفوائد بقيمة أساطير الإهلاك . ولما لم يجد إسماعيل المال اللازم لتلبية احتياجاته لجأ إلى الأساليب التى جرّت عليه الخراب . فالى جانب كبار الدائنين وقف صغار المرابين الواحد تلو الآخر كالغراب الذى ينتظر سقوط الأسد لينقض عليه ، فبعد سنّى عظمته الباهرة سيبدأ إسماعيل التكفير عن ماضيه ، وهو تكفير بالغ الصعوبة كان لابد أن يفضى الى سقوطه نهائياً .

هل حان الوقت للحكم على هذا الرجل ؟ لو أن إسماعيل مات يومئذ لوجد كثيراً من المؤرخين يشيدون به . ويشئى المستر كيف - الذى جاء إلى مصر بعد

بضعة أشهر وأصبح هو النذير بالتدخل الأوروبي وبنكته الأخيرة - على اسماعيل ثناء شديدا . فهذا الخديوى المستنير ، صديق الحضارة الغربية ، الذى يهوى الاصلاحات والذى أدخل الكثير منها الى مصر ، انما هو نمط يختلف تماما عن الملك الشرقى الذى يتصوره الأوروبيون طاغية يبطش بطشا مطلقا ويمضى حياته بين الملذات والتكاسل . وتتنظر مجلة L' Economiste Francais إلى اسماعيل على نحو مماثل . ومع ذلك فإن اسماعيل كان خلال هذه الأعوام الثلاثة عشر ، فى نظر من يعرف الشرقيين معرفة أفضل ، "مثال المبدد المسرف المحب للبذخ" والذى لا يكثرث لشيء ولا يدرك أنه يعد لنفسه مصيرا فظيحا . فمنذ سنة ١٨٦٩ لفت السلطان نفسه نظر اسماعيل الى مدى إسراره، مع أن السلطان كان نموذجا تاما للملك الشرقى . لكن الأمر الذى جعل اسماعيل يبدو فى مظهر يدعو للتعاطف معه هو أنه رغم نواياه الحسنة ورغم ذكائه كان يدلل آلاف الأشخاص الذين وثق بهم والذين كانوا يبدون - باعتبارهم أوروبين - فى مظهر متفوق ربما أفاد منه الخديوى أو انتفعت به بلاده . وكان بعض هؤلاء من المناققين، وبعضهم الآخر من المحتالين . وكان من سوء حظ نائب الملك ، بطييته وثفته فيمن حوله ، أنه ترك هؤلاء وأولئك يوجهونه ، وتحمل وحده ، بحكم كبريائه الذى وصل إلى حد الغرور ، المسؤولية عن تصرفات مستشارى السوء الذين أحاطوا به ، ودفع وحده الثمن بعد أن خانه هذا العدد الكبير من الأفاقين .

لقد أدى به غروره وحاشيته الى أن يتحمل شروطا قاسية حتى فى القروض العامة التى عقدها على نحو ما أوضحنا من قبل . وها هو اسماعيل ينتقل الآن إلى مرحلة التكفير عن أخطائه ، مرحلة جاءت هى نفسها وليدة هذه الأخطاء .

بيان بحالة القروض المجمعة في سنة ١٨٧٦

تاريخ القرض	قيمتة بالجنيه الانجليزي	سعر الفائدة	تاريخ السداد	مقدار الدين في سنة ١٨٧٦ بالجنيه الانجليزي
١٨٦٢	٣ ٢٩٢ ٨٠٠	%٧	١٨٩٢	٢ ٥١٧ ٠٠٠
١٨٦٤	٥ ٧٠٤ ٢٠٠	%٧	١٨٧٩	٢ ١٣٢ ٠٠٠
١٨٦٥	٣ ٣٨٧ ٣٠٠	%٧	١٨٨١	١ ٤٥٧ ٣١٢
١٨٦٦	٣ ٠٠٠ ٠٠٠	%٧	١٨٧٤	— —
١٨٦٧	٢ ٠٨٠ ٠٠٠	%٩	١٨٨١	١ ١٥٧ ٥٠٠
١٨٦٨	١١ ٨٩٠ ٠٠٠	%٧	١٨٩٨	١٠ ٧٢٢ ٥٢٠
١٨٧٠	٧ ١٤٢ ٨٦٠	%٧	١٨٩٠	٦ ٠٣٢ ٦٢٠
١٨٧٣	٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠	%٧	١٩٠٣	٣١ ٣١٣ ٦٥٩
	٦٨ ٤٩٧ ١٦٠			٥٥ ٣٣٢ ٦١١

هذا بخلاف الديون السائرة للدولة و"الدوائر" والتي بلغت ٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه
استرليني .

الفصل الثالث

١٨٧٦

بعد ثلاثة عشر عاما من الاتفاق الجنونى والبذخ غير المعقول ، كان من المحتم أن يواجه إسماعيل إفلاسا لا مفر منه . لكن رجلا كإسماعيل لا يدركه اليأس بسرعة ، ولابد له من الكفاح حتى النهاية . كانت فرنسا لا تزال تعاني من الضربة الشديدة التى أصابتها فى سنة ١٨٧٠ مما اضطر اسماعيل الى البحث عن مصدر آخر للأموال . وقبل شهور من بيع أسهم قناة السويس لإنجلترا ، مر ولى عهدهما بمصر فى طريقه الى الهند . وخلال فترة إقامته فى مصر أبلغه اسماعيل ، بواسطة السير بارتل فرير ، برغبته فى أن يكون له مستشار إنجليزى للشئون المالية . ورد ولى العهد بأن مثل هذا الأمر من اختصاص القنصل الإنجليزى الذى يمثل حكومته . وتلقت وزارة الخارجية البريطانية ، بعد مغادرة الأمير ، رسالة فى هذا الشأن . وظلت هذه الرسالة دون رد لفترة طويلة . لكن إنجلترا ، بعد أن اشترت أسهم قناة السويس ، بدأت تفكر فى أمر مصر ، فتذكرت حينئذ أمر تلك الرسالة التى مضت عليها عدة شهور ، واتخذتها ذريعة لإيفاد بعثة تحقيق الى مصر ، وهى التى عرفت باسم بعثة "كيف" Cave.

بعثت إنجلترا بالمستر ستيفن كيف الذى كلف ، كما قيل فى ذلك الوقت ، بالتحقيق فى شئون مصر المالية لمعرفة ما اذا كان من الملائم ارسال المستشار الإنجليزى الذى طلبه الخديوي^(١) . ومن السذاجة بمكان الاعتقاد بمثل هذا الهدف المعلن . على أنه من الواضح أن اسماعيل كان يهدف بذلك الى كسب تعاطف إنجلترا ليتمكن من الحصول على قروض جديدة ، والتغلب بذلك على الصعوبات التى يواجهها.

وبدأ المستر كيف تحقيقه ولكن المستندات لم تسعفه . وقد وجدت لجنة التحقيق العليا ، التى أنشئت بعد ذلك بعامين ، "أن من العقبات الرئيسية التى تواجه من يشرع

^(١) دايسى ، المرجع سالف الذكر ، ص ١٣٣

فى دراسة المسائل المالية ، عدم وجود ميزانية وكان مرخصا لعدد من الادارات أن تستقطع بعض مصروفاتها من صافى الإيرادات التى تحققها" . ويعترف المستر كيف نفسه بالصعوبة التى واجهها فى بحوثه بسبب "الصياغة الغامضة وغير الصحيحة لوثائق الحكومة المصرية" .

وبعد انتهاء التحقيق رفع تقريراً عنه إلى الوزارة الانجليزية . ولكن ذرائعى امتنع عن نشر هذا التقرير بحجة أن نشره سيزيد موقف الخديوى حرجا . ومن السهل أن نفهم مدى تأثير مثل هذا التصريح على رأى العام . الا أنه اتضح بعد نشر التقرير أنه كان يدعو إلى الإطمئنان بأكثر مما كان معتقدا من قبل . على أن ذلك لم يمنع رأى العام من أن يتذكر تصريح رئيس الحكومة الإنجليزية ومن إيراد ما يتضمنه التقرير من فقرات تثير القلق ، دون غيرها .

ويشعر قارئ هذا التقرير بأنه يتسم بشيء من السطحية . والحق أن الكشف عن الوضع الحقيقى للخديوى لم يكن بالأمر السهل ، ولابد أن هذه اللجنة الأولى التى أوفدت للتحقيق واجهت عقبات يصعب التغلب عليها ، الأمر الذى يضطرنا للقبول بالتقرير كما هو ، وبالقليل الذى يكشف عنه ، ويتعاطف التقرير بوجه عام مع الخديوى . فهو يعدد المنافع التى حققها لمصر ، والتقدم الذى أحرزته فى عهده ، ويصفه بالنشاط والذكاء ، ولكنه مخدوع الى حد ما فى الآخرين .

ويلاحظ التقرير فى الوقت نفسه أن مالية مصر مثقلة بالديون . كما أن التقدم الذى أحرز لم يحل دون بقاء حالتها المالية حرجة للغاية . فالنفقات ، مهما كانت ضخامتها ، لا تؤدى فى حد ذاتها الى مثل هذه الأزمة الراهنة ، التى تعزى بشكل يكاد يكون كاملا الى الشروط الباهظة للقروض التى تم التعاقد عليها تحت ضغط احتياجات ملحة ، والتى اقتضتها فى بعض الأحيان أسباب لا دخل للخديوى فيها . "وستعرض موارد مصر لخفض اجبارى عندما يتوقف العمل بقانون المقابلة . أما الضريبة العقارية فانها ستحظى ، على العكس ، بدفعة جديدة بحكم التوسع فى الرقعة الزراعية" . وبعد أن أحصى التقرير قروض إسماعيل ، أوضح "أنه ليس هناك غير

وسيلة واحدة للحد من مخاطرها ؛ ألا وهي إعادة شراء قروض سنتي ١٨٦٨ و ١٨٧٣ ، وكذلك سندات الديون السائرة . وستتم هذه العملية بواسطة قرض جديد يتم التعاقد عليه بفائدة معتدلة . وهو يقترح ، لتوفير الضمانات لهذا الوضع ، ايفاد مندوب عن حكومة صاحبة الجلالة يكون بجانب الخديوى ليخلق ذلك مناخا من الثقة . يقول التقرير : "وقد ذكر لنا أحد كبار الموظفين أن من الاحتياجات الأساسية لمصر وجود طبقة رفيعة المستوى من الأوروبيين ، ليست كأولئك الذين يتكالبون على عطايا الخديوى وأمواله ؛ طبقة شبيهة بأولئك الذين يوجدون في الهند ، والذين بذلوا الكثير لرفع مستوى المحليين من أبنائها" . ويقول المستر كيف ، أخيرا ، أن توحيد الديون بفائدة ٧٪ يمكن أن يكون أمرا مفيدا .

لم يحقق هذا التقرير ما كان إسماعيل ينتظره . فهل يتصور أن يكون الرد على ما طلبه هو مراقبة تصرفاته ؟ إن التقرير يكشف الغرض الحقيقي للبعثة وهو الغرض السياسى . فقد وجدت إنجلترا الفرصة سانحة للتدخل فى مصر ، خصوصا بعد أن اشترت أسهم قناة السويس وأن فرنسا كانت لا تزال مشغولة بمداواة جراحها .

وردا على هذا التقرير أمر إسماعيل بعد ذلك بقليل ، فى ٨ أبريل ١٨٧٦ ، بنشر اعلان تم بمقتضاه مد فترة سداد الأذونات والسندات التى تستحق فى شهرى أبريل ومايو من هذا العام لمدة ثلاثة أشهر ، على أن تغل هذه الأذونات والسندات خلال هذه الفترة فائدة بنسبة ٧٪ سنويا . وتظهر هذه النسبة الموحدة لجميع القروض التى بلغت ٧٪ أو ما يزيد على ذلك قليلا ، روح المقاومة التى اتسم بها إسماعيل فى ذلك الوقت . وأدرك إسماعيل ، بعد بضعة أيام ، أن هذا الاعلان كان بمثابة إشهار لافلاس ، وهو أمر يمقته علي الرغم من أنه يحذو فيه حذو سيده السلطان المعظم ، فاضطر إلى العدول عن المقاومة وإتباع الأساليب التى أوصى بها تقرير كيف . لذلك أصدر مرسومين فى ٢ و ٧ مايو ، وخذ بهما الدين وأنشأ صندوقا خاصا لخدمته . ونص مرسوم توحيد الديون على إيقاف العمل بقانون المقابلة . وتذكر ديباجة هذا المرسوم أنه "نظرا لأن توحيد ديون الدولة وجمعها فى دين عام موحد يجعل من غير

الملائم الاستمرار فى دفع المقابلة التى كانت الحكومة تهدف منها الى أن تسهم فى إنهاء الديون ،لسائرة عن طريق دفع ستة أهساط سنوية من الضريبة العقارية مقنما ؛ "ولظرا لأن هذا الدفع المقدم سيؤدى بعد بضع سنوات الى انخفاض أحد الموارد الرئيسية للدولة انخفاضا ملحوظا ، بينما تقتضى مصلحة الحكومة ومصلحة دائنى الدولة تأمين إيرادات الخزانة بطريقة تسمح بسداد الفوائد واهلاك الدين العام وسداد مصروفات الميزانية" .

وكان هذا الإجراء حكيما فعلا ؛ لأنه كما تقول لجنة التحقيق "فى بلد مثل مصر ، وهو بلد زراعى فى المقام الأول ، تعتبر الضريبة العقارية المصدر الرئيسى لإيرادات الخزانة ، ولا بد أن تظل كذلك" .

ولم يكن تقرير "كيف" ينص على هذا الإجراء . بل ، على العكس ، ذكر أن الخديوى ، وقد أخذ على عاتقه تعهدات رسمية أمام شعبه ، فإنه لا بد له من الوفاء بها . لكن الخديوى كان يرى أن تحصيل ضريبة المقابلة لم يعد يفيد فى شىء ما دامت الديون متوحد وتسد على مدى خمسة وستين عاما . لذلك وللأسباب التى نص عليها المرسوم ، توقف العمل بالمقابلة . ولعل من الجدير بالذكر أن هذا المرسوم صدر بعد التشاور مع السادة شيالايا وفبيت وريفرز وپلسون . وكان هذا الأخير أكثرهم حرصا على إلغاء قانون المقابلة .

ويضم مرسوم التوحيد هذا جميع القروض والديون ، المجمعة منها والسائرة ، التى تحملت بها الحكومة أو الدائرة فى دين عام واحد يسدد على مدى خمسة وستين عاما بفائدة ٧٪ . ويمكن مع ذلك التفرقة فيه بين القروض قصيرة الأجل المعقودة فى السنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ ، والتى استبدلت بسندات الدين العام فى حدود ٩٥٪ من قيمتها الاسمية ، وتسلم الدائنون فى قرض سنة ١٨٦٧ كذلك سندات لتكملة الفرق الناتج عن اختلاف سعر الفائدة الجديد عن السعر الذى كان محددا لهذا القرض وهو ٩٪ . أما بالنسبة للديون السائرة فقد سلم الدائنون فيها سندات الدين العام فى حدود ٨٠٪ من قيمتها الاسمية تعويضا لهم عن طول انتظارهم . وقد

اعتبرت نسبة الـ ٨٠٪ المذكورة بمثابة نسبة الاصدار لقرض جديد الغرض منه تغطية الديون السائرة . وتتص المادة الأولى على أنه "نتيجة لهذا الإجراء ، تصبح القيمة الاسمية للدين العام الموحد بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٧٦ هي ٩١ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي .

وبيلغ القسط السنوى اللازم لخدمة هذا الدين ٦ ٤٤٣ ٦٠٠ جنيه إنجليزي تدفع منه الدائرة السنوية ٦٨٤ ٤١١ جنيه وتدفع الدولة الباقي أى ١٨٩ ٧٥٩ ٥ جنيه . وخصصت لخدمة الدين إيرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط وحصيلة رسوم القاهرة والإسكندرية والرسوم الجمركية للإسكندرية والسويس ودمياط ورشيد وبورسعيد والعريش ، وإيرادات السكك الحديدية والرسوم المفروضة على التبغ ، وإيرادات الملح، وإيجار الأراضي الزراعية فى المطرية ، وإيرادات الأهوسة ، ورسوم الملاحة فى نهر النيل ، ورسوم العبور عند كوبرى قصر النيل ، ويصل مجموع ذلك إلى ٨٤٥ ٧٩٠ ٥ جنيه إنجليزي .

وفى الفترة التى انقضت بين نشر تقرير المستر كيف وصدر هذا المرسوم وصدر مرسوم الثانى من مايو بإنشاء صندوق الدين العام ، كانت الحكومة المصرية تفكر فى إنشاء بنك وطنى مصرى يكون له حق اصدار العملة ويقوم بجميع التحصيلات والمدفوعات لحساب الحكومة . وفى ١٩ فبراير سنة ١٨٧٦ أبرم عقد بهذا الشأن مع الأتجلو - اجييشيان بنك (البنك الإنجليزى - المصرى) . واحتفظ الخديوى بالحق فى تعيين مفوضين عنه لدى البنك الجديد يطلب الى فرنسا وانجلترا وإيطاليا ترشيحهم . وبمجرد توقيع العقد والاتفاق على هذه الترتيبات ، طلب الخديوى إلى الحكومة الفرنسية ترشيح أحد المفوضين بصورة غير رسمية . على أن وزير خارجية فرنسا ، الدوق ديكا ، وإن لم يرفض هذه الخطوة ، إلا أنه أوضح للخديوى أن من الأفضل لأسباب عديدة إنشاء صندوق خاص يشرف عليه مفوضون من الدول الرئيسية المعنية . وكان إسماعيل يميل الى هذه الفكرة ، وكان هذا هو السبب الذى أدى الى صدور مرسوم ٢ مايو بإنشاء صندوق الدين العام .

كان إسماعيل يريد أن يكون سيدا فى بلده ، وكانت فكرة التدخل الأوروبى فى تنون مصر فكرة بغیضة إلى نفسه . وبدأ أن الصراع الناشئ بينه وبين أوروبا سينصب فى جوهره على مسألة التدخل ومده . لكن هذا الصراع لم يكن صراعا متكافئا قط ، فقد كان أحد طرفيه أمير مفلس لدولة ضعيفة وكان طرفه الآخر القوى الكبرى . كان من الذكاء إبراز هذا الأمر والتمسك به ، ولكنه لم يعد مقنعا لأوروبا التى باتت تشك فى أمر صاحبه . وبدلا من أن تتباعدة عن بعضهما البعض ، اتخذت فرنسا وإنجلترا الخطوات من أجل القيام بعمل مشترك فى وادى النيل . ولم يكن بوسع اسماعيل الا أن يخضع لفكرة التدخل رغم محاولته حصرها فى أضيق الحدود .

ويستطيع المرء أن يستشف من صياغة مرسوم للتانى من مايو عدم الاستقرار الذى كان وضع اسماعيل فى ذلك الوقت قد اتسم به فعلا تجاه أوروبا . جاء فى ديباجة المرسوم أنه "حرصا منا على أن نبرهن رسميا على عزمنا الأكيد على توفير كافة الضمانات لمصالح ذوى الشأن ، قررنا انشاء صندوق خاص يكلف بخدمة الدين العام بصورة منتظمة ، وتعيين مفوضين أجانب لادارته سيتم ترشيحهم من قبل حكوماتهم ، بناء على طلبنا ، ليكونوا مؤهلين لشغل الوظائف التى سنعينهم فيها كموظفين مصريين" . كان على الحكومة اذن ، وفقا لهذا المرسوم ، أن تتخلى عن مكانها وأن تتركه للصندوق بعد اذ فرض نفسه كوسيط بينها وبين دائنيها . وكان على محصلى إيرادات المديریات والمصالح التى خصص دخلها لخدمة الدين ، أداء ما يحصلونه الى صندوق الدين العام ، الذى أصبح فى هذا الشأن بمثابة صندوق خاص تابع للخزانة العامة" . ولا يجوز إخلاء طرف هؤلاء الموظفين الا بموجب مخلصات صادرة من الصندوق . ولتوفير مزيد من الضمانات ، تقدم المديریات والمصالح إلى الصندوق شهريا، عن طريق وزير المالية ، بيانا بتحصيلاتها . وإذا لم تكف هذه الإيرادات لسداد مبلغ الفوائد وقيمة أقساط الإهلاك ، تدفع الخزانة العامة الفرق . وإذا ما ظل هناك فائض بعد ذلك فإن الصندوق يسدده فى نهاية كل عام الى الخزينة العامة للمالية . ولهذا فقد حظر عليه استخدام أى مبلغ فى عمليات الائتمان والتجارة وغيرها .

وبالإضافة إلى حزمة الدين يتعين أن يبدى الصندوق رأيه بالموافقة على كل تصرف حكومي يتضمن تغييراً في الضرائب المخصصة قد يؤدي إلى تخفيض العائد منها . كما يبدى الصندوق رأيه بالموافقة كذلك على أى قرض تضطر الحكومة إلى عقده . ويعرض على محاكم الإصلاح (المحاكم المختلطة) أى خلاف ينشأ بين الصندوق والحكومة في هذا الشأن .

ويقول المسيو دى فريسنييه : "يشكل هذا المرسوم أول انتهاك معلن لسلطة الخديوى . فالرغم من اعتدال الصياغة ، فإن التخلي من جانب الخديوى عن سلطاته باد فيه بوضوح ، وأصبح الدانتون الأجانب يشكلون بذلك سلطة داخل الدولة . وقبل إسماعيل هذه الوصاية ، وأصبح بيد الدانتين اختيار الأوصياء ولم يعد ذلك بيد الحكومات . كما أن التدخل على هذا النحو من جانب الحكومات يؤدي الى تغيير طبيعة التزاماتها نحو مواطنيها وزيادة خطورتها" ^(١) .

وعلى العكس من ذلك يذهب المسيو لوروا - بوليو : إذ يقول "إن ما كان يفقر إليه الخديوى في ذلك الوقت هو وجود الرقابة . وأما ما أغرى به وأدى به الى الخطيئة فهو سهولة الإقراض . وسيخضع الخديوى من الآن لرقابة لن تكون مجرد رقابة شكلية فحسب . أما سهولة الإقراض فقد انتهى عهدها تماماً بالنسبة إليه" ^(٢) .

وفي ٢٢ مايو سنة ١٨٧٦ ، وبعد أخذ رأى حكومات فرنسا والنمسا وإيطاليا ، صدر مرسوم بتعيين السادة دى بلينبير ، ودى كريم ، وبارافيللى كمديرين مفوضين لصندوق الدين العام . وامتنعت الحكومة البريطانية عن تعيين أى شخص من طرفها بمقولة أنها لا تتدخل في الشؤون المصرية .

^(١) دى فريسنييه ، المسألة المصرية ، ص ١٥٩

^(٢) "الأكونوميست فرانسيز" ، سنة ١٨٧٦ . ص ٦١٥

ولم يرض الدائنون عن هذا الحل . فقد تضمن مرسوم التوحيد غبنا لهم ولحقوقهم . وكانوا يعتقدون أن موارد مصر يمكن أن تكفى لسداد قروضهم بالشروط التى تنص عليها عقودهم ^(١) .

لذا، طلبوا إجراء تحقيق جديد ، فذهب المستر جوشين والمسيو جوبير الى القاهرة ممثلين للدائنين لإجراء هذا التحقيق وتوصلا أخيرا إلى حل . وكانا يحظيان بمساعدة حكومتيهما بشكل غير رسمى . فقد قدم القنصل الإنجليزى فى القاهرة المستر جوشين إلى الخديوى بصفته وزيرا سابقا فى الحكومة الإنجليزية ^(٢) . وقد ثارت أمامهما نفس الصعوبات التى صادفها التحقيق من قبل بل وأكثر ، إذ أبعد الخديوى ناظر مالىته ، إسماعيل باشا صديق الشهير بالمفتش ، خشية أن يكشف للمحققين عن أشياء تضر بوضع الخديوى . لذا لم يكن بد للمحققين من قبول الأرقام التى قدمها إسماعيل مرة أخرى ، وتمخض هذا التحقيق عن المرسوم الشهير الصادر فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ وعن عقدين يتعلق أحدهما بدين الدائرة السنية والآخر بدين الدائرة الخاصة.

وقد أضفى مرسوم ١٨ نوفمبر هذا طابع الدوام على الصندوق حتى تمام إهلاك الدين . وتجيز المادة ٢١ للمفوضين بيع البضائع والحبوب التى تقدم سدادا

^(١) هى تحليلها لتقرير كيف ، تقول وكالة هافس ما يلى : "ليس من الصحيح أن المستر كيف صرح بأن استبدال الدين المصرى بسندات بفائدة ٧٪ أمر ضرورى لتحقيق التوازن فى الميزانية . وإذا ما اتخذنا أساسا للحساب مقدار الأصول والخصوم فى الميزانية ، حسبما سجلها المستر كيف ، فانتا نجد أن موارد مصر كافية لتجميع ديونها السائرة دون أية تصحية من جانب حملة السندات .

"والواقع أن جميع الحلول المركبة ، القائمة فعلا أو التى لا تزال معلقة ، بالرغم من قيامها على أساس نسبة فائدة تزيد عن ٧٪ بقدر ملحوظ ، فانها لا تزال تترك فائضا فى الميزانية وتسمح بالوصول ، فى أجل قريب سيبا ، إلى إهلاك الدين الحالى بالكامل" . ويرى المسيو بول لوروا - بوليو كذلك أن موارد مصر تكفى لسداد الديون ، على أن يتم تجميع الديون السائرة دون حاجة إلى استدائها . ولم يكن لهذه الأمكنة صدى إيجابى لدى الرأى العام ، ولا سيما لدى الدائنين ، عند التعرض للبراسيم الجديدة .

^(٢) أنظر سيمور كاي . المرجع السابق

للضرائب . ويجوز لهم إرسال المبالغ التى يتم تحصيلها الى بنك انجلترا وبنك فرنسا . ولكن يتعين عليهم التشاور فى ذلك مع ناظر المالية ومع المراقبين العامين . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد جاءت صلاحيات الصندوق متسعة بشكل واضح . فبدلاً من إعادة الفائض الذى يمكن أن يتوفر لديه بعد سداد القسط السنوى للدين إلى الخزانه ، كما ينص على ذلك مرسوم ٢ مايو ، فإنه سيستخدم هذا الفائض فى إهلاك الدين على نحو ما سنرى فيما بعد .

وقد تضمن هذا المرسوم كذلك تدابير خطيرة تخل بسيادة الحكومة المصرية . فكل ما يتعلق بالشئون المالية للبلاد أصبح تحت وصاية الأوروبيين الذين سيعينون بعد موافقة حكوماتهم . هكذا جاء المراقبان العامان ، أحدهما فرنسى والآخر إنجليزى ، وهما موظفان تختارهما حكومتيهما ولكنهما يتبعان الخديوى وحده . ويتولى أحدهما منصب المراقب العام للإيرادات ويتولى الآخر منصب المراقب العام للحسابات وللدين العام . وتتخلص مهامهما فى مراقبة الإيرادات والمصروفات حتى يتم تحصيل الإيرادات بانتظام وبحيث تصرف فى الأوجه المخصصة لها . ويقومان ، بالتعاون مع ناظر المالية ، بمراقبة تنفيذ الميزانية تنفيذاً دقيقاً ، ويشكلون معاً لجنة الشئون المالية . وأنشأ هذا المرسوم كذلك إدارة للسكك الحديدية وميناء الإسكندرية تتكون من خمسة أعضاء ؛ إثنان من البريطانيين وإثنان من المصريين وفرنسى واحد . ويتولى أحد المديرين الإنجليزيين مهام الرئيس (م ٢٣) . ويرجع السبب فى انشاء هذه الإدارة الى الحرص على حسن سير أعمال السكك الحديدية وميناء الاسكندرية حتى تضمن إيراداتها بالفعل السندات الجديدة الخاصة بالدين الممتاز .

من الواضح ، إذن ، أن أوروبا كانت تريد توفير كل ما يمكن تصوره من ضمانات للدين . فلم يفلت قرش واحد فى ذمة الحكومة من الرقابة الدقيقة للأوروبيين . فهل كان ذلك راجعاً الى كثرة ما قدم للحكومة المصرية من تنازلات إلى حد لم يعد ممكناً معه السماح لها بتبديد أموالها على نحو ما فعلت حتى الآن ؟ .

لقد تم بموجب مرسوم السابع من مايو تجميع كافة ديون الحكومة والدائرة في دين عام موحد بلغ ٩١ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي بفائدة ٧٪ يتم إهلاكه على مدى خمسة وستين عاما . ووفقا لمرسوم ١٨ نوفمبر فإن هذا التوحيد يتطلب لتطبيقه اجراء عدد من التعديلات . فهو يبدأ بالفصل بين ديون الدولة وديون الدائرة ، وهو فصل سيظل قائما من بعد .

وتمت التفرقة في ديون الدولة بين ثلاث فئات :

١ - القروض قصيرة الأجل التي تمت في سنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ . وتستعيد هذه القروض كيائها المستقل الذي كان لها من قبل ، حيث تظل الفائدة عنها واستهلاكاتها سارية وفقا لما نصت عليه العقود الخاصة بها . "الا أن إهلاكها يتم في حدود ٨٠٪ من قيمتها الاسمية بدلا من ١٠٠٪" . وأحيا المرسوم إيرادات المقابلة واعتبر أنها لم تتوقف ونص على استخدامها في اهلاك هذه الديون .

٢ - أصدرت سندات جديدة ممقازة بفائدة ٥٪ بمبلغ ١٧ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي تستهلك على مدى خمسة وستين سنة . وتخصص إيرادات السكك الحديدية وميناء الإسكندرية بصورة مباشرة لمسداد قيمة الفوائد ولاهلاك هذه المجموعة من السندات . وأدى وجود هذا القرض إلى إعادة تحميل الحكومة بعبء الـ ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه من سندات الدين الموحد المقدمة ضمانا لأشغال ميناء الاسكندرية . ويبلغ القسط السنوي اللازم لخدمة هذا الدين ٨٨٥ ٧٤٤ جنيه إنجليزي . وتستبدل السندات ذات الفائدة ٥٪ بسندات الدين الموحد بفائدة ٧٪ وتكون أولوية الحصول عليها لحملة سندات قروض ١٨٦٢ و ١٨٦٨ و ١٨٧٣ .

٣ - يدخل باقي الدين العام المقرر بموجب مرسوم ٧ مايو في تشكيل الدين الموحد بفائدة ٧٪ ويستهلك على مدى خمسة وستين عاما كذلك .

وعلى هذا، فإن الدين الموحد الذى كان يبلغ ٩١ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه انجليزى

قد خفض بمقدار ما سحب منه على النحو التالى :

١ - الدين المجمع للدائرة	٥ ٩٠٩ ٢٨٠ جنيه انجليزى
٢ - الديون السائرة	" " ٢ ٩٠٦ ١٥
٣ - فروض ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧	" " ٤ ٣٩٢ ٦١
٤ - الدين الممتاز	" " ١٧ ٠٠٠ ٠٠
٥ - زيادات متنوعة	" " ٤ ١٥٣ ٩٣

٣٤ ٣٦١ ٩٧٧

٥٦٦٣٨٠٢٣

- قيمة ما تسترده الحكومة ممثلة ٢ ٠٠٠ ٠٠٠

لميناء الاسكندرية مما قدم على سبيل الضمان

- رصيد تحت تصرف الحكومة ٣٦١ ٩٧٧

- مجموع الدين الموحد ٥٩ ٠٠٠ ٠٠٠

ويبلغ القسط السنوى لخدمة هذا الدين ١٧٧ ٧٨٠ ٤ جنيه إنجليزى تسدد على

دفعتين كل ستة أشهر .

وكان على صندوق الدين أن يتكيف مع كل هذه التعديلات . فعليه أن يتسلم

الإيرادات المخصصة ، وأن يتبع فى استخدامها القواعد التى نص عليها المرسوم .

فعليه ، أولاً ، أن يدفع القسط نصف السنوى للدين الممتاز من إيرادات السكك الحديدية

وميناء الاسكندرية . فإذا لم تكف هذه الإيرادات لذلك فإنه يستقطع الفرق - فى المرتبة

الأولى - من الإيرادات المخصصة لخدمة الدين الموحد . ثم يقوم الصندوق بسداد

القسط السنوى للدين الموحد . وعليه بعد ذلك أن يقوم بسداد القروض قصيرة الأجل .

ثم يستخدم ما يتبقى لديه من أموال فى إهلاك الدين ، هذا ما لم يكن هناك عجز فى

مصروفات ميزانية الحكومة بتعين عليه سداذه ، علماً بأن هذه المصروفات محددة

بمقتضى جدول مرفق بالمرسوم .

والمادة المتعلقة بالإهلاك فى المرسوم مادة طويلة تقع فى صفتين كاملتين وتتناول الموضوع بصرامة ، فلابد من أن يتم اهلاك الدين بكل الوسائل الممكنة . صحيح أن الدين الموحد يسدد على خمسة وستين عاما ، ولكن اذا تيسر اهلاكه فورا فليكن ذلك . لابد لهذا العبء الثقيل الذى ينوء به كاهل مصر ، والذى يثير القلق الشديد لدى أوروبا ، أن يزول . ولا بد من معالجة هذا الجرح الدامى الذى يضر بالجميع علاجا ناجعا قدر المستطاع من أجل تخفيف الأضرار الناجمة عنه إلى أقصى حد ممكن . لذا ينبغى إستخدام أى فائض لدى الصندوق ، بعد سداد القسط السنوى والعجز فى المصروفات الحكومية ، فى إهلاك الدين ، ويدخل فى ذلك أيضا المقابلة والايادات المخصصة .. الخ . لابد اذن من التخلص من هذا الدين الكريه فى أسرع وقت ممكن . فحتى حقوق الدائنين تعرضت لتعديل قد يبدو غريبا اذا ما قورن بالحماية الصارخة التى كانت تسبغها أوروبا عليهم . فقد استخدمت نسبة ١٪ من الفوائد فى اهلاك الدين . على أن يتم ذلك عن طريق اعادة الشراء العام ما دام ذلك ممكنا فى حدود ٧٥٪ من القيمة الاسمية . وان لم يمكن إعادة الشراء فى حدود ٧٥٪ من القيمة الاسمية ، يتم الإهلاك عن طريق السحب بالقرعة بنسبة ٧٥٪ . ولكن المادة نصت ، من قبيل الاحتياط ، على أنه اذا تحسنت الأحوال فى مصر وتجاوز فائض الإيرادات ١٥٠ . ٠٠٠ جنيه انجليزى سنويا ، يتم اهلاك بنسبة ٨٠٪ .

وستبين فيما يلى بيان ما كان يرمى إليه مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ . فقد صدرت لائحته التنفيذية بقرار من ناظر المالية فى ٦ ديسمبر من العام نفسه، الأمر الذى يتضح منه كيف أن المستر جوشين والمسيو جويير كانا يمثلان الدائنين تمثيلا حقيقيا . وعين المسيو رومان عقب صدور المرسوم مراقبا عاما للإيرادات ، وعين البارون دى مالاربه مراقبا عاما للحسابات ، وعين الجنرال ماريوت رئيسا لإدارة السكك الحديدية . وأبلغ اللورد ديربى الخديوى "أن حكومة صاحبة الجلالة لا تستطيع أن تقبل أية مسؤولية عن هذه التعيينات وان كانت لا تعترض عليها"^(١)

^(١) اللورد كرومر ، المرجع سالف الذكر ، ص ١١

ولم تبد حكومة صاحبة الجلالة اهتماما بتعيين مفوض إنجليزى فى شئون الدين . ولكن تم بواسطة اللورد جوشين تعيين السير ايفلين بارنج فى هذا المنصب .
بذلك حل محل لإدارة الشرقية ، التى تسير بغير نظام محدد ولا مبادئ معينة ، والتى تفتقر الى الدقة الرياضية التى يتسم بها الغرب وحضارته ، وأوروبيون تشهد لهم حكوماتهم بقدرتهم على القيام بمهام وظائفهم وبموجب هذا المرسوم أمسك العنصر الأوروبى بزمام الجانب الأكبر من الجهاز الحكومى ، فما الذى حققه فى الواقع ؟

فى ١٢ يوليو سنة ١٨٧٧ أبرم عقد بين المستر جوشين والمسيو جوبير من جهة ، والمدير العام للدائرة السنوية من جهة أخرى ، سوى بمقتضاه دين الدائرة . وفى ١٣ يوليو، أبرم عقد آخر بشأن ديون الدائرة الخاصة . والعقد الأول طويل ، وسأقتصر على تلخيص ما جاء به لإعطاء فكرة عنه . والسبب فيما استقر عليه عزمى هو أن هذا العقد يفصل بصفة نهائية بين ديون الدائرة والدين العام للدولة . واعتبرت تلك الديون ديونا شخصية للخديوى ، ومن ثم ، لا يصبح لها أية صلة بديون مصر . ولم ترد بذهن إسماعيل ، عندما أصدر مرسوم التوحيد الأول ، فكرة الفصل بين الذمة المالية للدولة وذمته المالية الخاصة . ولعله كان يقول لنفسه "الدولة .. أنا" ، بينما كان هناك غيره من الناس ، بل ومن الأوروبيين أنفسهم ، يجدون ذلك أمرا غير مفهوم ، ويقولون هم بهذه التفرقة .

وطبقا لهذا العقد فإن ديون الدائرة يجب أن تسدد من عائد أملاكها، فإن لم توجد فمن المخصصات الخديوية . وليس للدولة دخل فى شأن هذه الديون الشخصية ، كما أن صندوق الدين نفسه مستبعد من القيام بخدمتها . لذلك، أنشئت إدارة خاصة فى الدائرة تضم ثلاثة أعضاء: المدير العام للدائرة ومراقبين يختارهما المستر جوشين والمسيو جوبير ، فإن لم يفعلا فيعينان بواسطة أصحاب السندات فى لندن وباريس . ويشكل هؤلاء الثلاثة المجلس الأعلى للدائرة الذى يشرف على الأملاك، كما يتناول أمر دين الدائرة .

وينص العقد على استبدال الدين ، سواء المجمع أو السائر ؛ أى ما قيمته ٤٣٠ ٨١٥ جنيه إنجليزي بسندات بفائدة ٥٪ . وتخصص إيرادات الدائرة لخدمة هذا الدين ، كما تستقطع من المخصصات الخديوية نسبة ١٪ من الدين العمومى المتداول على سبيل الإعانة ، وذلك فى جميع الحالات التى لا تصل الإيرادات فيها الى نسبة ٨٪ من هذا الدين العمومى . على أنه لا يجوز أن تتجاوز هذه الاعانة من المخصصات الخديوية ٢٥٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي سنويا . وتخصص نسبة الـ ٨٪ المشار إليها على النحو الآتى : ٥٪ منها للفوائد ، ثم ١٪ لإهلاك الدين . فإذا لم يتبق سوى الـ ١٪ ، المستقطعة من المخصصات الخديوية ، فإنها تستخدم فى إهلاك الدين . أما إذا تبقى ٢٪ فتخصص نسبة المخصصات الخديوية وقدرها ١٪ لإهلاك ، وتخصص الـ ١٪ المتبقية من الإيرادات لدفع فوائد إضافية قدرها ١٪ أيضا . وإذا ما زادت الإيرادات عن نسبة الـ ٨٪ سألفة الذكر تخصص الزيادة لتحسين الأراضى ولأعمال الدائرة . وتم رهن جميع أراضى الدائرة البالغة ٩٧٥ ٤٣٤ فدانا لصالح الدائنين .

أما العقد الذى أبرم بشأن دين الدائرة الخاصة فيخصص ٥٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي من المخصصات الخديوية لخدمة هذا الدين الذى جرت زيادته بنسبة ١٠٪ . ويتم اهلاك ديون الدائرتين عن طريق إعادة الشراء بإعلان عام فى حدود ٧٥٪ من القيمة الاسمية ، وإلا فيتم عن طريق السحب بالقرعة فى حدود هذه النسبة نفسها . تلك هى الملامح الرئيسية لنصوص كل من العقدين اللذين نزعا عن الخديوى أملاكه الخاصة كلها تقريبا .

تعسا لك يا إسماعيل ! ها هو يشهد انهيار كل ما بناه . ها هو يرى نفسه ، وهو الخديوى القوى ، نصف الإله الغاشم ، خاضعا لوصاية أجنبية ، ليس فيما يتعلق بشئون بلاده فحسب ، بل كذلك فى شئونه الخاصة وفى ذمته المالية الشخصية . كان اسماعيل بالأمس يأمر فيطاع ، يتصرف فى كل شئ ، وها هو اليوم يقبل ويخضع لكل شئ . لم تعد تسعفه إرادته الصلبة ، وذكأؤه المبكر شيئا فى مواجهة أوروبا التى

انتلفت ضده . هناك رقابة مفروضة على مالية الدولة ، وعلى مالية الدائرة ، وهناك ميزانية محددة سلفا للمصروفات . كل تصرفات إسماعيل خاضعة للرقابة ، وها هو الصراع الذى بدأ منذ أوائل سنة ١٨٧٦ يبدو وكأنه انتهى .

وعلى مصر ، التى أصبح أمرها بأيدي الأوروبيين ، أن تبدأ اليوم حياة هدوء و دأب . ينبغي أن تتوقف شكوى الفلاحين ، وعلى المراقب العام للإيرادات أن يتأكد من أن المحصلين يقومون بجباية الضرائب المقررة دون غيرها . وينبغي كذلك أن تتوقف شكوى الدائنين ، فالبطل المدين لهم سيشق من جديد طريقه نحو الرخاء .

انقضى عهد الخراب ومظاهر الإسراف المفرطة . وقد أنشئ صندوق الدين لكى يسهر على ذلك ولكى لا يرخص بعقد أى قرض جديد ما لم يكن موقنا من نفعه . لم تعد هناك قصور تبني ، أو دور أوبرا تشيد ، ولا مظاهرات لا جدوى منها . ويبدو أن الوقت قد حان لكى يستريح إسماعيل بعد ثلاثة عشر عاما حافلة ، ولكى تتخفف مصر من ثقل قبضته عليها .

إن التنبؤ بهذا كله يصبح أكثر سهولة على ضوء معرفتنا بأولئك الذين تم تعيينهم ، وليس لى حكم شخصى على أى منهم ، ولكنى أكتفى بما ذكره أحدهم فقط ، هو سير ايفلين بارنج (الذى أصبح الآن إيرل أوف كرومر) ، إذ يقول : "لا أدعى أن الموظفين الأوروبيين الذين جاءوا الى مصر فى ذلك الوقت كانوا يتمتعون بصفات خاصة لا يوجد نظير لها ، بل توجد بكثرة ، بين غيرهم من الموظفين المدنيين فى فرنسا وفى إنجلترا ... فقد كنا جميعا أمناء قادرين على أن نكون لأنفسنا آراء مستقلة وأن نعبر عنها . كنا جميعا مصممين على القيام بواجبنا كأحسن ما نستطيع" ^(١) .

كان هناك مجال ، إذن ، مع هؤلاء الأشخاص الأمناء وبهذه المراسيم والنظم ، للأمل فى أن تدخل مصر عهدا جديدا فى ظل نظام جديد .

فهل كان هذا الأمل فى محله ؟ وهل حقق هؤلاء الأمناء وهذه النظم الرخاء لمصر ؟. هذا ما سنراه فى الفصول التالية .

^(١) كرومر ، المرجع سالف الذكر ، ص ١٩

الفصل الرابع

اللجنة العليا للتحقيق

أمسكت المؤسسات الجديدة بزمام الإدارة الحكومية وكان عليها أن تمتل في الوقت نفسه الأطراف الذين يتعاملون مع الحكومة . كان صندوق الدين يمثل الدائنين وكان المراقبان العامان يمثلان الفلاحين المقهورين . لذلك توقف القهر الذى كان يمارس على الفلاحين ، كما أنه لم يعد هناك تأخير في خدمة الدين . لابد أن الجميع كان يشعر بالارتياح لذلك فيما عدا إسماعيل وحاشيته . صحيح أن الترتيبات الجديدة لم تتضمن أية تنازلات لصالح مصر ، كما أنها لم تفرض أية تضحيات على الدائنين . ولكن رؤى ، طالما أن الحالة انتعشت في مصر ، أن من الأفضل أن تقوم بالوفاء بالتعهدات التي التزم بها خديوى مصر .

ومن أسف أن الأمور لم تسر من الناحية العملية على النحو نفسه الذى بدت به من الناحية النظرية . وهذا هو الحال دائما . فمنذ نشأة هذه المؤسسات بدت استحالة التوفيق بين مصلحة الدائنين الكاملة وبين المصلحة الكاملة للبلاد ، وكان لابد من تقديم التنازلات أو من التضحية بأحد الطرفين لصالح الآخر . واختارت أوروبا هذا البديل الأخير . وكان الشعور واضحا بأن أوروبا ، بالرغم من كل ما تقوله عن إنسانيتها . فإنها لن تضحي بمصالح الدائنين الأوروبيين . لذا ، تم اللجوء ، بمناسبة دفع قيمة الكوبون الأول لعام ١٨٧٧ الذى يحل أداؤه فى الأول من يناير ، وبلغت قيمته ٢٣٠١٠٠٠ جنيه إنجليزى ، الى وسائل القهر السابقة نفسها . وقد كتب القنصل الإنجليزى فى هذا الشأن قائلا إنه "نتيجة للضغوط الشديدة التى تعرضت لها الحكومة المصرية كانت الضرائب تحصل مقدما قبل موعدها بستة أشهر فى بعض الأقاليم" . أين كانت اذن المادة الثامنة من مرسوم ١٨ نوفمبر التى تفرض على المراقب العام للايرادات أن يتأكد من عدم تحصيل أية ضرائب غير مرخص بها ، وأين كان هذا المراقب العام حينئذ؟.

وأصبح الموقف أكثر حرجا عندما حل موعد سداد كوبون ١٥ يوليو . كان الخديوى يقول أنه لم يعد لديه مال ولا يعرف من أين يحصل عليه . وكان يعترف صراحة بأن الضرائب تحصل فى بعض الأقاليم قبل موعدها بسنة كاملة . وكان القنصل العام الانجليزى ، ولعله كان أكثرهم إنسانية ، يقول له إن سموه يتعرض لخطر كبير فى حالة عدم دفع قيمة الكوبون المذكور . على أنه ليس من السهل أن نفهم لماذا يظل هو مسئولا عن عدم دفع قيمة هذا الكوبون بعد أن أخضع لهذا القدر الكبير من الرقابة . على أنه لابد من الاعتراف مع ذلك بأن نفوذ الخديوى كان ملموسا فى كل النواحي . وكان أمره العالى له قوة القانون بالنسبة لجميع المصريين . ويرجع إلى هذا النفوذ الفضل فى التمكن من تحصيل الضرائب اللازمة لدفع قيمة هذا الكوبون المستحق فى ١٥ يوليو ، وسدادها الى صندوق الدين ، على الرغم من انخفاض فيضان النيل . وكتب اللورد فيفيان ، القنصل الانجليزى ، غداة ذلك الى حكومته قائلا أن "الأموال المطلوبة دفعت أمس ، ولكنى أخشى أن نكون قد وصلنا إلى هذه النتيجة على حساب تضحيات مدمرة من جانب الفلاحين قد تودى إلى إفلاسهم ، بعد أن بيعت الحبوب جبرا عنهم ، وبعد أن تم تحصيل الضرائب مقدما . إن ذلك كله يفرض ، بطريقة أو بأخرى ، على بلد قهرته بالفعل شدة وطأة الضرائب . كما أخشى أن تودى الادارة الأوروبية ، دون وعى منها ، إلى افلاس الفلاحين افلاسا كاملا ، على الرغم من أنهم هم صانعو ثروة البلاد، وأعتقد أن الإنجليز يتحملون فى هذا الصدد مسئولية خطيرة" .

وبعد أن اضطرت الحكومة المصرية إلى التضحية بكل شيء لسداد قيمة الكوبونات ، لم يبق لديها ما تدفع منه مرتبات موظفيها . وكانت صيحات الأكم تتعالى من جميع الجهات . كتب أحد الإنجليز من موظفى الحكومة المصرية قائلا أنه لم يضع فى فمه كسرة خبز لمدة يومين كاملين . ومنذ بداية سنة ١٨٧٨ أصبح البؤس صارخا ، وبدأت آثار الانخفاض الذى حدث فى فيضان النيل فى العام السابق فى الظهور بوضوح . وتظهر مذكرات المسافرين الذين جاؤا الى مصر فى تلك الفترة المصريين بمظهر مثير للشفقة . "فى الأول من مايو سنة ١٨٧٨ حل موعد سداد قيمة الفوائد على الدين الموحد البالغة مليونى جنيه انجليزى ، بينما لم يكن بأيدي مفوضى الدين حتى ٣١ مارس أكثر من ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه . لذلك كان لابد من تحصيل مبلغ

مليون ونصف المليون جنيه خلال فترة لا تزيد على شهر". "وكان أسلوب الحكومة في ذلك معروفا مقدما : الاغتصاب والقسوة . على أن مفوضى الدين كانوا - أخيرا - قد تأثروا من كثرة هذه المظالم واتفق رأيهم على عدم دفع قيمة هذا الكوبون . لكن الفرنسيين كانوا يرون مع ذلك أن حالة مصر تسمح لها بسداد ديونها . ولم يكن بوسعهم الاقتناع بأن كل الأموال التي دخلت الى مصر قد بددت ، لاسيما وأن الاحصاءات الجمركية كانت تدل على أن الجزء الأكبر من هذه الأموال بقي في مصر". كيف يمكن اذن الحديث عن الحالة المساوية للبلاد وعدم قدرتها على الوفاء بالتزاماتها . فلتبين الحكومة مصير هذا الذهب! من الواضح إذن أن الحكومة المصرية لا عذر لها إذا لم تف بتعهداتها التي التزمت بها رسميا تجاه أوروبا ، وعليها تقع لذلك تبعة ما جرى في مصر من خراب متزايد والذي يصيب في جانب كبير منه الجالية الأوروبية". هذا ما بعثت به الجالية الفرنسية في الإسكندرية إلى المسيو وادينجتون ، وزير خارجية فرنسا في ذلك الوقت . وقد ساندت الحكومة الفرنسية مطالب مواطنيها ودعت الحكومة الإنجليزية إلى القيام بذلك أيضا . لكن الأحداث اللاحقة دلت على خطأ هذه الفكرة وعلى أن اتباع الحكومتين لها لم يؤد إلا إلى مزيد من المظالم والوحشية. فالواقع أن الحكومة المصرية كانت معسرة ولم تكن قادرة على الدفع . وكانت الأسس التي قام عليها مرسوم ١٨ نوفمبر خاطئة ، وكان ذلك هو مصدر الصعوبات كلها . فقد قدر دخل مصر بـ ١٠ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي في سنة ١٨٧٦ ، بينما لم يصل هذا الدخل إلى أحد عشر مليونا إلا بعد عشرين سنة من هذا التاريخ^(١) . ويضرب اللورد كرومر مثلا محمدا على عدم دقة هذه الأرقام بإيرادات السكك الحديدية . فقد قدر المسيو جوشين والمسيو جوبير هذه الإيرادات بـ ٩٠٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي ، في الوقت الذي كانت تشمل فيه ٣٠٠ ٠٠٠ جنيه من الإيرادات الصورية الخاصة بنقل الجيش وأسفار أعضاء الأسرة الخديوية وأصدقائها ، ولم يكن هؤلاء يستقلون القطارات العادية إلا فيما ندر .

ولما كان المرسوم خاطئا أساسا ، فكان لابد أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى ظهور الصعوبات التي نجمت في عامي ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ، لاسيما وأن صندوق الدين

(١) كرومر ، Modern Egypt ، ص ٢١

كان مكلفا بتنفيذ الشق الذى يخصه من المرسوم تنفيذًا دقيقًا . ولم يكن من الممكن الوفاء باحتياجات الصندوق وإرضاء الفلاحين فى وقت واحد . وقد وجد المراقبان العامان نفسيهما أمام حالة من الفوضى لا نظير لها فبهتا لما رأيا ولم يشرعا فى عملهما إلا بصعوبة بالغة . فقد كان من الضروري أن يتحققا من أن الضرائب التى تحصل فعلا هى الضرائب المقررة فحسب ، بينما لم يكن بوسعهما معرفة ماهى الضرائب المقررة أصلا فى مصر . "فالقوانين المالية لا تنتشر فى أى مجموعة تشريعية رسمية ، بل إنها لم تجمع أبدا" . وقد أشارت لجنة التحقيق نفسها ، عند تناولها لهذا الموضوع فى تقريرها ، إلى أن المراقب العام لم يكلف نفسه بالقيام بهذه المهمة . ويبدو أن وضع المراقبين كان من الصعوبة بحيث لم يتمكنوا من المضى فى عملهما على نحو يسمح لهما بممارسة صلاحياتهما ممارسة فعلية إلا ببطء شديد . فقد طلب إليهما المرسوم ، على سبيل المثال ، المشاركة فى إعداد الميزانية . وبعد عامين من صدوره ، ذكر البارون دى مالريه ، المراقب العام للحسابات ، أمام لجنة التحقيق أن "الواقع أنه لم توضع أية ميزانية منتظمة فى مصر منذ بدأت الإدارة التى أنشأها مرسوم ١٨ نوفمبر فى ممارسة عملها".

لماذا إذن لم يبادر الى تصحيح الأوضاع وإلى إعداد ميزانية ؟ يبدو أن السبب فى ذلك يرجع الى أنه لم يكن مكلفا بذلك ، على غرار مفوضى الدين الذين كانوا مكلفين بتنفيذ الشق الذى يخصهم من المرسوم . أم أن السبب يرجع ، كما يقول مورا ، وهو الرأى الذى أخذت به لجنة التحقيق ، إلى أنهم كانوا يواجهون صعوبات لا حصر لها ، ولم يكن قد أتيح لهم الوقت الكافى لاستكمال الإصلاح المنشود ؟ . إذا كان ذلك صحيحا فلا بد أن نشعر بالارتياح "لأن جهودهم أدت الى الحد من النفقات الحكومية والى تنظيمها نوعا ما" . وأعتقد من جانبى أن المراقبين العامين كانا يريان استحالة تنفيذ المرسوم على نحو ما كان يرى ذلك مفوضو الدين ، بل وربما بشكل أكثر وضوحا . غير أن موقف الحكومتين الفرنسية والإنجليزية كان يدعوها إلى التصرف على النحو الذى تصرفا به . فما دامت الحكومتان تحرسان أشد الحرص على أن تدفع قيمة الكوبونات فى الموعد المحدد لها ، وأنه لم يكن من سبيل لتحقيق ذلك سوى الرجوع إلى أخطاء الماضى ، وإلى تحصيل ضرائب غير مقررة ، وإلى الأعمال الوحشية ، فقد اضطر المراقبان الى غض الطرف عما كان يحدث من ذلك .

على أنهما كانا مع ذلك من ذوى الضمانر الحية فلم يعتمدا الإيصالات التى كان يصدرها محصلو الضرائب على نحو ما كان ينص عليه المرسوم . بعبارة أخرى ، لابد أنهما كانا مقتنعين باستحالة التوفيق بين طرفى هذا المرسوم : الدائنين والممولين .

لم يكن من الممكن أن يستمر الأمر على هذا الحال ، لاسيما أنه كان لدى الحكومة المصرية نفقات أخرى غير خدمة الدين ، على الرغم من أن هذه الخدمة كانت تستغرق كل شيء تقريبا . ففي عام ١٨٧٧ كان حملة السندات يحصلون من الدخل البالغ ٥٤٣ ٠٠٠ جنيه إنجليزى على ٤٧٣ ٠٠٠ جنيه ، وبذلك لم يبق للحكومة بعد سداد أرباح أسهم قناة السويس لإجتزاس سوى ١ ٠٧٠ ٠٠٠ جنيه لمواجهة نفقاتها الإدارية . وفى سنة ١٨٧٨ ساءت الأمور أكثر من ذلك . فقد ظهرت آثار إنخفاض فيضان النيل ، الذى حدث فى العام السابق ، فى جميع جوانب الحياة الاقتصادية للبلاد . فبينما حققت إيرادات السكك الحديدية من نقل الحبوب ، حسبما ذكر مديرها لمفوضى الدين ، حصيلة قدرها ٢١ ٧٤٣ ٠٠٠ قرش (حوالى ٢١٧ ٥٠٠ جنيه إنجليزى) فقد حققت فى نفس الأشهر من سنة ١٨٧٨ ما لا يزيد على ٣٤٤ ٥٧٩ ٧ قرشا . صحيح أن هذا العام لم يكن عاما عاديا ، ولكنه مع ذلك أثار ذعرا شديدا . لقد كان الخراب مرعبا . وكان السؤال هو كيف يعالج هذا الوضع ؟ . كان مفوضو الدين ، ولاسيما المفوضان الفرنسى والإنجليزى ، مقتنعين بضرورة وضع ترتيب آخر غير ترتيب عام ١٨٧٦ . ولكن كان ينبغى قبل اقرار أى "توليفة" مالية أخرى توضيح الأمور . وكان السبيل الوحيد الى ذلك القيام بتحقيق شامل فى جميع فروع الادارة . إلا أن "حملة السندات" ، كما قال اللورد فيفيان لحكومته ، يطلبون أن يكون التحقيق بشأن الوضع المالى محايدا ومكثفا ، وألا يترك أى دين دون فحص ، وألا تترك حجة يمكن التذرع بها لوضع ترتيبات جديدة . وسيكونون على استعداد فى هذه الحالة للتضحية بالمصالح التى قد تقتضيها الضرورة" .

وكان إسماعيل ، هو الآخر ، يرى ضرورة إجراء تحقيق . ذلك أنه لم يعد يحتمل الوضع الذى كان يوجد فيه . وكان يرى أن شعبه يتعرض لمعاناة شديدة لم يعد هناك طائل من ورائها . فلماذا إذن الإستمرار فى فرض كل هذه المآسى التى لا يجنى منها الا كره المصريين له ؟ . لكن التحقيق الذى كان يريده كان سينصب فقط على

الايادات . ولن يكون للمحققين شأن بالإدارة أو بالمصروفات . لذا أصدر مرسوماً فى هذا الصدد بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ . وتم تعيين أعضاء اللجنة بموجب مرسوم لاحق . واعترض مفوضو الدين على الطابع المحدود للتحقيق ، وأعلنوا عدم مشاركتهم فيه . وأبلغ هذا الاعتراض إلى إسماعيل ولكنه تجاهله ودعا الكولونيل جوردون ، الذى كان متعاطفاً معه ، لرئاسة اللجنة . ولم يكن لهذا الأخير دراية بالشئون المالية ف شعر ، كما يقول فى يومياته ، أنه لن يكون الا " واجهة " (١) . وقد أثارت رغبة إسماعيل فى تعيين الكولونيل جوردون " استياءً بالغاً ، كما يقول البارون دى ميشيل ، قنصل فرنسا العام فى مصر فى ذلك الوقت ، إلى حد بدا معه الخديوى متردداً فى اللحظة الأخيرة " (٢) . وبعد مفاوضات جرت بين فرنسا وإنجلترا ، لم يسمع الخديوى الا الامتثال لرغبتها وأصدر فى ٣٠ مارس مرسوماً نصت مادته الأولى على " منح اللجنة أوسع الصلاحيات " . وكان برنامج عمل لجنة التحقيق قد حدد بمعرفة المسيو جوشين والمسيو جويبير ، كما عين أعضاؤها بعد مشورتها . وقد جاء فى برقية موجهة من المسيو وادينجتون الى القنصل الفرنسى فى مصر ما يلى : " لقد أبرقت الى لندن لتأييد تشكيل لجنة تضم المسيو دى ليسبس رئيسا والمسيو ويلسون نائبا للرئيس ، ومن يعين من زملائه ومفوضى الدين الأربعة . وقد قبل المسيو جوشين والمسيو جويبير هذا التشكيل " (٣) . ولابد أن نشير هنا الى أن تأييد القوى للدائنين ولممثلهم حتى ذلك الوقت كان تأييدا غير رسمى . وقد ضمت اللجنة فى عضويتها ، بالإضافة الى هؤلاء ، رياض باشا ممثلا للحكومة المصرية . وعين المسيو ليرون ديروول سكرتيرا لها . وبدأت اللجنة عملها كما يذكر المسيو دى فريسنيه ، قاصدة ادانة إسماعيل . ومارست حقها فى استجواب الوزراء وكبار الموظفين بصورة كاملة ، بل الى حد مبالغ فيه . ووصل الأمر بشريف باشا ، ناظر الحقانية فى ذلك الوقت ، الى الاستقالة لأنه لم يكن يريد أن يمثل بشخصه أمام اللجنة . وخلال شهر أغسطس من هذا العام رفع المحققون المفوضون تقريراً أولياً الى الخديوى . وقد أشرنا أكثر من مرة إلى هذا التقرير فى حديثنا عن الضرائب

(١) أنظر Colonel Gordon in Central Africa ، ص ٣١٠

(٢) الوثائق الرسمية الفرنسية ، شتون مصر ، ١٨٧٨ - ١٨٧٩

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤

والمحاسبة . وينقسم هذا التقرير إلى قسمين : الأول يتعلق بالحالة العامة للإدارة المصرية وعلاقتها بمالية البلاد ، ويتعلق الثاني بحالة الميزانية . ويرمى الاتجاه العام للتقرير إلى الحد بقدر الإمكان من سلطات رئيس الدولة الذى تعتبره اللجنة مسئولاً عن الوضع الحرج القائم فى مصر . وترجع مسئوليته عن هذا الوضع إلى أنه يتمتع بسلطات لا حدود لها" . فلنحد منها من أجل الصالح العام للبلاد . لذلك ، قدمت اللجنة ، فى ختام القسم الأول من تقريرها ، المقترحات التالية :

- لا يجوز جباية أية ضريبة إلا بمقتضى قانون منشور فى مجموعة قوانين رسمية .
- ممارسة السلطة التشريعية المقترنة بالضمانات بما يسمح بإصدار قوانين الضرائب وتطبيقها على جميع السكان فى مصر دون تفرقة بسبب جنسياتهم .
- وضع جميع المحصلين عملياً تحت رئاسة نظارة المالية ، على أن يخضعوا محلياً لإشراف مفتشين تابعين للإدارة المركزية .
- إصلاح عمليات المحاسبة ، وتنظيم حسابات الميزانية .
- تكوين صندوق للاحتياطى لمواجهة العجز الذى قد يطرأ فى بعض السنوات بسبب عدم كفاية فيضان النيل .

- تشكيل قضاء مستقل تقدم إليه المطالبات المتعلقة بالضرائب .

- إلغاء جميع الضرائب التى تكون ذات حصيله ضئيلة .

- إعادة النظر فى الضريبة العقارية والرسوم الجمركية ^(١) .

ووفقاً لما جاء فى القسم الثانى من التقرير ، بلغت قيمة الديون غير المجمعة للدولة ٦ ٢٧٦ ٠٠٠ جنيه إنجليزي، ووصل العجز فى سنة ١٨٧٨ إلى ٣ ٤٤٠ ٠٠٠ جنيه . وكان لابد من إيجاد المال الذى يسمح بمواجهة هذا العجز وسداد هذه الديون . وقد جاء فى خاتمة القسم الثانى من التقرير أنه من الانصاف ، قبل التفكير فى فرض أعباء جديدة على الممولين ، أو مطالبة الدائنين بالتضحية بجانب من حقوقهم التى اكتسبوها بموجب العقود والمراسيم ، أن يسهم رئيس الدولة ، وهو المسئول الوحيد عن هذا الوضع بحكم أنه لم يكن هناك أى قيد على سلطاته ، فى حدود ثروته فى تغطية هذا العجز الناتج عن الطريقة التى استخدم بها سلطاته" .

(١) الوثائق الرسمية الفرنسية ، شئون مصر ، ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ ، ص ٥٣ - ٥٤

"لذا نعتقد أنه يتعين علينا أن نطلب إلى سمو الخديوى التفضل بتخصيص كامل أملاك دوائره لتصفية هذا العجز". ويمكن أن يفيد هذا التخصيص ، ليس فقط فى مواجهة هذا العجز ، بل كذلك فى تحسين عائد هذه الأراضى . فالدخل الذى يتحقق من الـ ٩١٧ ٠٠٠ فدان ، التى تتشكل منها أملاك الأسرة الخديوية ، لم يكن يزيد على ٨٥٠ ٠٠٠ جنيه ايجلىزى ، وهو دخل ضئيل للغاية .

بدا إسماعيل مترددا إزاء ما انتهت إليه اللجنة . لكنه قرر فى ٢٣ أغسطس ، وبضغط من نوبار باشا ، أن يقول للمستتر ريفرز ويلسون ، فى خطاب وجهه إليه "أما فيما يتعلق بالناتج التى توصلتم إليها فاننى أقبلها" . وفى الثامن والعشرين من الشهر نفسه صدر الأمر العالى الشهير الصادر فى هذا اليوم موجهها إلى نوبار باشا وجاء فيه : "اننى أريد من الآن فصاعدا الحكم من خلال مجلس للنظار ، ويجب أن يكون جميع أعضاء المجلس متضامنين فيما بينهم ، وهذه مسألة جوهرية" . وكلف نوبار باشا بتشكيل الوزارة ، وطلب الى المستتر ريفرز ويلسون التعاون معه فى هذا الأمر . وقد كلف هذا الأخير ، تحت إشراف نوبار باشا ، بالتعاقد على قرض جديد فى أوروبا يستخدم لتجميع الديون السائرة ومواجهة العجز فى الميزانية، وكان هذا هو منشأ قرض الدومين الذى عرف فيما بعد باسم قرض روتشيلد . وقبل التعاقد على هذا القرض ببضعة أيام ، صدر فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧٨ مرسوم تخلت فيه الأسرة الخديوية عن ممتلكاتها . وجاء فى ديباجة هذا المرسوم : "أن أعضاء أسرتنا قرروا التخلّى عن جميع ممتلكاتهم العقارية ونقل ملكيتها الى الدولة لتمكينها من تسوية الأوضاع المالية للحكومة بصورة مستقرة ومنصفة" . وقد صيغت المادة الثانية منه على النحو الآتى : "يتم عقد قرض باسم الدولة بما لا تزيد قيمته الاسمية عن ٨ مليون جنيه كحد أقصى" . وتنص المادة الثالثة على أن : "تضمن هذا القرض الأملاك التى تنازلت عنها أسرتنا للدولة والتى تضم ٢٢٩ ٤٢٥ فداناً من الأراضى والعقارات المبنية . ويصل الدخل الصافى لهذه الأراضى والعقارات الى ٤٢٦ ٤٢٢ جنيها انجليزيا سنويا" . وفى حالة عدم كفاية هذه الإيرادات لخدمة هذا القرض تتم تغطية الفرق من الإيرادات العامة للحكومة . ومن أجل توفير مزيد من الضمانات ، وبناء على الحاح السادة دى روتشيلد على الحكومة الفرنسية ، أنشأ المرسوم ادارة

خاصة تتكون من ثلاثة أعضاء : مصرى وإنجليزى وفرنسى لإدارة هذه الأملاك وتسليم إيراداتها للمتعاقدين .

وخلال شهر أكتوبر أصبح المستر ولسون وزيراً للمالية المصرية بصفة نهائية . وبصفته ممثلاً للحكومة المصرية ، أبرم فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٨ مع المستر روتشيلد وأولاده فى لندن ، والسادة روتشيلد أخوان فى باريس ، اتفاقية بشأن فرض الدومين . وفيما يلى ملخص لهذه الاتفاقية : تصل القيمة الاسمية للقرض الذى يتم بموجب الترخيص الوارد فى مرسوم ٢٦ أكتوبر الجارى ، وللقواعد المبينة فيه ، إلى مبلغ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزى بفائدة ٥٪ سنوياً . وتدفع الفوائد كل ستة أشهر فى الأول من يونيو والأول من ديسمبر من كل عام ، وتستحق الدفعة الأولى فى أول يونيو سنة ١٨٧٩ . وتصدر السندات النهائية بفئات ٢٠ و ٤٠ و ١٠٠ و ٢٠٠ و ١٠٠٠ جنيه إنجليزى ويرفق بها كوبونات نصف سنوية تدفع قيمتها بواسطة فروع بنك روتشيلد . ويتم إهلاك هذا القرض عن طريق إعادة الشراء بسعر السوق إذا كان هذا السعر أقل من القيمة الاسمية أو بالقرعة إذا زاد عنه . ويخصص لهذا الإهلاك جميع المبالغ الناتجة من بيع أملاك الدومين أو أى مبلغ آخر يتوفر بعد سداد الفائدة . وتتم جميع عمليات السحب بالقرعة أو إعادة الشراء تحت مراقبة بنك روتشيلد فى لندن الذى سيقوم بالغاء جميع السندات والكوبونات المستهلكة وتسليمها إلى ممثل المالية المصرية فى لندن . ويسدد البنك المذكور مقدماً إلى الحكومة المصرية مبلغ ١ ٢٢٥ ٠٠٠ جنيه إنجليزى لسداد قيمة كوبون الدين الموحد المستحق فى أول نوفمبر سنة ١٨٧٨ . ونظراً لأن بنك روتشيلد ليس إلا ممثلاً للحكومة المصرية فى هذه العملية وأنه لا يتقاضى أى مبلغ مقطوع من قيمة القرض ، فإن المبلغ المسدد مقدماً سيعتبر بمثابة دين خاص تدفع عنه الحكومة المصرية فائدة ٧٪ سنوياً ، وتستقطع هذه الفائدة من أول تحصيلات تتم لحساب هذا القرض . وتصل جملة المبلغ المتحصل من هذا القرض ، بعد خصم المصروفات (بنسبة ٢٥٪) وكذلك ٢١٢ ٥٠٠ جنيه إنجليزى تخصص لسداد المبلغ الذى سيستحق فى أول يونيو سنة ١٨٧٨ ، إلى ٥ ٧٨٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزى ^(١) .

(١) أطر تقرير لجنة التحقيق

وقد استخدم المبلغ المتحصل من هذا القرض لإنهاء الديون السائرة ، وذلك بعد إستقطاع ١ ٢٦٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي خصصت لسداد قيمة الكوبون المستحق في أول نوفمبر سنة ١٨٧٨ . "لقد رأينا بهذه المناسبة كيف انقضت على ناظر المالية جماعة من الدائنين كان كل منهم أشد تعجلا من صاحبه لاستيفاء دينه"^(١) . ويقول مراسل "التايمز" أن ناظر المالية كان حريصا على اتمام تصفية الديون السائرة طبقا لقواعد محايدة تمام الحيدة . فلن تقدم بعد الآن تضحيات غير معقولة لصالح حملة السندات ، ولن تدفع بعد الآن كوبونات يأبى الشرف المالي أن تدفع ، ولكن كل جهد ممكن سيبدل للحفاظ على الجدارة المالية المصرية على الأسس التي وضعها المسيو جوشين"^(٢) .

وقد ثارت صعوبة بالغة في فحص هذه الديون . فقد كان هناك أولا دائنون بأيديهم أحكام قضائية صادرة لصالحهم من المحاكم المختلطة . وكان لابد من السداد لهؤلاء . "وبلغت قيمة الأحكام الصادرة ضد الحكومة المصرية والتي لم تنفذ حتى ١٥ مايو سنة ١٨٧٨ مبلغ ٧٤١ ٠٠٠ جنيه إنجليزي ، وصدرت منذ هذا التاريخ أحكام جديدة كثيرة بمبالغ كبيرة"^(٣) . وكان الموردون والدائنون من جميع الجهات يتقدمون ويتعجل كل منهم الحصول على نصيبه من هذه الكعكة (٨ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي) .

ولم يكن بوسع ناظر المالية أن يسدد كل ما هو مطلوب منه ، لاسيما وأن قيمة القرض لم تكن ستصل كلها دفعة واحدة . وكان المركز المالي للبلاد حرجا فعلا . فمع وجود عجز في ميزانية سنة ١٨٧٨ بلغ ، كما ذكرنا من قبل ، ٣ ٤٤٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزي ، وعجز في سنة ١٨٧٩ بلغ ٣٨١ ٠٠٠ جنيه إنجليزي ، لم يكن من السهل أن يتم في وقت أحد الوفاء بالديون السائرة وخدمة الدين المجمع وتوفير ما يلزم للنفقات الادارية . بل إن صندوق الدين كان قد أوقف سداد قسط إهلاك الدين الموحد بعد كوبون نوفمبر سنة ١٨٧٨ . ولم تتحسن الأمور كثيرا في سنة ١٨٧٩ .

(١) أنظر L'Economiste Francais ، فبراير سنة ١٨٧٩ ، ص ١٢

(٢) المرجع السابق

(٣) التقرير الأول للجنة التحقيق

وينبغي أن نشير إشارة عابرة إلى أنه كان من نتيجة تعيين المستر ويلسون وزيرا للمالية والمسيو دى بلينيير وزير للأشغال العمومية ، فى ظل النظام الجديد الذى أوجده الأمر العالى الصادر فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ ، أن توقف عمل المراقبين العاملين المعينين بموجب مرسوم ١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٦ ولكن "بشرط أن يعودوا الى العمل تلقائيا اذا أعفى أحد الوزراء الفرنسى أو الإنجليزى ، اللذين استدعيا للقاهرة ، من منصبه دون موافقة مسبقة من حكومته"^(١) . وبذلك أصبح كل شيء بأيدي الوزارة .

واستأنفت لجنة التحقيق عملها خلال شهر ديسمبر سنة ١٨٧٨ برئاسة المستر ويلسون بهدف الوصول إلى نتيجة نهائية ووضع نظام "يؤمن حسن سير العمل فى المرافق العامة ويكون محققا للمصلحة العامة ومصلحة الدائنين على حد سواء" . وكان من بين أعضاء اللجنة ثلاثة وزراء هم المستر ويلسون والمسيو دى بلينيير ورياض باشا . وقدمت اللجنة فى أبريل سنة ١٨٧٩ تقريرها الى الخديوى وأرفقت به "مشروع قانون لتسوية مؤقتة للوضع المالى" . وكان هذا المشروع قائما على أساس أن مصر فى حالة إعسار ، وأنه ينبغى لذلك تصفية أصولها وخصومها وفقا للقواعد التى ينص عليها القانون بالنسبة للأشخاص الذين يشهر إفلاسهم . وحدد هذا التقرير مصير ضريبة المقابلة . "فقد عدلت ضريبة الأطنان بحيث تعود إلى قيمتها التى كانت عليها قبل فرض ضريبة المقابلة التى تقرر إيقاف تحصيلها" . واعتبرت المبالغ السابق تحصيلها لحساب المقابلة دينا للممولين . وقد اعتمد الترتيب المقترح على المبادئ الثلاثة التالية :

" أ - أنه لا ينبغى أن يطلب إلى الدائن عمل أية تضحيات قبل أن يكون المدين قد قام بكل التضحيات المعقولة .

" ب - أن الطريقة التى تتبع فى توزيع التبعات بين الطبقات المختلفة للدائنين يجب أن تكون أقرب ما يمكن من تلك التى تتبع فى الحالة المشابهة المتمثلة فى إفلاس الأشخاص فى مصر .

" ج - يجب أن يكون هذا الترتيب ملازما لجميع الأشخاص المعنيين .

(١) أنظر الوثائق الرسمية الفرنسية ، شئون مصر ، سنة ١٨٧٨ ، ص ١٣٤

وكان لهذا المبدأ الأخير الذى وضعته لجنة التحقيق أهمية خاصة . فقد كانت الترتيبات التى وضعت فى سنة ١٨٧٦ موضع إعتراض أحيانا أمام المحاكم المختلطة التى كانت تحكم لصالح الداننين . ومن ثم ، لن يكون من الممكن الوصول الى شىء مستقر ما لم تحترم هذه المحاكم للترتيب المقترح .

وهذا هو المبدأ الذى أخذ به فيما بعد عند اصدار قانون التصفية . كان إشهار إفلاس مصر أمرا شنيعا فى نظر إسماعيل . وقد أدت به بعض الظروف السياسية الى التخلي عن وزيريه الأوروبيين قبل أيام من وعد المستر ويلسون له بتقديم التقرير النهائى للجنة التحقيق . والآن ، وبعد أن قدم إليه التقرير ، لم يكن يريد أن يقبل بالنتائج التى توصل اليها . وكان من بين الأسباب التى دعت الى ذلك الطريقة التى عومل بها خلال الفترة التى تولت فيها الوزارة التى شارك فيها أوروبيون مسئولياتها . فقد أبعد عن الإطلاع على ما يدور من أمور إلى الحد الذى دعاه لأن يشكو من ذلك الى القنصلين العامين لفرنسا وانجلترا اللذين كانا يلاحظانه بطلباتهما ، ويفرضان عليه المسئولية عن كل اضطراب يمكن أن يحدث فى الإدارة وفى البلاد . وكان هذا التدخل المفرط مثيرا له . وها هم يطالبونه بأن يخضع له من جديد . وقد ذكرت له اللجنة عند تقديم تقريرها "أن هذا الحل لم يكن من الممكن أن يأتى إلا من وزارة كان للعنصر الأوروبى نصيب مشروع من النفوذ فى سير أعمالها" . وكان صبره على هذا النفوذ قد نفذ . وكان يريد أن يمسك بأيديه زمام سلطاته القديمة ، أو على الأقل ما يكفى منها لاشعاره بأنه لا يزال ملكا على مصر . كان إسماعيل يعلم بما إحتواه تقرير لجنة التحقيق ، وان يكن بشكل تقريبي ، حتى من قبل أن يقدم اليه . أما مشروع القانون الذى أرفق به فقد كان الخديوى على علم به منذ فترة من الزمن ، فاكتمت لذلك بمجرد إعادة قراءة ما جاء فيه .

وفى الأيام الأولى من شهر أبريل قدم شريف باشا الى الخديوى "خطة مالية اقترحها وناقشها الأعيان والشخصيات المرموقة والموظفون الدينيون والمدنيون والعسكريون فى مصر" . وهناك ما يدعو للإعتقاد بأنه كان للخديوى دور كبير فى اعداد هذه "الخطة المالية" ، لا سيما إذا اطلعنا على تصريحه فى الخامس من أبريل ، ردا على مشروع المستر ويلسون وعلى خطة الأعيان والشخصيات العامة . فقد بدأ

هذا التصريح قائلا: "أن مصر ليست فى حالة إعسار"^(١) . وقد تضمن الخطاب الذى رفعت به الخطة المالية إلى الخديوى شكوى مجلس شورى النواب الشديدة من الوزارة الأوروبية . "لقد أنتهك بعض الوزراء حقوق المجلس واعتبروا قراراته حبرا على ورق ... إن مجلس النظار يقدم مشروعا يريد به اشهار افلاس الحكومة والغاء قانون المقابلة . وكل هذه التصرفات تضر بمصالحنا وتتعارض مع حقوقنا ، ولن نقبل أبدا أن توضع موضع التنفيذ"^(٢) . وكان اسماعيل يؤيد تأييدا حارا قضية هؤلاء النواب ، لأنها كانت فى الواقع قضيته هو . وها هو ، بعد أن كان فى سنتي ١٨٧٧ و ١٨٧٨ يشكو من أعباء خدمة الدين ويطالب بتخفيضها ، يرى أن حالة البلاد ومواردها تسمح بالإبقاء على عقودها على ما هى عليه وبتنفيذ الأحكام القضائية .

ويقول اللورد كرومر أنه كان من المستحيل تنفيذ هذه الخطة . فقد قدرت الإيرادات لسنة ١٨٧٩ بمبلغ ٨٥٧ ٠٠٠ جنيه انجليزى بزيادة قدرها ٨٠٠ ٠٠٠ جنيه عما قدرها به المفوضون بالتحقيق الذين كانوا يرون أنها تبلغ ٩ ٠٦٧ ٠٠٠ جنيه فقط . وكان هذا التقدير الأخير نفسه متفانلا أكثر من اللازم^(٣) .

على أية حال فإن إسماعيل لم يتردد فى تأييد حركة الأعيان . فكلف شريف باشا فى ٧ أبريل بتشكيل وزارة وطنية ، وأصدر فى الثانى والعشرين من الشهر نفسه مرسوما بشأن تسوية ديون الحكومة . وتبدأ ديباجة هذا المرسوم بعبارة "بالنظر الى اللتماسات والى المشروع الذى قدمته لنا الأمة" . وأبقى المرسوم على نظام المقابلة ، وخصص العائد منه ، على نحو ما نص عليه مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ ، لخدمة وإهلاك القروض قصيرة الأجل المبرمة فى السنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ . ولم يمس الدين الممتاز بل ظل كما هو . وخفض سعر الفائدة على الدين الموحد بنسبة ١٪ . وعلى حد تعبير اللورد كرومر : "أليس فى ذلك اشهارا للإفلاس !" . أما بالنسبة إلى الديون غير المجمعة "فإن المبالغ المستحقة لموظفى الدولة ومعاشات المتقاعدين ستدفع نقدا وبالكامل" . وسيحصل باقى الدائنين

(١) أنظر الوثائق الرسمية الفرنسية ، شئون مصر ، ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ، ص ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق

(٣) كرومر ، المرجع سالف الذكر ، ص ٩٧

على ٥٥٪ من مستحقّاتهم من رصيد قرض روتشيلد ، ويحصلون على الباقي بموجب سندات لحاملها ذات فائدة بنسبة ٥ ٪ .

ولا توجد في الحقيقة اختلافات جوهرية بين نصوص هذا المرسوم ونصوص مشروع القانون الذى قدمه المستر ويلسون والذى أيدّه المفوضون بالتحقيق . وقد لاحظ ذلك المسيو وادينجتون ، وزير خارجية فرنسا . لكن موقف اسماعيل تجاه الوزيرين الأوروبيين كان هو الدافع القوى له لإظهار عدائه لما انتهت إليه لجنة التحقيق من نتائج . وكان لهذا الموقف مبرراته لدى الخديوى . فقد أمضى شطرا كبيرا من حكمه فى السعى للحصول من السلطان على حقوق كلفته ثمنا باهظا، وها هو يرى أن أحلامه فى الإستقلال ،والتي كانت تراوده منذ إعتلائه العرش، تتبدد وأن حقوقه تنتقل من أيدي تركيا الى أيدي أوروبا دون أن يفيد هو نفسه منها . وكانت مصلحته الشخصية تتفق مع مصلحة الحزب الوطنى الذى كان يتشكل حينئذ فى مصر وقد عبرت الرسالة التى حررها شريف باشا بصفته رئيسا لمجلس النظار فى ٧ مايو سنة ١٨٧٩ عن جميع المظالم التى كان يشعر بها هذا الحزب تجاه التدخل الأوروبى . فقد أشارت هذه الرسالة الى "أن المستر ويلسون ، الذى دعاه مجلس شورى النواب للحضور أمامه لعرض مشروعاته رفض الاستجابة لهذه الدعوة ، بينما قام زميله وزير الأشغال العمومية ، الذى كان قد قدم الى المجلس النظم التى أعدها ، بوضع هذه النظم موضع التطبيق ، دون أن يأخذ فى الاعتبار على أى نحو الملاحظات التى أبدّاها النواب .

"فسواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الإدارية فإنه لم تطبق أى من أوجه الإصلاح التى كانت لازمة للبلاد" .

وقد رخص لناظر المالية فى استقدام ٤٢ مهندسا من أوروبا بينما توجد داخل البلاد جميع العناصر اللازمة للقيام بمثل هذه المهمة على أحسن وجه (إنشاء المساحة التفصيلية)^(١) .

ولم يكن لهذه الاعتبارات أية قيمة فى نظر أوروبا . ففي ١٨ مايو احتج القنصلان العامان لألمانيا والنمسا على التسوية المالية التى تضمنها مرسوم ٢٢

(١) أنظر الوثائق الرسمية الفرنسية ،شئون مصر ، ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ، ص ٣٠٣ و ٣٠٤

أبريل . "وأعلننا فى هذا الاحتجاج أن هذا المرسوم مخالف للترتيبات الدولية ، وألقيا بالمسؤولية عن ذلك على نائب الملك"^(١) . وفى الثامن من يونيو هذا مجلسا الوزراء الفرنسى والبريطانى حذو نظيريهما فى برلين وفيينا واعترضا بدورهما ورفضوا الإعراف بأية قيمة لنصوص مرسوم ٢٢ أبريل" . وأمام هذا الاعتراض من جانب القوى الأربع رأى إسماعيل ، بالتشاور مع مجلس نظاره ، أن يعرض هو هذا المرسوم على القوى لأقراره من جانبها ، ولكن هذه الخطوة لم تؤد إلى أية نتيجة.

كانت أوروبا قد سئمت الخديوى فعلا . وكانت المحادثات قد بدأت بين مجالس الوزراء المختلفة لحمله على التنازل عن العرش ، ولكن الخديوى لم يتفهم الأمر على هذا النحو ، وكان يريد الرجوع بشأنه الى السلطان . ولم تكن تهديدات الحكومتين الفرنسية والانجليزية لتخيفه . على أن الباب العالى ، وبدون انتظار نتيجة التفاوض على ذلك بين القوى ، خلع اسماعيل بموجب برقية بتاريخ ٢٦ يونيو وولى ابنه توفيق باشا مكانه. وغادر إسماعيل مصر بعد ذلك بأربعة أيام ولم يعد إليها أبدا . وقيل أنه كان يبكى عندما شاهد شواطئ بلاده تتلاشى أمام ناظريه عند الأفق . "وهكذا انتهى أمر أمير كان من الممكن أن يكون مصيره أفضل من ذلك . فعلى الرغم من عيوبه الكبيرة فقد كانت له صفات جديرة بكل تقدير . ولئن كان داهية مغرورا وقليل الحذر مما يخفيه الغد ، ولئن كان مسرفا ومحببا للمظاهر ، فإنه كان مع ذلك يتمتع بالنفوذ والذكاء فيما يقوم به من أعمال"^(٢) . وعندما وصل إلى نابولى وجه إلى السلطان الرسالة التالية :

"إننى لا أجهل العطايا والمساعدات التى أغنتها علىّ جلالة السلطان . وقد استعنت بقوته من أجل حمايتى من الضغط الأجنبى الذى تعرضت له بعد أن قضيت ستة عشر عاما مليئة وغنية ؛ فخلال فترة ادارتى للبلاد تمت تغطية مصر بشبكة من السكك الحديدية ، وحدث توسع كبير فى شق الترع التى تزيد من خصوبة تربتها ، وأنشئ ميناءان كبيران فى السويس والإسكندرية ، وتم القضاء على مصادر الرقيق فى أفريقيا الوسطى حيث رفرع علم الإمبراطورية على نواح كان لا يزال غير

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٨

(٢) المرجع سالف الذكر ، ص ١٧٨

معروف فيها ، وشهدت مصر الإنتهاء من حفر القناة التي تربط بين البحرين وتسلمتها بالفعل . واستهلكت أخيرا ، وبعد مقاومة طويلة ، الإصلاح القضائي الذي من شأنه أن يضع حدا لبطء التقاضي الناجم عن تعدد جهات الولاية القضائية الأجنبية وأن يفرض السرعة في التقاضي على النحو الذي يسمح بتهينة الوسائل الكفيلة بنشر العدل على نحو منسق وهو ما يفتضيه اتصال حضارات الشرق بالحضارات الأجنبية^(١) .

ليس بوسع أحد أن يشيد باسماعيل بأكثر من ذلك . وكل الذي ذكره صحيح لولا أن هذه الإصلاحات الطيبة نمت كلها بتكلفة باهظة أدت به الى الخراب ثم الى خلعه عن العرش . وقد أنصفه المسيو كيف اذ نسب اليه كل هذه الإصلاحات ولكنه قدم في الوقت نفسه كشفا لحسابات الدولة عن الأعوام من ١٨٦٤ الى ١٨٧٥ بجانيها الدائن والمدين ، والذي يتبين منه الاسراف غير المعقول للحكومة المصرية .

وندرج فيما يلي بيان هذه الحسابات :

المصروفات(جنيه انجليزي)		الايرادات(جنيه انجليزي)	
٤٨ ٨٦٨ ٤٩١	نفقات الإدارة	٩٤ ٢٨١ ٤٠١	الايرادات العامة
٧ ٥٩٢ ٨٧٢	جزبة الباب العالي	٣١ ٧١٣ ٩٨٧	الفروض (المبالغ المحصلة فعلا)
٣٨ ٢٤٠ ٠٥٨	الأشغال العامة	٣ ٩٧٦ ٥٨٣	ناتج بيع أسهم قناة السويس
١٠ ٥٣٩ ٥٤٥	مصروفات استثنائية	١٠ ٢٤٣ ٠٧٦	الديون السائرة
١٦ ٠٧٥ ١١٩	قناة السويس		
٣٤ ٨٩٨ ٩٦٢	خدمة الدين		
١٤٨ ٢١٥ ٠٤٧	المجموع	١١٨ ٢١٥ ٠٤٧	المجموع

(١) أنظر كوشريس . المرجع سالف الذكر

وأنا أشك من جانبى فى دقة هذه الأرقام وبالذات ما يخص منها القروض .
ووفقا لتقرير كيف نفسه فان المبلغ المتحصل فعلا من القروض يزيد على أربعين
مليوناً بعد خصم قيمة القرض الخاص بالخدوى والذي أبرم فى سنة ١٨٧٠ . وإذا ما
خصمنا ، بالإضافة الى ذلك ، وان لم يكن لذلك مبرر جدى ، قروض عامى ١٨٦٥ و
١٨٦٧ يبقى لدينا خمسة وثلاثين مليوناً نقداً حصلت فى عهد إسماعيل . ولذا يتعين أن
نضيف إلى الإيرادات المذكورة أكثر من ثلاثة ملايين .

أما قائمة المصروفات فهي تتحدث عن نفسها . ان بلدا لا يملك إيرادات تزيد
فى المتوسط عن ستة ملايين ، ثم ينفق أربعة منها على الأشغال العامة والنفقات
الاستثنائية ، يعتبر فيما يبدو لى بلدا مسرفا حقا .

لقد كانت السنوات الأخيرة من عهد إسماعيل أكثر إشراقا ولا سيما إذا أخذنا
فى الاعتبار المعارضة الشديدة التي كانت تبديها أوروبا ضده . لو أن القوى
اقتصرت على إعطائه النصيحة وإعارته الرجال الذين يعملون فى مصر لصالح
مصر أولا وقبل كل شيء لكانت قد قامت بعمل مجيد فعلا . ولكن الأمر لم يكن -
مع الأسف - كذلك ، بل ويحملها تدخلها المفرط فى شئون مصر من المسؤولية عن
الوضع الحرج الذى آلت إليه الأمور ما لا يقل ، ان لم يزد ، عما يتحمله إسماعيل
منها .

الفصل الخامس

توفيق

قانون التصفية

بعد إختفاء اسماعيل من المسرح أصبح أمر مصر كاملا بأيدي أوروبا . وكان خليفة إسماعيل ، توفيق باشا ، رجلا لا يعترض على شيء ، ويترك الأمور تسير في سبيلها ، وكان في أشد الأوقات حرجا يقف في صفوف المتفرجين بدلا من أن يكون مع الممثلين على خشبة المسرح (١) .

ويتحدث عنه اللورد كرومر بشيء من التعاطف فيقول إنه كان شخصا عاديا قليل التعليم ذا فضائل سلبية في معظمها (٢) : "مع اعتلاء توفيق العرش تولى الأمر أمير شريف حسن النية ذو أخلاق طيبة ، مقتصد ولكنه ضعيف لا هيبه له ، محدود الذكاء ، تتناقضه المؤثرات المتعارضة وعاجز عن السيطرة على المواقف الصعبة. لذلك كان محتما على مصر مقدما أن تتعرض للاضطرابات وللتنازع وأخيرا للخلافات والمغامرات (٣) . "وكان توفيق بلطفه وخجله وتخوفه وعجزه عن المبادرة والحركة النشطة، يبدو وكأنه خلق للدور الذي كانت انجلترا (بعد أوروبا) تريد تكليفه بالقيام به" (٤) . "هكذا كان الأمير الذي أدت سخرية القدر إلى أن يخلف إسماعيل العظيم" (٥) .

اعتلى توفيق عرش مصر في الوقت الذي كانت تحتاج فيه إلى رجل يجمع إلى النشاط نفاذ البصيرة ، يستطيع السيطرة على مثل هذا الموقف الصعب الذي كان يواجهه ، ويوحى شخصه وتوحى أفعاله بالثقة ، وله من القوة ما يسمح بأن يبرهن لأوروبا على أن مصر قادرة على أن تتخلص من سيطرتها . ومع الأسف ، لم يكن

(١) أنظر سيمر أوكلاند كولفس ، The Making of Modern Egypt

(٢) كرومر ، المرجع السابق ، ص ١١٩

(٣) دى فريسييه ، المرجع السابق ، ص ١٧٩

(٤) كوشان ، المرجع السابق ، ص ٨٥

(٥) دابسي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٩

لدى توفيق أى من هذه الصفات . فقد وجد التدخل الأوروبى ، الذى كافحه اسماعيل بكل قوته ، أ صا خصبة فى عهد توفيق يستطيع أن يصول فيها ويجول ليصل بشكل أو بآخر إلى التهام البلاد .

"وكانت أول أيام حكم توفيق هادئة ، على نحو ما يحدث كثيرا فى أعقاب الإضطرابات الشديدة . ولكن الأفق كان يزداد إظلاما فى نظر المراقب اليقظ . ذلك أن خضوع الخديوى الجديد بالكامل لرغبات القوى الأجنبية ، وتدخلها السافر فى حكم مصر ، وجهودها المستمرة لصالح الدائنين الأجانب ، والشعور بالثأر الذى كان يراد أنصار إسماعيل ، وفوق هذا كله الافتقار إلى التوجيه السليم فى الداخل ، كانت كلها بذورا لتعقيدات مقبلة" (١) .

فقد أراد السلطان من وراء خلع إسماعيل أن يسترد الامتيازات التى كان الخديوى المخلوع قد اشتراها بتكلفة باهظة لنفسه ولمصر . يقول الأستاذ رينو "إنها كانت فرصة للسلطان لم يكن يحلم بها لى يعيد رسميا تأكيد حقوقه فى السيادة على مصر والرجوع عن تنازلات قتمها بغير روية (بل عن طريق الرشوة) فأسرع بانتهازها" (٢) . ولكن هيهات ، فقد تصدت له القوى ، وفرنسا بوجه خاص . كان السلطان يريد العودة إلى فرمان محمد على لكن فرنسا كانت مصرة على الإبقاء على فرمان سنة ١٨٧٣ . وكانت ترى "عدم المساس بالأوضاع أو بالمؤسسات ، طالما أن الشخص ، وهو وحده المذنب ، قد نزل به العقاب" (٣) . وكتب مسيو وادينجتون ، وزير الخارجية فى ذلك الوقت ، يقول : "كان فرمان سنة ١٨٧٣ قد أبلغ إلينا رسميا عند صدوره ، وأحطنا به ، ومنذ هذا التاريخ اعتبر أنه ذو قيمة دولية" . وذكر فى موضع آخر : "إن الباب العالى لا يستطيع ، من خلال قرار لم يتم التشاور معنا بشأنه ، وضع اليد على مصر فى ظروفها الحالية ، دون أن يكون فى ذلك تجاوز لحقوقه" ، ويقول أيضا "أن فرمان سنة ١٨٧٣ كان يقنن ميثاقا بشأن مصر بسبب الضمانات التى نص عليها فيه ، وقد استطاع الخديوى بموجبه أن يستعين بالائتمان

(١) دى هريسنيه ، المرجع السابق ، ص ١٨٤

(٢) رينو . مصر والفرمانات L'Egypte et les firmans

(٣) جورجيه ، فرنسا وإنجلترا فى مصر La France et l'Angleterre en Egypte

الأوروبي من خلال قروض عديدة وأن يبرم مع القوى نرثيات تتعلق بالاصلاح القضائي وبمختلف أنواع المصالح الاقتصادية". وبدأت انحلترا أقل تشددا بكثير مكنفية بالمطالبة بالإبقاء على النظام الوراثي في أسرة محمد على . واماكن بعد مفاوضات مطولة مع الباب العالي الإبقاء على جانب كبير من نصوص فرمان سنة ١٨٧٣ . وينص فرمان الجديد ، فيما يتعلق بسلطة الخديوى على عقد القروض . على أن "يكون للخديوى حربة التصرف كاملة فى الشئون المالية للبلاد ، ولكنه لا يكون له حق التعاقد على قروض إلا إذا كانت لازمة فقط لتسوية الأوضاع المالية القائمة ، وذلك بالاتفاق التام مع دانتبه الحاليين أو ممثليهم المكلفين برعاية مصالحهم" .

ونتيجة لهذا النص فى فرمان ، ولضعف توفيق ضعفا بضرب به المثل ، دخل ممثلو الداننين أو بالأحرى القوى الأوروبية وفى مقدمتهم فرنسا وإنجلترا إلى المسرح وحجبا تماما شخصية الحكومة المصرية التى ستكتفى بأن تلعب دور الناطق باسمهم عندما يطلبون إليها ذلك.

ومنذ الأيام الأخيرة من عهد إسماعيل وجد المتعاقدون على قرض الدومين أنفسهم أمام صعوبات أثارت كثيرا من الغموض حولهم . فبعد قليل من صدور المرسوم الخاص بتنازل الأسرة الخديوية عن أملاكها لصالح الداننين فى هذا القرض ، أوقع دانون آخرون كانوا قد استصدروا أحكاما قضائية ضد الدولة ، حجوزات على هذه الأملاك وارتهنوها لصالحهم . رغم صدور حكم من محكمة أول درجة بعدم تقديم هذه الرهون الأخيرة على الرهون التى تم من أجلها التنازل عن هذه الأملاك ، فإن محكمة الاستئناف قضت بصحة هذه الرهون وبسلامة قيدها . ونتيجة لهذا الحكم و "للتغييرات السياسية التى حدثت فى القاهرة وأدت إلى إبعاد الوزيرين الأوروبيين" ، وبفضل المساعدة غير الرسمية التى قدمتها الحكومتان الفرنسية والبريطانية ، صدر فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ مرسوم ينص على عدم جواز الحجز على الأملاك التى تنازلت عنها الأسرة الخديوية للدولة وذلك إلى حين اهلاك قرض الدومين تماما. وبعد شطب الرهون القضائية السابقة على الرهون المقيدة بتاريخ ٢ و ٣ فبراير ، وهو تاريخ قيد رهن روتشيلد ، تصبح أملاك الدومين خالصة من كل حق عيني ومن كل دعوى بطلان أو استرداد لتظل مخصصة لخدمة القرض الذى تم التنازل عنها من أجله . وللمادة الثالثة من هذا المرسوم طابع خاص إذ تعترف الحكومة المصرية فيها

بعدم جدارتها بأية ثقة اذ تنص على أنه اذا وقع الرصيد المتبقى من قرض الدومين تحت أيديها فقد يتعرض للتبديد بدلا من أن يستخدم لسداد القرض . لذا نص المرسوم ، لمزيد من الضمان ، على ايداع هذا الرصيد كوديعة لدى صندوق الدين العام الذى سيتصرف فيه فيما بعد وفقا للتعليمات التى تصدرها له لجنة التصفية التى تشكل بموجب اتفاق دولى ، فان لم توجد ، فوفقا للتعليمات التى تصدرها (الخدوي) له بمساعدة القوى" ، أو بالأحرى وفقا لأوامرها .

ولم يكن هذا المرسوم كافيا لارضاء مؤسسة روتشيلد . فقد كان غامضا ليس فقط فى نظر الدائنين الذين كان بوسعهم الحجز على الأملاك ، بل كذلك فى نظر الحكومة التى كانت تستطيع معاملة أملاك الدومين من الناحية الضريبية معاملة استثنائية . لذا صدر مرسوم آخر يحظر أية معاملة من هذا النوع ويوضح أنه لا يجوز أن تفرض على المديريات التى توجد بها أملاك الدومين أية أعباء استثنائية . وأخيرا أبرم فى ١٤ أبريل سنة ١٨٨٠ اتفاق تكميلى لاتفاق ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٨ . ويوضح هذا الاتفاق ما جاء فى الاتفاق الأول فيما يتعلق باهلاك القرض ويقدم ضمانات جديدة للمؤسسة المتعاقدة .

وتنص المادة الرابعة التى تتناول إهلاك القرض على ما يلى : "يتكون القسط السنوى المخصص كل عام لاهلاك القرض مما يلى :

(أ) مبلغ ثابت قدره ٤٢ ٥٠٠ جنيه إنجليزى يخصم من إيرادات أملاك الدومين ، قبل سداد الضرائب المفروضة عليها ، فى المديريات التى لم تخصص إيراداتها للسداد . واذا لم تكف هذه الإيرادات لسداد هذا المبلغ تدفع الحكومة الفرق . على أن هذا الضمان لا يسرى الا ابتداء من سنة ١٨٨٢ .

(ب) قيمة الكربونات الخاصة بالسندات السابق اهلاكها بخلاف تلك الناتجة عن بيع أملاك الدومين (وستشرح السبب فى ذلك فيما بعد) .

(ج) الفائض الذى يظل حرا من ناتج إيرادات الدومين بعد سداد جميع الضرائب . ويعتبر الاهلاك الذى يتم من خلال هذا الفائض الأخير (ج) اهلاكا مسبقا . وبناء عليه ، فإذا لم تكف الإيرادات الصافية ، فى بعض السنوات ، لاستكمال القسط السنوى البالغ ٤٢ ٥٠٠ جنيه إنجليزى ، يوقف الإهلاك العادى جزئيا فى حدود مبلغ

يساوى الإهلاك المسبق الذى تم فعلا ، وبعد تغطية هذه الإهلاكات المسبقة يستأنف الإهلاك العادى الذى تضمنه الحكومة .

ويجب أن تخصص جميع المبالغ الناتجة عن التنازل عن أملاك الدومين لاهلاك الدين وفقا للبند الخامس من عقد ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٨ . يعتبر هذا الإهلاك الخاص بمثابة تخفيض فى مقدار القرض . وفى هذه الحالة يخفض القسط نصف السنوى الثابت الذى يخصم من إيرادات الدومين لخدمة القرض بمبلغ مساو لقيمة الكوبونات الخاصة بالسندات التى تم اهلاكها بواسطة ناتج بيع أملاك الدومين . كما يخفض كذلك القسط السنوى المخصص للاهلاك العادى (٥٠٠ ٤٢ جنيه انجليزي) بمبلغ يعادل ٠٪ من القيمة الاسمية لرأسمال السندات التى تم اهلاكها على هذا النحو .

وتنص المادة ٦ على أنه فى حالة تخلف الحكومة عن تنفيذ البند الوارد فى عقد ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٨ ، والذى ينص على أنه فى حالة عدم كفاية إيرادات الدومين لخدمة الدين ، تتحمل الخزانة العامة الفرق ، وفى هذه الحالة تسدد الضرائب المفروضة فى مديرية قنا ، فى حدود المبلغ الذى يستحق بموجب الكوبون التالى ، إلى صندوق الدين العام ليكون بمثابة ضمان لسداد هذا الكوبون . وينتج عن ذلك أن ضرائب هذه المديرية تصبح ، من باب أولى ، مخصصة لخدمة القرض .

وقد يكون اتفاق ١٤ أبريل سنة ١٨٨٠ هذا هو الشق الأخير ، حتى هذا التاريخ ، من كيان قرض الدومين ، الذى رضيت به الأطراف المتعاقدة وقبلت نهائيا دفع الرصيد المتبقى من القرض . وسيبقى قانون التصفية على هذا الكيان دون أن يدخل أى تعديل عليه .

فلنعد الآن قليلا إلى الوراء . فعنما شكلت فى عهد اسماعيل الوزارة الأوروبية أوقف العمل بالمراقبة العامة التى أنشئت فى سنة ١٨٧٦ شريطة أن يعاد العمل بها تلقائيا اذا أعفى أحد الوزيرين الأوروبيين من منصبه دون موافقة حكومته . وعند اغفاء الوزيرين بالمخالفة لرغبة حكومتيهما ، طلب شريف باشا ، رئيس الوزارة التى حلت محلها ، إلى الحكومتين الفرنسية والانجليزية ، عن طريق قنصليهما فى مصر ، تعيين مراقبين جديدين . ولم تجب الحكومتان على هذا الطلب وظل منصب المراقبين شاغرا إلى أن أصدر الخديوى توفيق مرسوما فى ٤ سبتمبر ١٨٧٩ ، بالاتفاق مع

القوتين ، أعيدت بمقتضاه الرقابة "بالشروط نفسها المنصوص عليها في مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦" . وعين المستر بيرنج والمسيو دي بلينبير في هذين المنصبين .
وقد باشرا عملهما بحماس وكانا يريدان القيام بدور لا يقل أهمية عن دور الوزراء اعتقاداً منهما بأنهما يخلفان الوزيرين الأوروبيين المخلوعين في كل شيء . ويتحدث اللورد كرومر (أى المستر أي. بيرنج) حديثاً مؤثراً في كتابه "مصر الحديثة Modern Egypt" عن العمل الذى قام هو وزميله به خلال فترة قصيرة من الزمن^(١) . على أنه ، فى ظل الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، ولا سيما الحالة النفسية للشعب تجاه التدخل الأوروبى ، كان من الضروري إدخال تعديلات على نصوص مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ فيما يتعلق بصلاحيات المراقبين العامين . لذا صدر ، بعد الاتفاق مع فرنسا وإنجلترا ، مرسوم فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ ضيق من مجال عمل "لمراقبين ولكنه منحهما فى الشئون المالية "سلطة التحقيق على أوسع نطاق بالنسبة لجميع المصالح العامة" . فهما لن يشتركا ، فى الوقت الحاضر ، فى إدارة المصالح الادارية وسيكتفيان بتسجيل الملاحظات التى تتوصل اليها التحقيقات التى يجرونها مع ابلاغها لما إلى الخديوى أو إلى النظار . وسيكون لهما صفة ومرتبة يحضران بموجبه اجتماعات مجلس النظار ويكون لهما فيه صوت استشارى . وهما يمثلان الحكومة لدى لجنة الدين العام . ولا يجوز اعفاءهما من منصبيهما الا بعد موافقة حكومتيهما .

بذلك ظل المراقبان بموجب هذا المرسوم يسيطران على الأمور من وراء ستار ، دون أن يكون وجودهما ظاهراً الا فى أضيق الحدود^(٢) . ولم يؤد هذا الوضع إلى عرقلة الأمور على أى نحو . وبذلك ، وتحسباً لأى مرسوم أو قانون يصدر ، قاما فى نوفمبر سنة ١٨٧٩ بإسماع صوتيهما لصندوق الدين وقاما بسداد قيمة سندات الدين الموحد بسعر فائدة ٤٪ . وقد أدى عملهما ، بمساعدة من النظار المصريين ، إلى صدور قوانين منصفة فى مجال الضرائب وهى قوانين ألغيت الضرائب الجائرة التى كانت تريد بمقدار ١٥٠ ٠٠٠ جنيه انجليزى الرسوم المفروضة على الأراضي

(١) كرومر ، المرجع السابق ، الفصل العاشر ، ص ١٢٩ وما بعدها

(٢) كرومر ، المرجع السابق ، ص ١٣٠

العشورية التي لم تكن تدفع من قبل غير رسم ضئيل ، كما ألغت ضريبة المقابلة و غير ها .

وفى أواخر سنة ١٨٧٩ قدم المراقبان تقريراً إلى الخديوى لتسوية الأوضاع المالية دعيا فيه الحكومة المصرية إلى تسديد ديونها . وكان من رأيهما أن من غير الملائم اللجوء إلى تصفيات جزئية وترقب ظهور دائنين جدد . وكانت المفاوضات الجارية بين القوى لتشكيل لجنة للتصفية قد توقفت مؤقتاً ، وكانا يعتقدان أن الطريقة الوحيدة للضغط على القوى لحملها على تسوية وضع بالغ الحرج ولا يحتمل التأخير تتمثل فى أن تقدم لها الحكومة المصرية مشروعا للتصفية . ولم تكن تلك هى نفس نظرة الحكومة الفرنسية للأمور ، فكتب مسيو دى فريسينيه ، وزير الخارجية حينذاك ، إلى قنصل فرنسا فى القاهرة حتى لا يتعجل المراقبان فى تقديم مشروعاتهما . ذلك أنه كان يرى أن مثل هذا الأسلوب سيثير مناقشات من جانب جميع القوى مما يؤخر الوصول إلى حل نهائى . وكان يفضل استئناف المفاوضات لتشكيل لجنة للتصفية ، فكتب فى ٦ يناير سنة ١٨٨٠ إلى لورد ليونز ، سفير إنجلترا فى باريس ، قائلاً : "ليس من الأفضل بذل جهد أخير لمحاولة تنفيذ الخطة الأولية التى كانت تهدف إلى انشاء لجنة خاصة للتصفية ؟ ، فالنمسا ، التى كانت قد أثارت من قبل أكبر الصعوبات ، تبدو اليوم مستعدة لتقديم التنازلات وتطلب إلينا استئناف المحادثات للوصول إلى اتفاق معنا . وحتى لو افترضنا أنه لابد من التخلي عن فكرة تشكيل مثل هذه اللجنة ، ألا يكون من الطبيعى أن ننتظر أن نتقدم الحكومة المصرية إلى القوى بمشروع للتصفية يبين جميع التفاصيل ويحدد النتائج ، بدلا من اللجوء إلى محادثات جزئية ومتتابعة حول العمليات المختلفة التى تتطلبها التصفية العامة" ^(١) . وقد توصلت المحادثات ، التى امتدت لفترة طويلة ولاسيما من جانب إيطاليا ، إلى تصريح التزمت فيه حكومات ألمانيا ، والنمسا - المجر ، وفرنسا ، وبريطانيا العظمى ، وإيطاليا ، "بقبول قرارات لجنة التصفية والالتزام بها واعتبارها غير قابلة للطعن" . كما وافقت كذلك على أن "تتعترف محاكم الاصلاح بهذه القرارات باعتبارها قانونا ملزما" .

^(١) الوثائق الرسمية الرسمية ، سنتون مصر ، ١٨٨٠ ، ص ٦

وفضلا عن ذلك فقد التزموا "بالقيام معا بإبلاغ هذا التصريح إلى القوى التى شاركت فى انشاء المحاكم المختلطة وبدعوتها للانضمام اليه". وتحقق بهذا التصريح ما كانت تريده لجنة التحقيق . ولم تثر القوى الأخرى أية صعوبات للانضمام إلى هذا التصريح باستثناء اليونان وروسيا اللتان انتهتا أيضا إلى قبوله . وفى نفس اليوم صدر مرسوم أقر فى ديباجته أن مصر فى حالة اعسار وشكلت بمقتضاه لجنة التصفية التى تقوم ، انطلاقا مما انتهت اليه لجنة التحقيق ، ودون تعديل شروط قرض الدومين ، باعداد مشروع قانون لسداد الديون المجمعة ، كما يحدد الشروط التى تتم وفقا لها تصفية الديون غير المجمعة . وتأخذ اللجنة فى اعتبارها ، فضلا عن ذلك ، "ضرورة الابقاء على حرية تصرف الحكومة المصرية فى المبالغ اللازمة لضمان سير العمل فى المرافق العامة بصورة منتظمة" . ويتعين على المراقبين العاميين أن يقدموا إلى اللجنة البيانات التوضيحية اللازمة لأداء مهمتها . وتتكون اللجنة من سبعة أعضاء اثنان لكل من فرنسا وانجلترا وواحد لكل من الحكومات الثلاث الأخرى .

واستمرت اللجنة التى رأسها السير ريفرز ويلسون فى عملها لمدة ثلاثة أشهر ، وكان بين أيديها مصير البلاد . قلم يكن عليها أن تحدد مقدار الديون وقيمتها فحسب ، بل كذلك احتياجات مصر وما هو ضرورى لها . كان على أعضاء اللجنة إذن أن يتخذوا قرارات تتعلق بمستقبل البلاد كله ! .

وفى ١٧ يوليو قدمت اللجنة إلى الخديوى نتيجة أعمالها فى شكل قانون للتصفية وافق عليه الخديوى فورا . وكان هذا القانون الذى طال انتظاره بمثابة حل نهائى للأوضاع المالية لمصر .

وينقسم قانون التصفية إلى خمسة أبواب تتناول ثلاثة منها الدين العام ، ويتناول أحدها ضريبة المقابلة ، ويتضمن الباب الأخير أحكاما عامة . وينقسم الدين العام بطبيعة الحال إلى ثلاث فئات : الدين المجمع للدولة ، الدين المجمع للدائرة ، والديون غير المجمعة . وكان من أهم أهداف قانون التصفية انتهاء هذه الأخيرة التى تشكل "جرحا دائما للنزيف". وكان الهدف الثانى له متعلقا بالقروض قصيرة الأجل ، قروض السنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ . وسنرى كيف استطاع القانون تسوية هذه

القروض وتجميع الديون السائرة ، وفى الوقت نفسه تسوية مسألة خدمة الديون الأخرى .

ويتناول الباب الأول "الديون المجمعّة" .

(الباب الأول)

الديون المجمعّة

أولا - الدين الممتاز

ظل سعر الفائدة على سندات هذا الدين كما كان أى ٥٪ . وقد أصدرت كمية جديدة من السندات الممتازة قيمتها الاسمية ٥ ٧٤٣ ٠٠٠ جنيه انجليزى من أجل تجميع جانب من الديون السائرة . وبلغ مجموع الدين الممتاز ، بعد استئزال ما تم اهلاكه منه منذ اصداره فى سنة ١٨٧٦ اضافة قيمة السندات الجديدة ، ٢٢ ٦٨٩ ٠٠٠ جنيه انجليزى . وبلغ القسط السنوى اللازم لخدمته ، شاملا القوائد والاهلاك ، ١ ٢٨٧ ٠٠٠ جنيه انجليزى . وضمائنا لخدمة هذا الدين خصصت له الايرادات الصافية لسكك حديد الدولة ، والتلغرافات ، وميناء الاسكندرية . فاذا لم تكف هذه الايرادات لذلك يخصم الفرق ، الذى يحتل المرتبة الأولى فى الأعباء ، من الايرادات المخصصة لخدمة الدين الموحد . ويقصد بعبارة "الايرادات الصافية" كل حصيلة خزينة السكك الحديدية .. الخ ، ولا يخصم منها سوى النفقات العادية اللازمة للصيانة والاستغلال ، وتحمل موارد الخزانة العامة جميع المصروفات الأخرى .

ثانيا - الدين الموحد

تم اصدار سندات جديدة للدين الموحد بلغت قيمتها الاسمية ١ ٩٥٨ ٤٢٠ جنيه انجليزى لاستكمال عملية استبدال القروض قصيرة الأجل . وبلغ مقدار الدين الموحد عند اصدار قانون التصفية ، وبعد اضافة هذا المبلغ ، ما قيمته الاسمية ٣٢٦ ٠٤٠ ٥٨ جنيه انجليزى . وخفضت الفائدة السنوية عليه بصورة نهائية إلى ٤٪ اعتبارا من أول مايو سنة ١٨٨٠ . وقد طرأ تعديل بسيط على الايرادات المخصصة لخدمة هذا الدين بالمقارنة لما كانت عليه فى قانون ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ . وقد خصصت له ايرادات المديرية الأربع التالية : الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط ، وكذلك

إيرادات الجمارك والرسوم على التبغ . وألغى تخصيص الإيرادات الأخرى مثل الرسوم المفروضة في القاهرة والاسكندرية ، والرسوم على الملح .. الخ . وفي حالة عدم كفاية الإيرادات المخصصة لتغطية الفائدة (٤%) ، تتحمل موارد الخزنة العامة الفرق .

ويتم الاهلاك ، وفقا لما نص عليه قانون التصفية ، عن طريق اعادة الشراء بسعر السوق . فسندات الدين الموحد كانت قيمتها قد انخفضت بدرجة كبيرة (٤٣%) إلى حد الاعتقاد بعدم جدوى اجراء الاهلاك عن طريق القرعة . ويخصص للاهلاك :

- (أ) الفوائض في الإيرادات المخصصة لخدمة الدين الممتاز والدين الموحد .
- (ب) الأموال التي تتوافر بين أيدي مفوضي الدين نتيجة سقوط الحق في إقتضاء الفوائد بالتقادم الخمسي ، أو قيمة السندات المستهلكة التي لا يتقدم أصحابها لصرف قيمتها خلال خمسة عشر عاما .
- (ج) كافة الأرصدة المتبقية بعد تسوية الديون غير المجمعة .
- (د) الجزء الذي يدفع إلى صندوق الدين سنويا من فائض الميزانية .

ماهو فائض الميزانية هذا ؟ ، تحدد المادة ١٦ من القانون المصروفات اللازمة للإدارة بمبلغ ٨٨٨ ٨٩٧ ٤ جنيه مصرى أى ٤٧٥ ٠٠٢ ٥ جنيه إسترليني ، فاذا تجاوزت إيرادات المديرية والمصالح التي لم تخصص إيراداتها لسداد الدين هذا المبلغ فتكون تلك الزيادة هي الفائض في الميزانية.

وما هي النسبة التي يمكن أن تدفع من هذا الفائض إلى صندوق الدين ؟ قد يحدث أن يكون هناك فائض في الإيرادات المخصصة لخدمة الديون المجمعة ، فإذا بلغ هذا الفائض ٥٠% من القيمة الإجمالية للدين الموحد (أى ٢٨٣ ٠٠٠ جنيه مصري) فلا يكون هناك محل لإقتضاء أى نسبة من هذا الفائض في الميزانية ، ويظل بذلك حيث هو لتغطية المصروفات الإدارية . أما اذا لم يصل فائض الإيرادات المخصصة إلى الـ ٥٠% المذكورة ، يدفع الفرق اللازم للوصول إلى هذه النسبة إلى صندوق الدين العام من الزيادة في فائض الميزانية" .

ونظرا لأن القروض قصيرة الأجل كانت ستستبدل بسندات للدين الموحد فقد ألغى قانون التصفية مخصصات خدمتها . واستبدلت سندات هذه القروض في حدود

٨٠٪ من قيمتها الإسمية بسندات للدين الموحد بنسبة ٦٠٪ (أى أن من يمتلك ثلاثة سندات قديمة قيمتها ١٠٠ فرنك ، يحصل على أربعة سندات جديدة قيمتها ١٠٠ فرنك كذلك) .

ثالثاً - أصبح صندوق الدين بموجب قانون التصفية مؤسسة دولية ، وظلت مهامه الأساسية كما كانت فى مرسوم ٢ مايو سنة ١٨٧٦ . وأعترف بالمفوضين كممثلين قانونيين للداننين .

(الباب الثاني)

الدائرة السنّية

بقى للدائرة السنّية كيانها الذاتى على النحو الذى حدده عقد سنة ١٨٧٧ . وألغيت الدائرة الخاصة واستبدلت سندات بسندات الدين العام للدائرة السنّية . وأعلن ضم أملاك الدانترتين إلى ملكية الدولة . وتتم إدارتها بواسطة مراقبين عامين - إنجليزى وفرنسى - يعتبران ممثلين قانونيين لحملة سندات الدين العام للدائرة السنّية . ويشكل المراقبان والمدير العام مجلس إدارة الدائرة . ويشكل من هؤلاء الثلاثة وناظر المالية المجلس الأعلى للدائرة . ويبت هذا المجلس فى المسائل ذات الأهمية البالغة . ويرجع السبب فى هذا التدخل من جانب الحكومة فى شئون الدائرة أولاً إلى أن أملاكها أصبحت جزءاً من أملاك الدولة ، وإلى أن الدولة تضمن الدائرة فى حالة عدم كفاية إيراداتها لخدمة دينها .

وتغل سندات الدين العام للدائرة السنّية فائدة قدرها ٥٪ ، منها ٤٪ فائدة ثابتة و ١٪ فائدة تكميلية . وتخصص إيرادات الدائرة لخدمة هذه الفائدة دون غيرها . فإذا لم تكف إيراداتها لهذا الغرض يستقطع الفرق من إحتياطى عام أنشئ بمقتضى القانون ويتكون من فائض الإيرادات الصافية التى تزيد عن ٥٪ الذى يتحقق فى سنوات الإزدهار . فإذا لم يغط هذا الإحتياطى العجز المشار إليه فيمكن اللجوء إلى الموارد العامة للخزانة .

ويتم إهلاك هذا الدين سواء من ناتج التنازل عن أملاك الدائرة أو من الجزء المتبقى فى نهاية العام من صافى الإيرادات بعد سداد الفائدة بنسبة ٥٪ واستكمال

الرصيد الاحتياطي حتى يصل إلى ٣٥٠.٠٠٠ جنيه مصري . ويتم الاهلاك عن طريق اعادة الشراء فى حدود ٨٠٪ من القيمة الاسمية . فاذا تجاوز السعر هذه النسبة يتم الاهلاك عن طريق القرعة وفى حدود ٨٠٪ من هذه القيمة أيضا .

(الباب الثالث)

الديون غير المجمعة

سيكون مصير هذه الديون اما إلى الانقضاء أو إلى التجميع . وهى تشمل :

١ - الديون الناتجة عن الأحكام القضائية .

٢ - جميع الديون الأخرى بخلاف القروض العامة التى اعترفت أو تعترف بها

الحكومة .

ويخصص لتجميع هذه الديون :

١ - رصيد قرض الدومين

٢ - مبلغ ٨٠٠ ٧٤٣ ٥ جنيه انجليزى قيمة السندات الممتازة التى صدرت بمقتضى القانون .

٣ - فائض ميزانية سنة ١٨٧٩ الذى يوجد فى الخزائن الحكومية فى نهاية هذا العام .

٤ - ما لايزال مفرجا عنه من مدفوعات المقابلة فى صندوق الدين العام .

٥ - أملاك الدومين الخاص التى لم تخصص لمصروفات الادارة أو لخدمة الدين .

٦ - الأموال النقدية التى قد تتوفر من عمليات التصفية .

وقد انقضى نهائيا عدد من الديون غير المجمعة وهى تسدد نقدا وبالكامل ، كما تسدد مبالغ الجزية المتأخرة للأستانة ، ومتأخرات مرتبات الموظفين .. الخ . وقد انقضت الديون الأخرى جزئيا اذ سددت ٣٠٪ من قيمتها نقدا ، وجمعت الـ ٧٠٪ المتبقية ضمن سندات الدين الممتاز بحسب قيمتها الاسمية .

(الباب الرابع)

ألغى قانون المقابلة نهائيا . واعتبر ما دفع لحساب المقابلة دينا على الدولة للممولين وخصص له ١٥٠ ٠٠٠ جنيه مصرى سنويا ولمدة خمسين عاما . ويجرى السداد بطريق التعويض ، أى أن ملاك الأراضي الذين يستطيعون اثبات أنهم ، أو أن من كانت لهم الملكية قبلهم ، دفعوا المقابلة فعلا - حيث أن سدادها على أقساط أو بسندات الخزنة اعتبر سدادا صوريا - يكون من حقهم خصم القسط السنوى المستحق لهم قبل الدولة نظير المقابلة من الضرائب المفروضة عليهم .

وإذا كان قانون التصفية قد سوى بذلك جميع الديون ، الا أنه لم يمس قرض الدومين ، وما كان ينبغى له أن يمس ، فظل على ما هو عليه . وبلغت مديونية الدولة وقت صدور قانون التصفية مبلغ ٩٣٠ ٧٤٨ ٩٨ جنيه انجليزي موزعة كالاتى :

الدين الممتاز	٢٢ ٦٨٩ ٨٠٠	جنيه انجليزي
الدين الموحد	٥٨ ٠٤٠ ٣٢٦	" "
قرض الدائرة	٩ ٥١٨ ٨٠٤	" "
قرض الدومين	٨ ٥٠٠ ٠٠٠	" "
المجموع	٩٨ ٧٤٨ ٩٣٠	" "

وبذلك تمت تسوية الدين العام المصرى بموافقة أربعة عشر دولة . وبلغت سعادة الحكومة المصرية بهذه التولية التى جاءت بها التصفية حدا لم يسعها معه ، بعد ثلاثة أيام فقط من صدور القانون ، أى فى العشرين من يوليو ، الا أن تعرب عن امتنانها لذلك ، ولفرنسا وبوجه خاص ، فكتب ناظر الخارجية إلى القنصل الفرنسى قائلا : "يسعدنى أن أرجو سعادتك أن تبلغوا حكومة الجمهورية مشاعر الامتنان من جانب حكومة الخديوى للمساعدة المستتيرة التى قدمتها الوزارة الفرنسية لمصر من أجل الوصول إلى هذه النتيجة ذات الأهمية البالغة للبلاد" . والواقع أن الوزارة الفرنسية كانت قد أجرت جميع المفاوضات اللازمة للوصول إلى هذه التصفية . والحق ان لهذا القانون أهمية كبرى بالنسبة لمصر . فقد خفض بشكل ملحوظ سعر الفائدة على الدين الموحد وخفف بذلك من العبء السنوى الواقع على عاتق مصر بمبلغ ١ ١٦٠ ٨٠٦ جنيه انجليزي . وانتهى أمر الديون السائرة وتمت بموجبه تسوية وضع بالغ الضرر

لجميع . ويبدو لى مع ذلك أنه كان يمكن الوصول إلى ما هو أفضل . فمع مراعاة المبلغ المحصل عن مختلف الديون ، ومع مراعاة القيمة السوقية لسندات الدين الموحد وقت صدور القانون ، فإن سعر الفائدة البالغ ٤٪ يعتبر فى نظرى باهظا .

ويقول المسيو كوشريس فى حديثه عن قانون التصفية : "أنه لم يكن يستهدف فى الواقع سوى حماية مصالح الأجانب أيا كان ما يترتب على ذلك من نتائج بالنسبة لرخاء مصر" ^(١) . وهذا حق ، وأعتقد أن اهتمام المصفين بهذه المصالح كان مبالغا فيه وأنهم كانوا يريدون تجنبهم أية تضحيات يستطيعون تجنبهم إياها ، وأن حصلوا من المدين على أقصى ما يستطيع اعطاءه حتى ولو كان ذلك ضارا به أبلغ الضرر . وينتقد المستر أوكلاند كولفن هذا القانون بوجه عام . فمن المشكوك فيه أن توضع نصوص القانون موضع التطبيق حتى لو تحققت أفضل الظروف الممكنة ، ورغم تخفيض سعر فائدة الدين الموحد تخفيضا كبيرا ، إلا أن المبلغ المحدد لصندوق اهلاك الديون كان شديد الوطأة . ولم يكن هامش المصروفات المسموح به للدولة كافيا . وكان هناك عجز مستمر فى الدائرة والدومين ، الأمر الذى شكل عبئا سنويا ثقيلا على عاتق الدولة . وبدلا من أن تسير الظروف إلى الأفضل ، فإنها لم تكن مواتية . ففى العام الذى صدر فيه القانون ، عام ١٨٨٢ ، بدأت الاضطرابات فى مصر ، واستمرت فى العامين التاليين ، واختلت بالتالى تقديرات الميزانية لختلالا شديدا . فقد انخفضت الإيرادات وزادت فى الوقت نفسه المصروفات زيادة كبيرة . ووصل العجز فى سنوات ثلاث ، من ١٨٨١ إلى ١٨٨٣ ، إلى ٢٦٥٦ ٠٠٠ جنيه مصرى . وقدر العجز لسنة ١٨٨٤ بمبلغ ٢١٥ ٠٠٠ جنيه مصرى . وفى نفس الوقت انخفض الدين الموحد ، بفضل عمليات صندوق الاهلاك ، بمقدار ١٩٦٩ ٠٠٠ جنيه انجليزى ، وكان هناك فى جانب الإيرادات المخصصة فى سنة ١٨٨٤ مبلغ ٤٠٠ ٠٠٠ جنيه مصرى كان لابد أن يستخدم هو الآخر فى اهلاك الدين الموحد . بذلك فرض على مصر ، فى الوقت الذى لم تكن قادرة فيه على مواجهة أعبائها الخاصة ، أن تستدين ، بينما كانت القروض القائمة تستهلك من فائض إيراداتها" ^(٢) . وأبدى اللورد ملنر نفس هذه الملاحظة . "فالقانون لم يترك هامشا ما للظروف الطارئة . وكان من الخطأ أن

^(١) Cocheris . المرجع السابق ، ص ٩٠

^(٢) كولنس ، The making of modern Egypt ، ص ١٠٤

ينتسأ منذ البداية صندوق للاهلاك . لقد كانت النية حسنة لكن مصر لم تكن قد بلغت بعد وضعاً يسمح لها بالبءء فى تخفيض ديونها . ولقد كان من الحكمة فى ذلك الوقت الاقتصار على ايقاف تزايد هذه الديون ، وتخصيص كل ما يتبقى من فائض الايرادات، بعد دفع الفوائد ، لاحتياجات ادارة شئون البلاد ، وهى احتياجات أهملت اهمالاً منكراً فى خضم الهموم العديدة التى شهدتها السنوات الأخيرة والتى كانت تدعو إلى اليأس" (٢) . وينضم المسيو بوليتيس إلى هذا الرأى أيضاً فيقول : "تعرض قانون التصفية - بحق - للانتقاد لأنه اهتم أكثر مما يلزم بمصير الدائنين ، ولم يهتم بقدر كاف بمصير المدين . وأرغمت مصر على أن يكون دخلها فى حدود نفقاتها الضرورية فحسب ، وكانت الميزانية التى وضعت لها من التواضع بما قضى على أهلها فى الافادة من القيمة المضافة لمواردها الأساسية التى تم تخصيصها لسداد الدين ، كما حرمت كلياً من حرية التصرف فى شئونها المالية ، بما وضع مصر فى موقف شديد الحرج لمجرد تلبية احتياجاتها الادارية الملحة" (٣) . والواقع أن قانون التصفية لم يكن الا خطوة جديدة للتدخل الأوروبى فى مصر . ولم يكن بوسع المشرعين بطبيعة الحال الا أن يظهروا بمظهر الحرص الشديد على مصالح الأوروبيين ، لأنهم كانوا - هم أنفسهم - أوروبيين . ومما يؤسف له حقاً أن يصبح الانسان ، كلما تقدم فى مراحل المدنية ، أكثر أنانية وأشد حرصاً على أن يحقق لنفسه، بغير رحمة ، أقصى فائدة من كل ما يقع تحت يده ، سواء كان جماداً أو انساناً أو أمة بأسرها . ومن المرجح أن المفوضين بالتصفية كانوا أمناء فى عملهم ، ولكنهم فى أدائهم لهذا العمل ، أغفلوا إنسانيتهم ، ونكروا أنهم أوروبيين فقط أى ممثلين للجانب الدائن فحسب.

وانصافاً لهذا القانون ، يبدو لى أن من الصحيح القول بأن المفوضين كانوا شديدي التساهل فى قبول طلبات الدائنين . صحيح أن غالبية الكتاب ليسوا من هذا الرأى ، أؤيمرون بهذا الأمر أحياناً دون مجرد الإشارة اليه ، ولكننا اذا رجعنا إلى التقرير المبدئى للجنة التحقيق نجده يقول : "لنا نقدر اذن قيمة الدين الذى يلزم ايجاد رصيد فورى لسداده ، ويشمل جميع الديون المستحقة على الدوائر المختلفة .

(٢) ملر ، المرجع السابق ، ص ٢٧١

(٣) بوليتيس ، مجلة القانون الدولى العام ، سنة ١٩٠٤ ، ص ٦٥١

بـ ٢٧٦ ٠٠٠ جنيه انجليزي" . ما هذا ! لقد أبرم العقد الخاص بقرض الدومين في سنة ١٨٧٨ وكان يقضى بتأجيل هذا المبلغ . وبغية سداد الديون غير المجمعة أنشأ قانون التصفية ، فضلا عن ذلك ، سندات ذات امتياز بمبلغ ٥ ٧٤٣ ٠٠٠ جنيه انجليزي يخصص لها موارد أخرى أيضا ، ويصل بنا ذلك كله إلى مبلغ يتجاوز الخمسة عشر مليونا . فهل من المعقول أن يتراكم من جديد ، خلال عامين فقط ، أكثر من ستة ملايين من الديون السائرة ، في الوقت الذي كانت إدارة شؤون البلاد فيه في أيدي الأوروبيين ؟ .

ان من شأن هذا القدر الكبير من الأعباء التي فرضها الأجانب على البلاد أن تدعو أكثر الأذهان مسالمة إلى الثورة .

والحق أن اضطرابات سنة ١٨٨٢ كانت نتيجة ، لا أقول لقانون التصفية ، ولكن لهذا التدخل المفرط من جانب أوروبا والذي لم يكن هذا القانون الا احدى مراحل الهامة . فالمصريون لم يثوروا فقط لأنهم وضعوا في موضع الخضوع والتبعية ، ولكن لأنهم كانوا يشعرون كذلك بالضياح يوما بعد يوم مما كان يدفعهم رغما عنهم ، وبصرف النظر عن مدى سخطهم على المآسى التي شهدها في الماضي ، إلى مقاومة هذا العنصر الجديد الذي كان يثير بالضرورة قلقهم . وربما كانوا سيشعرون بامتنان أكبر تجاه أوروبا لو أنها اقتصررت على تسوية علاقاتها بمصر دون أن تحدوها روح نفعية ، بل روح مفرطة في نفعتها . لكن هذه الروح النفعية أدت بالمصريين ، كما كان يمكن أن تؤدي بأى شعب آخر ، إلى اغفال الامتنان لأولئك الذين ساهموا في القضاء على أسباب معاناتهم الماضية ، بل وأدت بهم إلى معاداة أوروبا ، لأنهم لم يعد بوسعهم أن يقبلوا ممارسة أوروبا لنفوذها عليهم وتوجيه مصائرهم .

لقد ثاروا ، ولكن من سوء الحظ أن انجلترا دخلت بقواتها المسلحة إلى مصر فأضافت بذلك مزيدا من الأحقاد التي كانت تشعر بها مصر تجاه أوروبا . فحتى في عهد محمد علي ، حين كان المصريون منتصرين وكانت مصر على وشك الحصول على استقلالها ، تدخلت أوروبا لتفرض عليها نير ذلك الذي تفوقت عليه جيوشها . وفي عام ١٨٨٢ ، في الوقت الذي كانت مصر تضع فيه لنفسها دستورا يسمح لها باسماع صوتها والدفاع عن قضاياها ، تدخلت انجلترا لتكتم فيها أية انطلاقة نحو الحرية . ولا تزال مصر المستضعفة ترزح حتى اليوم تحت وطأة انجلترا الشديدة من جهة وتحت العبء الثقيل لدينها العام من جهة أخرى .

الفصل السادس

اتفاقية لندن

كان عام ١٨٨١ عاما طبيعيا من الناحية المالية بالنسبة إلى مصر . وعلى الرغم من الانتفاضتين اللتين وقعتا في الأول من فبراير والتاسع من سبتمبر من هذا العام ، فقد ساد البلاد هدوء نسبي ودخلت الخزينة إيرادات لا بأس بها . وكان قانون التصفية قد وضع حدا لمطالبات الدائنين بالنسبة إلى الديون غير المجمعة ، وكان بوسع الحكومة أن تتصرف بحرية في تنظيم شئونها . ورغم كل ذلك فإن الميزانية الإدارية قد أسفرت عن عجز مقداره ١٦١ ٠٠٠ جنيه مصرى . ومن جهة أخرى كان لدى صندوق الدين فائض يسمح بإنهاء ما قيمته ٥٨ ٠٠٠ جنيه إنجليزى من الدين الممتاز و ٧٥٣ ٠٠٠ جنيه إنجليزى من الدين الموحد .

وقد أدت انتفاضتى الجيش إلى أن تنتشر في البلاد روح المقاومة التى لم تكن معروفة من قبل وإن كانت في طور التكوين منذ الأيام الأخيرة لإسماعيل . فقد واجه الشعب المصرى ، رغم طبيئته المعهودة ، التدخل النفعى لأوروبا ، بسخط كبير . لذلك ثارت مصر ، فوجئت إليها فرنسا وإنجلترا ، فى ٨ يناير ١٨٨٢ ، مذكرتين متطابقتين ، أعربتا فيهما عن تأييدهما لسلطة الخديوى . وأرسلت القوتان أسطولا إلى الإسكندرية لتبرهننا بذلك للمصريين على تصميمهما على اللجوء للقوة إذا أقتضى الأمر . ونشبت إنتفاضة في الإسكندرية في الحادى عشر من يونيو . وبعد شهر من هذا التاريخ كان الأسطول الإنجليزى يقصف المدينة والجنود الإنجليز يدخلون إليها . وشب عقب القصف ، وأثناء دخول الجنود الإنجليز ، حريق إتهم الثائرون بإشعاله ، إلا أن هناك أسبابا تدعو للشك فيما يمكن أن يعزى إليه إشعال هذا الحريق . وقد أشار إلى هذا الشك المستر بلنت ، وهو نفسه إنجليزى ، فى مؤلفه "التاريخ السرى للإحتلال الإنجليزى لمصر" . وفى السابع من أغسطس دفع المراقبان العامان ، المسيو برديف والمستر كولفن ، إلى توجيه مذكرة أوضحا فيها أن الحكومة المصرية ملزمة بتعويض الأضرار التى أحدثها سكان الإسكندرية . وتمسكا ، تأييدا لهذه الفكرة الغريبة ، بنصوص مواد القانون المدنى المصرى ، وأعربا عن أسفهما لأن الدولة في مصر ليس

لها من الحماية مثلما تتمتع به الدول الأخرى في مثل هذه الحالات . واختتمتا مذكرتهما بطلب تشكيل لجنة دولية لتقدير التعويض بدلا من ترك هذه المهمة للمحاكم المختلطة أو الأهلية . وجاء في هذه المذكرة كذلك : " أن الأمر الذي لم يعد هناك جدوى من محاولة إخفائه هو أن مصر ، منذ الآن ، لم تعد قادرة على الوفاء بالتزاماتها " ، وبالتالي كان من المتعين تعديل قانون التصفية . وأرسل مجلس الوزراء الإنجليزي هذه المذكرة إلى المجالس النظرية لدى القوى الأخرى لتتفق فيما بينها على تشكيل هذه اللجنة التي أنيط بها تقدير التعويضات . ولم يسع المسيو دوكلير ، وزير خارجية فرنسا ، إلا أن يلاحظ أن مبدأ التعويض نفسه عن مثل هذه الأضرار مبدأ خاطئ . فقد كتب إلى المستر بلامكيت في ٤ سبتمبر ١٨٨٢ قائلا : " أن مثل هذه الأضرار الناتجة عن قوة قاهرة تعتبر ، وفقا للآراء الفقهية المعترف بها دوليا ، غير منشئة للحق في التعويض لصالح المتضررين ، كما أنها لا تنشئ التزاما قانونيا بذلك على صاحب السيادة الإقليمية " . ومع ذلك فقد وافق على إنشاء لجنة دولية " يسيطر عليها العنصر الإنجليزي - الفرنسي " لتقدير التعويضات ، كما ذكر ذلك المراقبان العامان .

وإزاء اللهجة القاطعة التي صيغت بها مذكرة المراقبين ، اعتقدت الحكومة المصرية أن القوى ستجبرها على تعويض المتضررين ، ورأت لذلك أن من الأكرم لها أن توجه هي الأخرى مذكرة تتضمن مشروعا لتشكيل لجنة للتعويضات ، وأدى ذلك إلى تصحيح الإجراءات التي اتخذتها القوى إلى حد ما ، رغم أنها لم يكن لها الحق في ذلك من بعض الوجوه . ووافقت القوى على معظم النقاط التي وردت في مشروع الحكومة ، وأسفرت المفاوضات عن صدور المرسوم الذي شكلت هذه اللجنة بمقتضاه . وكان الثالث عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٨٢ هو يوم التل الكبير المشنوم ، وفي الخامس عشر منه أحتلت القوات الإنجليزية القاهرة .

وبعد هذين الحادثين أرادت إنجلترا التمتع بحرية كاملة في وادي النيل . وكانت تضيق بالرقابة الثنائية الفرنسية الإنجليزية ولم يكن هذا التقسيم ملائما لها . لذا سلمت إلى الوزارة الفرنسية في ١٤ أكتوبر ١٨٨٢ مذكرة جاء فيها : " أن الأحداث الأخيرة قد أثارت الشكوك حول ملائمة الإبقاء على الرقابة على النحو الذي كانت قد أنشئت به بصفة مؤقتة في ١٥ أكتوبر ١٨٧٩ " .

وكانت فرنسا لا تزال واقعة تحت تأثير الصدمة التي أحدثتها تدخل إنجلترا المفرد ، ولم تكن لتقبل بالتنازل لهذه الأخيرة عن أى شىء . ولذا فعندما تناول المسيو دوكلير هذه المسألة مع السفير الإنجليزي فى باريس خاطبه قائلا : "تقولون أنه ينبغي ، بدلا من الرقابة ، أن يعين الخديوى مستشارا أوروبا واحدا . وأوروبا هذه تعنى إنجليزى . أليس كذلك ؟ لذا فإنا إذا شئنا أن نسمى الأمور بأسمائها الحقيقية ، فإن ما نقترحوه لا يعنى إلغاء الرقابة بل يعنى إلغاء المراقب الفرنسى . ولا أظنكم تعجبون إذا قلت لكم أنه ليس بوسعى أن أقبل ذلك " . وأسرعت إنجلترا بالانتقال من الأقوال إلى الأفعال ، فسحبت المستر كولفن ، المراقب الإنجليزي ، وبالتالى فإن المراقب الفرنسى لم يعد يدعى إلى اجتماعات مجلس النظار . وعندما طلب قنصل فرنسا فى القاهرة ، المسيو ريندر ، تفسيراً لذلك رد عليه شريف باشا ، رئيس مجلس النظار قائلا أن "الحكومة المصرية قد أخطرت رسمياً بأن المستر كولفن لن يحضر الاجتماعات بعد الآن ، ونظرا لأن الرقابة انجليزية - فرنسية ، فإنها لا يمكن أن تظل قائمة طالما أن أحد المراقبين قد انسحب منها ، وأنه نتيجة لذلك فإن الحكومة المصرية لا يمكنها أن تدعو المراقب الفرنسى وحده" . وقد أثار هذا الموقف المسيو دوكلير . فكتب إلى القنصل الفرنسى فى مصر فى الأول من نوفمبر ، بعد أن تفاوض مع إنجلترا ، قائلا : أنه "إلى أن تلغى الرقابة أو تعدل أو يتم تغييرها بالرضا المتبادل فإنه ما من أحد له الحق فى إيقاف ممارستها" . وأعادت إنجلترا أخيراً هذه الرقابة فى شهر ديسمبر من العام نفسه ، ولكنها كانت - فى الحقيقة - رقابة شكلية . ولم يرض ذلك المسيو دوكلير وأنهى المفاوضات حول هذه المسألة فى ٤ يناير ١٨٨٣ بالتصريح التالى : "لحكومة صاحبة الجلالة البريطانية رأى آخر وهى تضطرننا لذلك إلى أن نأخذ بأيدينا زمام التصرف بحرية فى مصر . ومهما كان الأسف الذى نشعر به ، فإننا نقبل الوضع الذى ووجهنا به" . وتوقفت المفاوضات ، وظل الوضع على هذا النحو مدة عامين ، ولم تلغ الرقابة نهائياً إلا فى سنة ١٨٨٤ فى عهد حكومة جول - فيري . واذ أدرك هذا الأخير تماماً أن المساواة بين كلا من المراقبين ليست إلا فى الظاهر^(١) فقد أعلن فى مجلس النواب فى ٢٤ يونيو سنة ١٨٨٤ أنه : "منذ اليوم الذى أدت فيه ظروف معينة لا

(١) فريسينيه Freycinet ، المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

أرأى بحاجة إلى التذكير بها أو الحكم عليها بإعتبارها ملكا للتاريخ ، بمجلس النواب إلى رفض المشاركة بأية صورة في التدخل العسكى فى وادى النيل فقد بات من الواضح أن الإرتباطات ، السياسية من جانب والمالية من جانب آخر ، والتي تمت فى سنة ١٨٧٦ وفى سنة ١٨٧٩ قد تعرضت لتهديد بالغ وأنها كانت فى سبيلها إلى الإتهيار القريب والحتمى . فالرقابة الثنائية ، التى إنهارت فى الواقع ، كان لابد أن تنتهى من الناحية القانونية كذلك .

وقد انتهت الميزانية الإدارية فى عام ١٨٨٢ بعجز بلغ ٨٥٠ ٠٠٠ جنيه مصرى . وأنقضى من الدين الممتاز ما قيمته ٦٣ ٠٠٠ جنيه ومن الدين الموحد ما قيمته ١٩٧ ٠٠٠ جنيه . وأنتهت الميزانية العامة بعجز يزيد قليلا عن ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزى .

وكان الوضع فى سنة ١٨٨٣ أشد سوءا . فبلغ عجز الميزانية الإدارية ١ ٠٣٥ ٠٠٠ جنيه مصرى ، وبلغ ما تم إنهاؤه من الدين ٧٩٨ ٠٠٠ جنيه إنجليزى . ظن الناس أن أيام إسماعيل ستعود ، فقد تمت ترتيبات وصدرت مراسيم ، ولكن الدين كان مع ذلك فى تزايد مستمر . وعاد "الدين السائر" ، ذلك الجرح الدائم النزيف ، إلى الظهور بشدة لا تقهر ، بعد أن كان الاعتقاد قد ساد بأن قانون التصفية قد أنهى هذا الدين نهائيا . وكان الاقتراض مستمرا ، والاتفاق يتزايد دون حد بسبب الاضطرابات . وانتفض السودان المصرى وكانت المهدية ، ذلك الخطر السودانى ، تهدد مصر . فكان لابد من ارسال قوات إلى هناك لاختضاع الثائرين ، واقتضت هذه الحملة نفقات جديدة تزيد من الأعباء الملقاة على عاتق الدولة . وهدد الأفلاس مصر مرة أخرى ، وأصبح ما ذكره المراقبان فى سنة ١٨٨٢ عن عدم قدرة مصر على الوفاء بالتزاماتها أكثر صحة - أضعافا مضاعفة - فى سنة ١٨٨٤ . وبلغت تعويضات الإسكندرية - الظالمة فى الحقيقة والتى لم تفرض إلا لأن ضحاياها كانوا أوروبيين وأن القوى كانت تساندهم بأى ثمن - أربعة ملايين بخلاف عجز الميزانيات والمصروفات الإستثنائية .

وكانت المبادرة فى تسوية الشؤون المالية لمصر أيام إسماعيل بيده هو . وبعد سقوطه حلت فرنسا محله فى ذلك ، ويعزى إليها الفضل فى النجاح الكبير الذى حقته المفاوضات حول التصفية . وقد حان الآن دور إنجلترا . وهى تمسك بيدها إدارة

شئون البلاد كلها تقريرا فهي في وضع الوصاية على مصر . إنطلاقا من هذا الوضع شرعت ، في سنة ١٨٨٢ ، في إجراء المحادثات لإلغاء الرقابة ، كما أنها - بناء على هذه الوصاية - ستتفاوض مع القوى الأخرى لتسوية الأوضاع المالية لمصر . وفي ١٩ ابريل ١٨٨٤ وجه اللورد جرانفيل ، الوزير بوزارة الخارجية الإنجليزية . إلى القوى المذكورة التالية : " ترى حكومة صاحبة الجلالة أن من المناسب ، من أجل مواجهة الأعباء التي يتطلبها حسن سير أعمال الحكومة المصرية ، إدخال بعض التعديلات على قانون التصفية . ونقترح حكومة صاحبة الجلالة عقد مؤتمر في لندن أو في الآستانة للنظر في مدى ضرورة إجراء هذا التغيير وماذا تكون طبيعته .

وقد أرفق بهذه المذكرة مذكرة تفسيرية هذا نصها :

"لقد واجهت المالية المصرية أعباء كبيرة لأسباب أولها تدمير الممتلكات في الاسكندرية وقرارات اللجنة الدولية التي قررت منح تعويضات للضحايا بلغت ما يزيد على أربعة ملايين وربع المليون جنيه إنجليزي ، وثانيها النفقات التي لم يعرف مقدارها بعد على وجه الدقة والتي اقتضتها الجهود التي تبذلها مصر للمحافظة على وجودها في السودان ، والمحاولات التي تمت من أجل اخماد التمرد في هذا البلد ، والكوارث التي تعرض لها الجيش المصري في أكتوبر الماضي ، والتدابير التي كان لابد من اتخاذها لمواجهة الأخطار الناجمة عن هذا الوضع ، ولا تقل المصروفات التي تمت فعلا أو التي سيتم اتفاقها لهذا السبب عن مليون ونصف المليون ، وثالثها الزيادة ، القائمة فعلا منذ بضعة أعوام ، في المصروفات الإدارية الجارية عن صافي إيرادات البلاد ، وضرورة القيام بنفقات كبيرة من أجل منشآت الري .

" وترى حكومة صاحبة الجلالة أن من المناسب إدخال بعض اتعديلات على قانون التصفية بغية مواجهة النفقات التي يتطلبها حفظ السلم وحكم البلاد حكما صالحا والوفاء بالتعهدات التي التزمت بها بالفعل الخزانة المصرية .

" لذلك فانها تقترح عقد مؤتمر في لندن أو في الآستانة ليقرر ما اذا كانت مثل هذه التعديلات ضرورية ، وما تكون عليه طبيعتها" .

ولم تواجه هذه المذكرة صعوبة تذكر لدى الوزارات المختلفة ، وكان الجميع مقتنعا بضرورة عقد مثل هذا المؤتمر . ولكن الرأي الفرنسي كان متجها إلى أن مصر قادرة على الوفاء بجميع تعهداتها ، وجاء في مقال نشرته "الايكونوميست

فرانسيه L'Economiste Francais " أنه لا يمكن ولا ينبغي تقديم أى تنازل آخر إلى مصر بعد التنازلات التى نص عليها قانون التصفية". ولم يثر نقاش حول فكرة عقد المؤتمر فى حد ذاتها . واذا ما أخذنا فى الاعتبار الحالة النفسية لأوروبا ، التى كانت شديدة الحرص على حماية مصالح الأوروبيين فى مصر ، فإننا نستطيع أن ندرك أن مؤتمرا ينتظر منه تقرير دفع تعويضات لضحايا قصفا الأسكندرية والحريق الذى شب فيها ، لا يمكن أن يثير أى اعتراض فى نظر أوروبا .

وقد وجهت إنجلترا مذكرتها إلى القوى الكبرى وحدها . ولم يكن هذا بالطريق السليم ، إذ أن قانون التصفية وقعت عليه أربع عشرة دولة . واحتجت اسبانيا على هذا الإجراء ، ولكنها ووجهت بما تضمنه قانون التصفية من أنه متى تم التوصل إلى حل فإن هذه القوى ستدعو الأمم الأخرى للانضمام اليه . وكانت النقاط الأساسية التى تحتاج إلى حل هى تلك التى تتعلق بالسماح لمصر بإبرام عقد قرض جديد بمبلغ ٨ ٧٦٠ ٠٠٠ جنيه مصرى لتجميع الأعباء الجديدة معا وتخفيض الفائدة على الديون المجمعة . وانتهزت فرنسا الفرصة للحصول على بديل مناسب يعوضها عن الرقابة التى لم تعد موجودة . وفى ١٧ يونيو ١٨٨٤ سلم المسيو وادينجتون إلى اللورد جرانفيل مذكرة جاء فيها : " من المهم ، لضمان حسن إدارة الشئون المالية المصرية ، التوسع فى صلاحيات لجنة الدين". ولتحديد مفهوم هذا التوسع أعطت المذكرة للصندوق "صفة إستشارية فى إعداد الميزانية ، والحق فى رفض أية نفقات من شأنها أن تؤدى إلى زيادة الميزانية ، إلا فى حالات القوة القاهرة" ، وأعطته أخيرا سلطة التفتيش المالى يعد مغادرة القوات الإنجليزية .

وعقد المؤتمر اولى جلساته فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٤ ، وقدم مشروع فرنسى مقابل ، أخذ بفكرة أنه لا ضرورة لتخفيض سعر الفائدة . ونتيجة لهذا الاختلاف فى الأفكار بين فرنسا وإنجلترا انفض المؤتمر دون الوصول إلى أى نتيجة ، ودون تحديد موعد آخر لأجتماعه .

وقد أدى فشل المؤتمر على هذا النحو إلى نفاد صبر إنجلترا . فبالرغم من جميع عودها بالجلء عن مصر ، فقد كانت ترغب فى أن يكون لها فيها وضع متفوق . وظنت أنه مما يشرفها ويحقق فى الوقت نفسه نفعا كبيرا لها أن تقوم ببعض الأعمال النافعة خلال بضع السنوات التى سيسمح لها فيها بالبقاء فى مصر . وازاء نفاد صبرها

كلف اللورد نورثبروك ، عضو مجلس الوزراء ، بالذهاب إلى مصر بصفته مفوضا ساميا مكلفا بالتحقيق "لتعرف على النصائح التي يمكن توجيهها إلى الحكومة المصرية". وقد وصل إلى مصر بالفعل في ٩ سبتمبر فوجد الوضع حرجا إذ كانت البلاد بحاجة ماسة إلى النقود لمواجهة نفقات الإدارة اللازمة لها . ونصح بإيقاف اهلاك الديون ، الأمر الذي يوفر للحكومة مبلغا كبيرا نسبيا . وفي الثامن عشر من الشهر نفسه أخطر صندوق الدين بهذا الإجراء ، وصدر مرسوم نص على أن تسدد الإيرادات التي كانت مخصصة للإهلاك إلى وزارة المالية حتى السادس عشر أو السادس والعشرين من أكتوبر بحسب الديون المخصصة لها . وكان هذا الإجراء مخالفا ، بغير شك ، لقانون التصفية ، وأقام مفوضو الدين دعوى أمام المحاكم المختلطة ضد نظارة المالية ورئيس مجلس النظار ، ومديرى المديریات والمصالح المخصصة إيراداتها لخدمة الدين. وحملتهم هذه الدعوى ، ليس فقط المسئولية ، بل المسئولية التضامنية فيما بينهم وبين الحكومة المصرية . ولم ينضم المفوض البريطاني إلى زملائه فى الدعوى .

ولم تكن الحكومة البريطانية راغبة فى أن تتحمل أية مسئولية عن الإجراء الذى اتخذته الحكومة المصرية بناء على نصيحة اللورد نورثبروك لاسيما وأن القوى كانت تؤيد صندوق الدين فى موقفه . وحكمت محكمة القاهرة لصالح المفوضين ، وبالرغم من إستئناف الحكومة المصرية للحكم ، فلم يكن هناك شك فى أن تؤيد محكمة الأسكندرية حكم محكمة أول درجة . واضطربت الحكومة البريطانية لذلك فأستأنفت المحادثات مع مجالس الوزراء فى الدول الأخرى بقصد التوصل إلى حل نهائى .

لذلك بعثت إلى القوى باقتراح للسماح لمصر بالتعاقد على قرض مقداره خمسة ملايين جنيه بفائدة ٣% بضمان انجلترا ، وأصدار سندات لها حق أمتياز لسداد تعويضات الأسكندرية . عارضت فرنسا مبدأ تقديم انجلترا للضمان ، ذلك أن سياستها لم تكن لتسمح لها بأن تدع لأنجلترا وضعها متفوقا فى وادى النيل . وعارضت كذلك فكرة تسديد تعويضات ضحايا الأسكندرية بسندات لها حق أمتياز ، وذلك لسبب وجيه وهو أن من الأفضل بالنسبة لمصر نفسها أن تقترض بفائدة قدرها ٣% بدلا من اصدار سندات بفائدة ٥% . وكانت هناك مسائل أخرى ، غير المسائل المالية ، يتعين إيجاد حل لها فى المؤتمر .

وكانت انجلترا على استعداد لتقديم التنازلات حول هذه المسألة لاسيما أن فرنسا لم تثر الصعوبات أمامها بالمطالبة بتحديد يوم تسحب فيه انجلترا قواتها من مصر . ووفقا لرغبة فرنسا ، فإن حقوق الدائنين ، فيما يتعلق بسعر الفائدة على مختلف الديون القائمة ، لم تمس . وأتاحت هذه الروح التوفيقية للمؤتمر هذه المرة أن ينجح ، وتمثلت نتيجته في اتفاقية لندن لسنة ١٨٨٥ .

وبموجب هذه الاتفاقية قررت تركيا وألمانيا والنمسا - المجر وفرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا وروسيا بالتراضي فيما بينهم "توفير ما يلزم لتعويضات الأسكندرية التي يعتبر سدادها أمرا ملحا بوجه خاص" وتصفية الوضع المالي لمصر وإعادة التوازن اليه ، وضمانها لقرض يسمح للحكومة المصرية بعقده بفائدة لا تتجاوز ٣٪ وبحد أقصى لا يزيد عن تسعة ملايين جنيه . وخصص لخدمة هذا القرض قسط سنوي ثابت قدره ٣١٥ ٠٠٠ جنيه إنجليزي يستقطع أولا من الإيرادات المخصصة لخدمة الدين الممتاز والدين الموحد . وكلف صندوق الدين بالقيام بما يلزم لخدمة القرض على نحو ما يقوم به بالنسبة للدينين الممتاز والموحد ، كما أن رأس المال نفسه سيكون تحت يد الصندوق . ويدفع الصندوق تعويضات الأسكندرية إلى ذوى الشأن ويسلم الزيادة إلى الحكومة المصرية أولا بأول بحسب احتياجاتها" ، أى أنه سيمارس وصاية عليها . ويتم إهلاك القرض من القسط السنوي (٣١٥ ٠٠٠ جنيه) فيما يزيد عن المبلغ اللازم لسداد الفوائد . ويتم الإهلاك عن طريق إعادة الشراء بسعر السوق في حدود القيمة الاسمية ، وإذا زاد السعر عن ذلك يتم الإهلاك بالقرعة .

وسمحت إتفاقية لندن كذلك للحكومة المصرية بتحصيل ضريبة قيمتها ٥٪ على قيمة كوبونات سندات الدين الموحد والدين الممتاز لمدة سنتين . وبعد هذه المدة ، وإذا ظلت الأحوال المالية المصرية على ما كانت عليه في سنة ١٨٨٥ من الإضطراب ، يجرى تحقيق فيها تكلف به لجنة دولية . أما إذا تحقق فيها التوازن فيقف تحصيل ضريبة الـ ٥٪ المذكورة .

وفي ١٨ أبريل ، أى بعد شهر من التوقيع على الإتفاقية صدر مرسوم دعى فيه مفوضو الدين العام ، ومدير الدائرة السنوية ومراقبوها ، ومديرو أملاك الدولة (الدومين) إلى خصم نسبة ٥٪ من قيمة الكوبونات المستحقة في ١٥ أبريل بالنسبة للدين

الممتاز ودين الدائرة، والأول من مايو بالنسبة للدين الموحد، والأول من يونيو بالنسبة دين الدومين ، تمثل مقدار الضريبة التي وافقت عليها القوى .

وصحب الاتفاقية مشروع مرسوم وضعته القوى ووافقت عليه ، وقع عليه الخديوى فى ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٥ ، وأصبح هو بذلك القانون المعدل والمكمل لقانون التصفية . وكان لهذين القانونين أهمية كبيرة؛ لأن مبادئهما العامة ظلت بمثابة "الميثاق" المالى "لمصر حتى سنة ١٩٠٤ .

ويكرر مرسوم ٢٧ يوليو هذا ، فى مواده الثمانية الأولى ، النصوص الأساسية لاتفاقية لندن . وتتص المادة ٩ على أن يخصص رصيد القرض المضمون ، المتبقى بعد سداد تعويضات الأسكندرية ، لمواجهة الأعباء التالية :

جنيه مصرى

٢ ٦٥٧ ٠٠٠	تسوية عجز الميزانية لسنة ١٨٨٤ والسنوات السابقة عليها
١ ٠٠٠ ٠٠٠	منشآت الرى
١ ٢٠٠ ٠٠٠	عجز سنة ١٨٨٥ المقدر ب
٥٥٠ ٠٠٠	تعويض إستبدال المعاشات
٥٠٠ ٠٠٠	مبلغ احتياطى للخرينة
٥ ٩٠٧ ٠٠٠	المجموع

ويخصص ما يبقى بعد ذلك وبعد سداد التعويضات لإهلاك الديون . ويتناول المرسوم بعد ذلك ضريبة الـ ٥٪ التى ستقرض على سندات الدين الموحد والدين الممتاز ، وبوجه خاص الجزء المكمل الذى ستضطر الحكومة إلى دفعه فى حالة حدوث عجز فى إيرادات الدائرة أو الدومين . "على أن هذه الضريبة لا يجوز أن تفرض إلا على قيمة الدفعات نصف السنوية التى تستحق فى سنتى ١٨٨٥ و ١٨٨٦ . فإذا لم تنتظم الأوضاع المالية بعد هذين العامين ، ورأت الحكومة نتيجة لذلك أن من الضرورى الأستمرار فى تحصيل هذه الضريبة ، تنشأ عندئذ لجنة دولية - يتم تشكيلها بالاتفاق مع القوى - لأقتراح الوسائل المناسبة لوضع تقسيم جديد لموارد البلاد" .

ينص المرسوم بعد ذلك على التعديلات التى أدخلت على قانون التصفية . وتتصب هذه التعديلات على نقطتين رئيسيتين : إهلاك الديون والميزانية الإدارية . فقد أوقف إهلاك الدين الممتاز والدين الموحد وقرض الدومين على أن لا يستأنف إلا بالشروط التى سنوضحها فيما بعد . ونصت المادة ٢٧ من المرسوم على إجازة الإجراء الذى اقترحه اللورد نورثبروك وسحب من محكمة الأستئناف اختصاصها بنظر الموضوع .

أما الميزانية الإدارية فقد خصص لها ٢٣٧ ٠٠٠ جنيه بدلا من الـ ٨٨٨ ٨٩٧ ٤ جنيه التى حددها لها قانون التصفية . وعلى الحكومة أن تدبر نفقاتها من هذا المبلغ وأن تدبر منه كذلك الأعباء الثابتة التى تقع على كاهلها : الجزية التى تدفع لتركيا ، الفائدة على أسهم قناة السويس (التي خفضت بمقدار ٠٪ بموجب إتفاقية قناة السويس) ، والمقابلة . على أنه اذا زادت أعباء الحكومة بسبب وضعها كضامن لخدمة ديون الدومين والدائرة فيضاف مبلغ مساو لهذه الأعباء الإضافية إلى الميزانية الإدارية . واذا لم تكف إيرادات المديرية والمصالح التى لم يسبق تخصيص إيراداتها لتغطية الزيادة اللازمة فى الميزانية ، يستقطع صندوق الدين من فوائضه المبلغ اللازم لتغطية العجز ويدفعه إلى نظارة المالية . أما فى الحالة العكسية ، أى اذا تحقق فائض ، فانه يدفع إلى صندوق الدين الذى يضيفه إلى فائض الإيرادات المخصصة ويبقى المبلغ كله كاحتياطي حتى ١٥ أبريل ١٨٨٧ . وفى هذا التاريخ يرد الصندوق إلى الدائنين مبلغ الضريبة الذى خصم منهم خلال العامين السابقين . "واذا بقى فائض يخصص لرد التخفيض الذى طرأ بنسبة ٥٠٪ على سعر الفائدة لأسهم قناة السويس" . واذا بقى بعد ذلك فائض آخر يقسم بنسبة النصف للحكومة والنصف لصندوق الدين الذى يتولى تخصيصه لإهلاك الديون .

ويخصص الصندوق من هذا النصف الذى يذهب اليه ٨٧ ٨٥٠ جنيه مصرى (٩٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزى) لإهلاك الدين المضمون ، وما يزيد عن ذلك لإهلاك الديون الأخرى وفقا لما نص عليه قانون التصفية وعقد قرض روتشيلد .

وصدر فى ٢٨ يوليو مرسوم بشأن اصدار سندات تكون حصيلة ما يصدر منها (٩٥٪) مبلغا قدره ٩ مليون جنيه بسعر فائدة ٣٪ سنويا ، وبذلك تبلغ جملة

القيمة الاسمية لهذه السندات ٠٨٣ ٤٢٤ ٩ جنيه إنجليزي . وكان ممثلو الحكومة في شأن هذا القرض هم السادة دي روتشيلد أنفسهم .

وقد حقق هذا القرض ، المضمون من القوى ، نجاحا كبيرا وارتفعت عند إصداره قيمة سندات الدين المصري بدلا من أن تنخفض . والواقع أن الهدوء الذي ساد البلاد ، بعد كوارث سنة ١٨٨٢ والآثار التي نجمت عنها في السنوات اللاحقة ، كان يدعو للأمل في عودة الرخاء إلى مصر . وقد ازداد هذا الأمل يوما بعد يوم بالقضاء على أسباب الضيق الصغيرة ، الأمر الذي حدث بصورة تدريجية بعد وضع نظام سنة ١٨٧٨ - وهو نظام شبه دستوري - ويفضل الدأب على العمل الذي طبع به المصريون ، واقتناعهم بذلك القانون الاقتصادي الذي أثبت أن البلاد الزراعية سرعان ما تنهض من المأسى التي تتعرض لها في أزمنة الاضطرابات والحروب . وقد ساعد على ذلك بعض الإصلاحات المادية التي اتخذتها إنجلترا ، وإن يكن في حدود ضئيلة لأنها كانت لا تزال في بدايتها .

وقد أعاد هذا التقدم والأمل في الرخاء الثقة إلى الدائنين . واستمرت هذه الثقة في التزايد تدريجيا مع ما أتاحه هذا الهدوء من فرص أمام الجميع لأستئناف العمل . ويشهد على هذا الرخاء الفوائض التي تحققت فعلا في الميزانية العامة . فقد جاء في النشرة الموجزة التي أصدرها صندوق الدين عن سنة ١٨٨٧ أن "الفائض المتبقى لدينا من العام المالي ١٨٨٥ بلغ ٢٥٧ ٤٣١ جنيه مصري" وأنه "تبقى لنا بعد مدفوعات العام المالي ١٨٨٦ مبلغ ٩٦١ ٤٨٦ جنيه مصري استقطعنا منه مبلغ ١٢٧ ٣٢٨ جنيه مصري الذي يمثل الفارق بين الإيرادات والمصروفات في الميزانية الإدارية" .

وكان من النتائج الطيبة لهذا الرخاء ، الذي أصبح اليوم ملموسا ، أنه صرف انتباه الحكومة المصرية من مجرد الاهتمام بتنظيم مواردها بغية الوفاء بتعهداتها ، وحملها على الاهتمام بوسائل زيادة ثروتها . لذا صدر في ٢٢ يونيو ١٨٨٦ مرسوم يسمح لصندوق الدين بأن يوظف بفائدة جميع المبالغ المتوفرة لديه إلى حين إستخدامها وألغى بذلك نص المادة ٧ من مرسوم ٢ مايو ١٨٧٦ التي كانت "تحظر على الصندوق استخدام أية أموال ، سواء كانت زائدة لديه أم لا ، في عمليات الائتمان والتجارة والصناعة وغيرها" .

وحقق الصندوق، من توظيفه الأموال الفائضة لديه من عامى ١٨٨٥ و ١٨٨٦ ، أرباحا تبلغ ٦٧٢٣ جنيه مصرى ، أضيفت إلى الفوائض الأخرى عن هذين العامين فبلغت جملتها بذلك ٨١٣ ٥٧٨ جنيه مصرى.

وإذ تزايد الرخاء فى البلاد على هذا النحو اشتد إهتمام الحكومة وعنايتها بالمستقبل . فوضعت لذلك مشروعات كبرى لتحسين حال الزراعة بما يسمح بالحصول من الأرض على كل ما يمكنها إنتاجه . واستتبع هذا الأهتمام وهذه المشروعات من الحكومة النظر فى أمر النفقات الباهظة التى تتطلبها . وفى الوقت نفسه كانت هناك أعباء تنقل كاهلها بغير جدوى مثل مخصصات الخديوى السابق وأفراد أسرته ، وغيرها من المعاشات التى تمنحها .

وفكرت الحكومة، من أجل تخفيف هذه الأعباء ، فى شراء هذه المخصصات. ولذا ، وبعد موافقة صندوق الدين والاتفاق الذى أبرم مع ممثل للخديوى السابق ، وبعد الحصول على إذن الباب العالى وموافقة القوى ، صدر مرسوم فى ٢٠ أبريل ١٨٨٦ يرخّص فيه لناظر المالية بإصدار سندات ، ضمن الخمسة ملايين التى سبق أن أذن بها السلطان ، وبفائدة لا تتجاوز ٥% ، للحصول على مبلغ لا يزيد فى جملته الفعلية عن ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه مصرى (٢٨٢ ٠٥١ جنيه انجليزى) . وخصص لخدمة هذا القرض قسط سنوى قدره ١٣٠ ٠٠٠ جنيه مصرى (٣٣٣ ١٣٣ جنيه انجليزى). ونظرا لأن الغرض من هذا القرض ، وهو إعادة شراء المخصصات والمعاشات التى تمنحها الدولة ، من شأنه أن يودى إلى تخفيف أعباء الميزانية الإدارية ، فقد تمت زيادة هذا القسط السنوى ليتناسب مع المبلغ الذى تتكون منه هذه الميزانية الإدارية وهو ٢٣٧ ٠٠٠ جنيه . ويدفع هذا القسط على دفعات شهرية قيمة كل منها ٨٣٣ ١٠ جنيه مصرى (١١ ١١١ جنيه انجليزى) إلى صندوق الدين . وفى حالة التأخير فى ذلك تدفع حصيلّة الضرائب المباشرة وغير المباشرة لمدينة القاهرة إلى الصندوق .

”المادة ٩ - يخصص من ناتج هذا القرض :

٢٧٥ ٠٠٠ جنيه مصري لتغطية النفقات التى يتطلبها الترتيب الذى نـم

الاتفاق عليه مع عدد من أعضاء الأسرة الخديوية

٤٥٠ ٠٠٠ جنيه مصري للاستمرار فى استبدال المعاشات مقابل أراض حرة

أو أراضي الدومين^(١)

٢٧٥ ٠٠٠ جنيه مصري كمبلغ يضاف إلى حصيلة بيع الأملاك الحرة لتغطية

التكاليف المنصوص عليها فى المادة ٩ من مرسوم ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٥

٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه مصري

ويودع ناتج هذا القرض ، كما كان الحال بالنسبة للقرض المضمون ، لدى صندوق الدين الذى سيتصرف فيه باعطاء ذوى الشأن حقوقهم وتسليم وزارة المالية أولا بأول ، وبحسب احتياجاتها ، مبلغ ٢٧٥ ٠٠٠ جنيه مصري . وبالإضافة إلى ذلك ، يسلم إلى صندوق الدين ، ناتج بيع الأملاك الحرة الذى كان مخصصا أولا لمصروفات المنافع العامة المنصوص عليها فى المادة ٩ من مرسوم ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٥ ، وثانيا لإهلاك هذا القرض .

وبعد صدور هذا المرسوم ، تم إصدار سندات القرض بسعر فائدة ثابت مقداره ٤ ٪ وبنسبة ٩٣ ٪ من المسموح به للحصول على ما قيمته الإسمية ٢ ٣٣٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزى بواسطة السادة دي روتشيلد وبلايخرودر ، وكان المبلغ المتحصل فعلا ٢ ١١٢ ٧٢٧ جنيه إنجليزى . وبلغت المصروفات التى أنفقت خلال سنة ١٨٨٨ على القرض ٩٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزى . وإذا ما خصمنا من هذا المبلغ قيمة الفوائد على القدر غير المستخدم خلال سنة ١٨٨٨ يصل الرصيد المتبقى فى نهاية هذا العام إلى ٢ ٠٢٩ ٢٤٦ جنيه إنجليزى . وقد استخدمت الزيادة عن المليونين المنصوص عليهما فى مرسوم ٣٠ أبريل سنة ١٨٨٨ لإهلاك الديون خلال سنة ١٨٨٩^(٢) .

(١) . حصص لأستبدال المعاشات قبل سنة ١٨٨٨ ناتج بيع الأراضي الحرة المملوكة للدولة . وبعد صدور هذا المرسوم فإن مبلغ الـ ٤٥٠ ٠٠٠ جنيه هو الذى سيخصص لهذا الغرض

(٢) . أنظر البقرة الموحدة لصندوق الدين لعام ١٨٨٨

وقد سمح هذا القرض للحكومة ، فضلا عن التخلص من أعباء لا جدوى منها ، بمتابعة الإصلاحات التي كانت تزمع القيام بها لتحسين الحالة الزراعية للبلاد . وكما سبق أن ذكرنا فإن المشروعات الكبرى التي كانت الحكومة تحلم بتحقيقها من أجل المستقبل قد بعثت على القلق عند التفكير في الامكانيات اللازمة لتنفيذها . فاذا كان أى فائض فى الميزانية سيستخدم نصفه لإهلاك الديون ، ونصفه الآخر لمواجهة التكاليف التي يتطلبها الإصلاحات غير المدرجة فى الميزانية، أى التي لم يرخص بها ، فإنه لا سبيل اذن إلى القيام بأعمال كبرى حتى ولو لم يكن هناك أى جدال فى فائدتها . وهذا هو ما دعا ملنر ، اذ كان يتحدث عن قانون التصفية ومرسوم سنة ١٨٨٥ ، إلى أن يقول : " ان العيب الأساسى فى الإصلاحات الأولى التي أدخلت على المالية المصرية هو أنها لم تنشئ صندوقا للاحتياطى ^(١) . كما أن ناظر المالية وجه رسالة ، فى ١٩ فبراير سنة ١٨٨٨ إلى صندوق الدين يوضح فيها أهمية إنشاء صندوق للاحتياطى . وقد جاء فى هذه الرسالة : " أن الحكومة المصرية ، من أجل تمكينها من مواجهة النقص فى الإيرادات ، أو الأعباء الباهظة التي يمكن أن تؤدي إلى اختلال ميزانيتها ، عقب أحداث غير متوقعة ، والتي يستحيل عليها فى كل عام التنبؤ بصورة مؤكدة بالعجز المتغير الذى قد يطرأ فى إيرادات الدومين أو الدائرة السنوية ، قررت انشاء صندوق احتياطى دائم يكون الغرض منه تمكينها من مواجهة أية ظروف غير متوقعة . " وبدأت المفاوضات مع القوى فى هذا الشأن ، وكانت فائدة هذا الصندوق من الواضح بحيث لم تتأخر القوى فى الوصول إلى نتيجة فى شأنه . وتضمن المرسوم الصادر فى ١٢ يوليو سنة ١٨٨٨ هذه النتيجة فنص على إنشاء صندوق احتياطى فى حدود مبلغ ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه مصرى . وخصصت لتكوين هذا الصندوق الاحتياطى الفوائض التي كانت مخصصة للإهلاك بموجب مرسوم ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٥ ، ولا يعود تخصيصها لغرضها السابق إلا بعد استكمال رصيد الصندوق الاحتياطى لمبلغ المليونى جنيه . ويمثل هذا الصندوق الاحتياطى ضمانا فى حالة حدوث عجز فى الإيرادات المخصصة لخدمة الدين أو فى الميزانية الإدارية ، أو كذلك لاستكمال ما تحتاج اليه الحكومة من نفقات استثنائية والتي يتعين أن تبدى فيها لجنة الدين رأيها

(١) ملنر ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨

مسبقا . وفى جميع الحالات التى ينقص فيها رصيد الصندوق الاحتياطى عن مليونى جنيه مصرى نتيجة لسحب بعض المبالغ منه ، يوقف الإهلاك حتى يستكمل الصندوق الاحتياطى هذا الرصيد من جديد .

والخلاصة ،اذن، أن مصر كانت فى سنة ١٨٨٠ غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها ، وكان لابد من التقليل من أعبائها . وهذا ما فعله قانون التصفية . لكن هذا القانون لم يأخذ فى الاعتبار بقدر كاف النفقات اللازمة لإدارة شئون البلاد وكان من الضرورى لذلك تعديله . وحدثت فى نفس هذا الوقت اضطرابات متنوعة وأنفقت مصروفات استثنائية لتصحيح الوضع . وتلبية لهذين المطلبين : تعديل قانون التصفية والمصروفات الاستثنائية التى اقتضتها الأحداث غير العادية لسنتى ١٨٨٢ و ١٨٨٣ ، وضعت اتفاقية لندن لسنة ١٨٨٥ التى إنشئ بمقتضاها القرض المضمون والتى أدخلت تعديلات على قانون التصفية .

وساد الهدوء ، بعد هذه الاتفاقية ، أنحاء البلاد كلها وبدأ الرخاء يتلمس طريقه إليها . وفكرت الحكومة حينئذ فى تحسين الأوضاع المالية بالتخفيف من أعباء الخزنة ، ومن ثم أصدرت قرض سنة ١٨٨٨ بفائدة ٤ ٪ . وكانت تتوقع كذلك ضرورة القيام بنفقات استثنائية فى المستقبل فأنشأت الصندوق الاحتياطى .

وقد استمر هذا الرخاء وسمح بإبرام صفقات جديدة تزيد من تحسن الوضع المالى للبلاد . والواقع أن مصر كانت تمر فى هذه المرحلة بعهد ذهبى لو أنها استطاعت الإفادة منه لإدخال الإصلاحات اللازمة فى جميع مجالات حياتها الاجتماعية لأمكنها أن تبلغ درجة لا بأس بها من الثراء . ومع الأسف فإن الحرص على تحسين الزراعة كان يتصدر كل تفكير آخر ، الأمر الذى أدى بالبلاد إلى أن تصبح مجرد منتج للمواد الأولية ، ليس لصالحها هى ، بل لصالح الأجنبى . ومع ذلك ، فإذا عقدنا مقارنة بين حال مصر فى سنة ١٨٨٨ وحالها فى سنة ١٨٧٦ من الناحيتين المالية والزراعية فإنه لا يسعنا إلا أن نفخر بالنتائج التى تحققت والتغيرات التى حدثت خلال هذه السنوات الاثني عشرة .

الفصل السابع

الاستبدال

تحسنت الحالة المالية لمصر بصورة فجائية ورائعة . والواقع أنه لم يكن ينقص هذا البلد البالغ الثراء إلا إدارة داخلية جيدة ومقتصدة . فمنذ اليوم الذى توقف فيه الاسراف والتبديد اللذان كانا سائدين فى عهد اسماعيل ، وهدأت فيه الاضطرابات الداخلية التى أثارها التدخل الأوروبى الجائر ، لم يعد هناك عوائق تحول دون أن يستأنف الرخاء سيره فى البلاد بل وأن ينمو بعد أن توقف منذ سنة ١٨٧٦ . وكانت انجلترا تتطلع إلى ذلك أثناء المفاوضات التى مهدت لاتفاقية لندن ، وهو ما تحقق بعد الاتفاقية . وكان للرخاء الذى شهدته البلاد حديثا ، والتنظيم النسبى فى ادارة شئونها ، تأثير طيب على الدين العام . فقد أصبح لهذا الدين فجأة أهمية كبيرة بعد أن كانت قيمة سندات فى الفترة من ١٨٨٠ إلى سنة ١٨٨٥ ثابتة وقليلة ، وبدأت السندات المضمونة منذ سنة ١٨٨٨ تتجاوز قيمتها الاسمية . وكانت الحكومة المصرية أول من أدرك هذا التقدم المالى وتقدير مزاياه . ففكرت فى استبدال الدين الممتاز ٥٪ التى كانت قيمة سندات تتجاوز هى الأخرى القيمة الاسمية . ومنذ شهر فبراير من هذا العام أبلغ الكونت دى أوبينى ، القنصل العام لفرنسا فى القاهرة ، حكومته بما تعترمه الحكومة المصرية .

وأثار مشروع الاستبدال ثائرة حملة السندات فى لندن . وكانت سندات الديون الممتازة ، التى أصدرتها الحكومة المصرية فى سنة ١٨٧٦ وأكدها الاتفاقات الدولية ومنها قانون التصفية ومرسوم ١٨٨٥ التى تشكل معا كلا متكاملا ، قابلة للاهلاك بموجب هذه النصوص على مدى خمسة وستين عاما . ومن ثم فإن استبدالها ، وهو بمثابة تسديد لها ، يضر بحقوق حامليها . ولكن يبدو أن حملة هذه السندات تناسوا أن من حق المدين أن يتخلص من الدين بالوفاء به إلى الدائن كاملا فى أى وقت . وأثارت مطالب حملة السندات غضب الحكومة المصرية فنشرت فى ٣٠ مارس ١٨٨٨ فى الجريدة الرسمية ، وبعد استشارة المحامين ، مايلى : "يحيط ناظر المالية الجمهور علما بأن الحكومة المصرية تحتفظ بحقها المطلق فى سداد سندات الدين الممتاز بقيمتها

الاسمية ، وتحفظ بحقها فى استخدام هذا الحق بموافقة القوى فى الوقت الذى تراه مناسباً . وفى الوقت نفسه أوضحت الحكومة الانجليزية ، الوصى الفعلى على الحكومة المصرية والمتصرف فى شئونها المالية ، أن كبار رجال القانون الانجليز يرون أن الاستبدال قانونى بشرط الحصول على موافقة القوى .

وإذ ساند هذا رأى موقف الحكومة المصرية فقد واصلت تنفيذ فكرتها بإصرار حتى دون الرجوع إلى القوى منذ البداية . ورأت بريطانيا العظمى ، التى كانت تتوقع العداء من جانب فرنسا ، نظراً لأنه لم يكن قد تم الجلاء عن مصر بعد ، أن من الحكمة ، حفاظاً على وضعها ، أن يكون الإتفاق المقترح ماثلاً لما تم إيرامه من قبل مع المؤسسات المصرفية ، وأن تطلب إلى القوى الموافقة عليه على وجه السرعة . وهذا ما حدث . فقد وجه كل من السادة روتشيلد وبلايخرودر وهوسمان والحكومة المصرية خطاباً دورياً إلى القوى جاء فيه : "عقب مفاوضات متعددة وقعت حكومة صاحب السمو مع مجموعة من رجال البنوك عقداً تعهد بمقتضاه السادة روتشيلد وبلايخرودر وهوسمان باستبدال الدين الممتاز ٥٪ بسندات ٤٪ ، وسداد القرض المصدر فى سنة ١٨٨٨ بفائدة ٥٪ وبأن يضعوا تحت تصرف الحكومة المصرية فعلياً مبلغاً قدره ١ ٢٠٠ ٠٠٠ جنيه . وستقوم الحكومة المصرية بإصدار سندات بفائدة ٤٪ بمقدار رأس المال اللازم ، تحل نهائياً محل السندات الحالية للدين الممتاز ٥٪ وتقوم مقامها ."

وضغطت الحكومة على القوى قائلة إن رجال البنوك لن يظلوا ملتزمين بالعقد إذا لم تصلهم موافقة الحكومة عليه قبل نهاية شهر يونيو .

وكان مبلغ الـ ١ ٢٠٠ ٠٠٠ جنيه مخصصاً لخدمة الحكومة على النحو نفسه الذى خصص به قرض سنة ١٨٨٨ البالغ قيمته مليون جنيه . وقدرت الوفورات التى يحققها هذا الاستبدال ، كما جاء فى المذكرة المرفقة بهذا الخطاب الدورى ، بمبلغ ٤٣٣ ١٥٩ ٠٠٠ جنيه .

وأخذت انجلترا زمام المبادرة فى التفاوض على هذا القرض . ولم تثر القوى ، بخلاف فرنسا ، أية صعوبات للموافقة على هذا المشروع . وقد وجد المسيو سبولر ، وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت ، الفرصة سانحة حينئذ لاستئناف المفاوضات المتعلقة بالجلاء . فقد كتب فى الأول من يونيو سنة ١٨٨٩ إلى المسيو وادينجتون

قائلاً " لم يحدث من قبل أن بحثت الشؤون المالية في مصر بمعزل عن الشؤون السياسية . وليس هناك اليوم ، أكثر من أي وقت مضى ، أي مبرر لمثل هذه التفرقة لأن مشروع الاستبدال إنما هو دليل ساطع على التقدم الذي أحرزته مصر سواء من حيث النظام السياسي أو النظام الاقتصادي . ويبدو إذن أن الوقت قد حان لكي تنفذ إنجلترا وعودها بالجلء ، تلك الوعود التي كررتها لنا مراراً . " وردا على ذلك يخاطب اللورد سالزبوري المسيو واينجتون ، سفير فرنسا في لندن ، قائلاً : " إن الرخاء النسبي الذي بلغته مصر بدافع منا لن يستمر بالتأكيد إذا غادرنا هذا البلد في الوقت الحاضر . وإذا ما أعلننا عن مغادرتنا له عما قريب فإن الاستبدال يصبح مستحيلاً " . وترجع الحقيقة النسبية في رد اللورد سالزبوري إلى الوضع التفضيلي الذي وضعت فيه إنجلترا الأجانب في مصر : فالإنجليز يأتون أولاً ثم يأتي بعدهم الأوروبيون الآخرون ، أما المصريين ففي المحل الأخير ؟ ولم يرض فرنسا هذا الرد وبالتالي لم تعط موافقتها على الاستبدال . لكن مثل هذا الأمر البسيط لم يكن ليثبط من عزيمة إنجلترا ، لاسيما وأن فكرة البقاء نهائياً في مصر كانت قد ترسخت في أذهان رجال الدولة الإنجليز . وحتى يمكن إجبار فرنسا "جأت إنجلترا إلى وسيلة نجحت مراراً في استخدامها من قبل وهي أن تستتر وراء الحكومة المصرية"^(١) . وكان الغاء السخرة نهائياً^(٢) أمراً يجرى التفكير فيه في ذلك الوقت . وأرادت الإدارة الانجليزية أن تستفيد من ذلك لطلب الاستبدال من جديد . وبدأت الحكومة بأن طلبت إلى صندوق الدين الاذن بفرض ضريبة مقدارها أربعة قروش ونصف قرش للفدان لتحصيل ما مجموعه ١٥٠ ٠٠٠ جنيه أصبحت لازمة لتنفيذ الأعمال التي كانت تتم حتى الآن عن طريق السخرة . وكتب رياض باشا ، ناظر النظار ، بعد ذلك إلى قنصل فرنسا في القاهرة لابلأغه أن الحكومة ستعدل عن هذه الضريبة الجديدة لأن الوفورات التي ينتظر أن يحققها الاستبدال ستسمح بمواجهة هذه النفقات . وكان ذلك مخلصاً وضع للحكومة الفرنسية . فبعد بضعة أيام ، في ١٨ ديسمبر ، طلب رياض باشا إلى مجلس شوري النواب التصويت على هذه الضريبة الجديدة بمبلغ ١٥٠ ٠٠٠ جنيه من أجل

(١) انظر كوتريس . ص ٢٤٠

(٢) كان الغاء السخرة حريماً قد بدأ منذ سنة ١٨٨٨

الغاء السخرة ، وذكر أن هذه الضريبة لن يتم تحصيلها فى حالة موافقة فرنسا على الاستبدال ، طالما أنه فى هذه الحالة ستسمح الوفورات بإيجاد المبلغ اللازم الذى نحتاج اليه . ولم يتأثر المسيو سبولر اطلاقا بهذه الاعتبارات الانسانية^(١) . وما من شك فى سلامة هذا الاجراء على نحو ما أشار إلى ذلك المسيو دى أوبينى أكثر من مرة . ولكن استخدامه من أجل انتزاع موافقة فرنسا على الاستبدال لم يكن من شأنه أن يشجع المسيو سبولر على ابداء هذه الموافقة . لذا أجاب المسيو سبولر على طلب الحكومة المصرية ، الذى قصد به الضغط على الحكومة الفرنسية للتعجيل بموافقتها على الاستبدال ، قائلا أنه سيعطى موافقته إذا ما كانت الوفورات المحققة ستستخدم أولا لزيادة عدد أفراد الجيش المصرى لتمكينه من الدفاع عن البلاد من جهة الجنوب^(٢) بعد مغادرة القوات الانجليزية وثانيا فى الأشغال العامة التى تقرها لجنة انجليزية - فرنسية مشتركة . ورفضت الحكومة المصرية ، بإيعاز من انجلترا ، هذا الاقتراح رفضا قاطعا . وبالتالي أوقفت الحكومة الفرنسية المفاوضات حول اجراء الاستبدال .

وكانت حكومة الخديوى فى احتياج إلى مزيد من النقود ، لذا كان لابد من مواصلة العمل فى منشآت الرى التى خصص لها مليون جنيه من القرض المضمون و ٧٥٠.٠٠٠ جنيه من قرض ١٨٨٨ بفائدة ٤ ٪ . وما دام السلطان قد أذن فى سنة ١٨٨٨ بخمسة ملايين ، وكان الاقتراض قد تم فى حدود مليونين فقط ، فقد وجه وزير المالية فى ٨ يناير سنة ١٨٩٠ رسالة إلى مفوضى صندوق الدين للحصول على اذنه باصدار قرض آخر بمبلغ ١ ٧٥٠.٠٠٠ جنيه من ضمن هذه الملايين الخمسة لاستكمال العمل فى منشآت الرى والصرف . ورد المفوضون على ذلك برسالة نصحوا فيها الحكومة ، بالرغم من موافقتهم على طلبها ، بالتريث حتى تنتهى المحادثات حول الاستبدال .

وفى ١٤ مارس سنة ١٨٩٠ تغيرت الحكومة الفرنسية وحل المسيو ريبو محل المسيو سبولر ؛ بوصفه وزيرا للخارجية .

(١) انظر كوشريس ، المرحع السابق ، ص ٢٤٠ .

(٢) ذلك أن أحد الأسباب التى احتجت بها انجلترا حول مخاطر جلائها عن مصر كان ذلك الخطر الذى تمثله المهديّة .

وطرحت ، أثناء المحادثات حول استبدال الدين الممتاز ٥٪ ، مشروعات لاستبدال دين الدومين ودين الدائرة ، حيث كان من المزمع استبدال دين الدومين الذى تصل فائدته إلى ٥٪ إلى دين دومين بفائدة ٤٪ ، وتخفيض دين الدائرة ذى الفائدة ٤٪ بحيث تسدد سندات أو يستبدل فى حدود نسبة ٨٠٪ بسندات أخرى للدائرة أيضا . وقد وجدت فرنسا هذه النسبة منخفضة للغاية . صحيح أنها كانت هى النسبة المحددة للاهلاك ، ولكن فرنسا كانت تعتقد أن من العدل أن يكون الاستبدال بنسبة ٨٥٪ . ولعل سلامة رأى فرنسا هذا كانت موضع شك . فما دامت نسبة الاهلاك ، أى السداد ، هى ٨٠٪ فلم لا تكون هى أيضا نسبة الاستبدال . وكانت الحكومة المصرية ، تحت وصاية انجلترا ، أبعد ما يكون عن اشارة الصعوبات أمام اقتراح فرنسا . فقد كانت شديدة الحرص على انتهاء عملية الاستبدال إلى حد أنها قبلت دون مناقشة نسبة الـ ٨٥٪ لدين الدائرة .

وفى ٣ مايو سنة ١٨٩٠ ، كتب المسيو ريبو إلى المسيو دى أوبيني قائلا : " فنحن اذن على استعداد للترخيص به (الاستبدال) على ألا يشمل فقط الدين الممتاز ، وفقا لرغبة حكومة الخديوى ، بل كذلك دين الدومين ودين الدائرة وقرض سنة ١٨٨٨ " . وبعد بضعة أيام وصل تيجران باشا ، ناظر المالية المصرى ، يصحبه المستر بالمر ، المستشار الانجليزى لدى وزارة المالية ، إلى باريس واتفقا مع المسيو ريبو على مشروع المرسوم الذى يصدر بشأن استبدال الديون الأربعة . وفيما يلى نص المادة الأولى من هذا المرسوم :

"يرخص لناظر ماليتنا فى :

- إصدار فرض ممتاز بفائدة لا تتجاوز ٤٪ فى حدود المبلغ اللازم لما يلى :
- أ - استبدال السندات المتداولة حاليا للدين الممتاز بفائدة ٥٪ أو سدادها نقدا بقيمتها الاسمية .
- ب - سداد السندات المتداولة حاليا لقرض ٥٠٪ الصاخر بموجب المرسوم المؤرخ ٣٠ أبريل ١٨٨٨ نقدا بقيمتها الاسمية .
- ج - توفير مبلغ صاف قدره ١٠٠٠٠٠٠ ر ٣٠٠٠ جنيه مصرى لاستخدامه على النحو المبين فى المادة ١١ من هذا المرسوم (منشآت الرى والصرف واستبدال المعاشات) .

د - لتوفير المبلغ اللازم لتغطية النفقات التي تتكبدتها حكومتنا لتنفيذ الأعمال المنصوص عليها في هذه المادة .

٢ - إصدار قرض دومين بنسبة لا تتجاوز ٤٪ في حدود المبلغ اللازم لاستبدال سندات للدومين ٥٪ التي لا تزال متداولة ، أو سدادها نقدا بقيمتها الاسمية ، وكذلك تلك التي تم استبدالها قبل صدور هذا المرسوم بموارد غير تلك الناتجة من التصرف في الممتلكات .

٣ - إصدار قرض للدائرة السنوية بنسبة لا تتجاوز ٤٪ في حدود المبلغ اللازم لاستبدال السندات المتداولة حاليا من الدين العمومي للدائرة السنوية أو سدادها نقدا في حدود ٨٥٪ في الحاليتين " .

على أن استبدال هذه الديون لم يغير شيئا من وضعها السابق . ويبرز هذا النص ، الذي أدخل على المرسوم عمدا ، الفكرة الفرنسية التي كانت مصممة على أن تظل الإدارة الدولية للسكك الحديدية وللدومين وللدائرة السنوية على ما هي عليه . وكان مشروع الحكومة المصرية ، بل قل المشروع الانجليزي المصري ، يرمى إلى ادماج الديون كلها في دين واحد، ولكنه لم يقبل .

لذا بقيت خدمة دين الدائرة وديون الدومين على ما كانت عليه من قبل . وكان على ادارة كل منهما أن تضطلع بهذه الخدمة . لكن تعديلا أدخل في هذا الشأن مقتضاه أنه لا يجوز أن يزيد ناتج بيع أملاك الدائرة ، الذي سيظل مخصصا لاهلاك هذه الديون وحدها ، في المتوسط عن ٣٠٠ ٠٠٠ جنيه مصرى سنويا . ولا يكون لهذا النص أى أثر بعد خمسة عشر عاما أى في سنة ١٩٠٥ .

أما بالنسبة إلى الدين الممتاز فقد أدخل عليه تغيير ملحوظ يرجع إلى تغيير الغرض من هذا الدين ؛ إذ أضيف إليه القرض المصدر سنة ١٨٨٨ بفائدة ٤٪ ، ومبلغ ١ ٣٠٠ ٠٠٠ جنيه الخاصة بمنشآت الري . وقد أضيف إلى الـ ٨٦ ٩٦٩ ٠٨٦ جنيه مصرى ، قيمة القسط السنوى للدين الممتاز قبل الاستبدال ، ما يلى : (١) مبلغ ١٣٠ ٠٠٠ جنيه كانت مخصصة لخدمة قرض سنة ١٨٨٨ و (٢) مبلغ مساو لفائدة القرض المصدر بمقتضى هذا المرسوم وقدره ١٣٠ ٠٠٠ جنيه . ويخصم هذان المبلغان الأخيران من ميزانية المصروفات الادارية . (ونلاحظ هنا

بشكل عابر أن هذه الميزانية زادت في سنة ١٨٨٨ بمبلغ ٢٥٠ ٠٠٠ جنيه خصصت جزئيا للقيام بالأعمال التي كانت تتم من قبل بالسخرة) .

ويخصص من القيمة الاجمالية لهذه المبالغ الثلاثة القسط السنوى اللازم لسداد الفوائد ولاهلاك الدين الممتاز الجديد . ويسلم الباقي إلى صندوق الدين على سبيل الوديعة .

وتسلم كذلك إلى صندوق الدين على سبيل الوديعة الوفورات الناجمة عن استبدال دين الدومين ودين الدائرة . "ويتم الاتفاق فيما بعد بين الحكومة المصرية والقوى التي وافقت على المرسوم الحالى على كيفية استخدام هذه المبالغ المسلمة على سبيل الوديعة " . وإلى أن يتم هذا الاتفاق يوظف مفوضو الصندوق هذه الودائع فى سندات الدين المصرى بحيث تضاف فوائدها إلى الوديعة وتخصص للاستخدام نفسه .

وتتناول المادة التاسعة إهلاك الدين المضمون والدين الموحد ودين الدومين . ويخصص من فوائض الميزانية المخصصة بمقتضى مرسوم ٢٧ يوليو ١٨٨٥ لاهلاك الديون ما يلزم لاهلاك القرض المضمون وذلك فى حدود ٨٧ ٧٥٠ ٠٠٠ جنيه مصرى (٩٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه إنجليزى) . ومع مراعاة ما نص عليه مرسوم سنة ١٨٨٨ الذى أنشئ بمقتضاه الصندوق الاحتياطى (من أنه لا يجرى الاهلاك الا بعد انشاء هذا الصندوق وفى حدود ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه) يستخدم ما يزيد على ذلك ، فى حدود تسعة أعشاره لإهلاك الدين الموحد ، وفى حدود العشر لاهلاك دين الدومين . ويتم ذلك عن طريق اعادة الشراء بالقيمة الاسمية، وفيما جاوز ذلك يتم الإهلاك بطريق القرعة .

وبعد هذا القبول من جانب فرنسا صدر مرسومان فى ٦ و ٧ يونيو ١٨٩٠ . ورخص مرسوم السابع من يونيو فى اصدار قرض بمبلغ ٢٩ ٤٠٠ ٠٠٠ جنيه بفائدة ٣% خصص لاستبدال الدين الممتاز ، ولسداد قرض سنة ١٨٨٨ ذى الفائدة ٤% ، ولتوفير مبلغ ١ ٣٠٠ ٠٠٠ جنيه اللازمة لمنشآت الرى واستبدال المعاشات ٠٠ الخ . وبلغت نسبة الاصدار ٩٣% وكلف به السادة روتشيلد وبلايخرودر . ويتم الاهلاك اما عن طريق اعادة الشراء أو القرعة وينتهى فى سنة ١٩٤١ ، ولكن لا يجوز سداد القرض قبل سنة ١٩٠٥ . وينص مرسوم السادس من

يونيو على اصدار قرض جديد للدائرة السنوية بفائدة ٤٪ بمقدار المبلغ اللازم لسداد أو استبدال الدين القديم وذلك في حدود ٨٥٪ منه . ووصل المبلغ اللازم لذلك إلى ٧ ٢٨٠ ٠٠٠ جنيه . على أن دين الدومين ، على الرغم من أنه كان داخلا في الترتيب الذى تم مع فرنسا ونص عليه مرسوم ٦ يونيو ، فإنه لم يستبدل الا فى سنة ١٨٩٣ . وينص المرسوم الصادر فى ١٨ مارس ١٨٩٣ على هذا الاستبدال ، وحددت الفائدة السنوية لقرض الدومين الجديد بنسبة ٢٥٪ مخالفا بذلك القاعدة التى يتضمنها الترتيب الذى تم مع فرنسا . وتودع الوفورات الناجمة عن هذا الاستبدال فى صندوق الدين ، حيث ظلت وديعة عنده حتى سنة ١٩٠٤ (١) .

ومن ثم فإن الدين الموحد ، الذى كان يشكل أكثر من نصف اجمالى الدين المصرى ، لم يجر استبداله . وكانت الحكومة المصرية تتطلع إلى الوفورات التى يمكن أن يحققها لها هذا الاستبدال . لذا أبلغت القوى فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٤ بعزمها على استبداله .

وأحدث ذلك صدمة لدى الدائنين والرأى العام فى فرنسا وانجلترا فاعتراضوا على حق الحكومة المصرية فى اجراء هذا الاستبدال (٢) .

(١) فيما يلى بيان وضع الدين المصرى قبل وبعد الاستبدال :

سنة ١٨٩١	سنة ١٨٩٢	
٨ ٩٩١ ٠٠٠	٩ ١١١ ١٠٠	الدين المصنوع
٢٩ ٤٠٠ ٠٠٠	٢٢ ٢٩٦ ٨٠٠	الدين للمتار
٥٥ ٩٨٦ ٠٠٠	٥٥ ٩٨٨ ٩٢٠	الدين للوحد
٤ ٨٤٥ ٠٠٠	٥ ١٣٧ ٤٤٠	دين الدومين
٧ ٢٣٦ ٠٠٠	٨ ٥٨٧ ٤٨٠	دين الدائرة
-	٢ ٢٦٨ ٩٠٠ (٤٠٪)	دين سنة ١٨٨٨
١٠٦ ٤٥٨ ٠٠٠	١٠٣ ٣٩٠ ٦٤٠	الخمسون

(٢) نشرت "ذى ايكوبوست" الصادرة فى لندن فى ١٤ ابريل سنة ١٨٩٤ ما يلى : "ان الداء الذى وجهه عدد من أعضاء بورصة الأوراق المالية الى مجلس حملة السندات الأحبية للحصول على تأييده بعية مقاومة مشروع استبدال الدين المصرى الموحد حدير بأن يحظى برد ايجابى ، لأن ما تقترح الحكومة المصرية القيام به ليس الا محاولة للاحتجاج بأخطائها السابقة لتتزع من دائنيها تنازلات جديدة . فوفقا لقانون التصفية كان سعر الفائدة على هذا القرض فى الأصل ٧٪ وقد خفض بصورة تصفية الى ٤٪ ومن الغنى عن الذكر أن مصر استمدت من هذا التخفيض استعادة كبيرة ، الأمر الذى ساهم فى ازدهارها المالى الحالى . وهى تربد اليوم ، بعد أن بلغت هذا الازدهار ، احراء تغيير جوهرى ، فهى تتعافى عن أنها لم تف فى الماضى بالتزاماتها . وترغم أن حالتها المالية أضعفت من القوة بما يكون من العت مع أن نتوقع أن تقوم بسداد بسة الفوائد المخفضة نفسها . ويعتبر ذلك بمثابة الأخذ ، فى تسوية التزامات دولة مدينة تجاه دائنيها ، بالمثل القائل : الخاسر كاسب .

وكتب المسيو دى روزاس قائلا " إن الحكومة المصرية ليست حرة فى استبدال الدين الموحد لسبب وجيه وهو أنه ليس من حقها أن تفرض السداد على دانتيتها^(١) . فلماذا لا يكون لها مثل هذا الحق إذن ؟ أليس مرخصا لموزير المالية ، بحكم المراسيم السابقة ، بأن يدفع إلى صندوق الدين جميع المبالغ التى قد تكون متاحة لديه لاستخدامها ، بعد تكوين الرصيد الاحتياطى ، فى اهلاك الديون ؟ ومن ثم اضطر المسيو دى روزاس إلى انتهاء كلامه بالقول بإمكان حدوث الاستبدال شريطة موافقة القوى عليه . والواقع أنه لم يكن بوسعهم أن يقول غير ذلك . فإذا كان دين الدائرة ، الذى كان قد مر بالمراحل نفسها التى مر بها الدين الموحد ، قابلا للاستبدال ، فلم لا يكون الدين الموحد قابلا له كذلك ؟ بل اننى أزعم أنه ليس من حق القوى أن تفرض الموافقة على الاستبدال . فموافقة صندوق الدين ، وموافقة القوى فى بعض الأحيان ، لازمة حين تكون مصر راغبة فى الاقتراض ، فلا يمكن منعها من القيام بذلك لأنها لا تمس حقوق دانتيتها بأى شكل ، وأنها لا تفعل أكثر من استخدام حقها هى ، حق المدين فى سداد الدين بالكامل إلى الدائن فى الوقت الذى يريده . على أن هذا التفكير لم يحل دون اخفاق المحاولة التى قامت بها الحكومة المصرية . وكان السبب فى ذلك ، بالإضافة إلى مصالح الدائنين ، النزاعات السياسية التى كانت قائمة بين فرنسا وانجلترا . واضطرت مصر بسبب هذه النزاعات إلى الاستمرار فى تحمل عبء سنوى مقداره ٢٧٥ ٠٠٠ جنيه كان يمكن أن يؤدى تقليل الفوائد التى تدفعها على الدين الموحد إلى توفيره .

واحتفظ صندوق الدين بالرصيد الاحتياطى العام (الذى أنشئ بموجب مرسوم ٣٠ أبريل سنة ١٨٨٨) ، وبالرصيد الاحتياطى الخاص (الذى أدى إليه تراكم حصة الحكومة فى الفوائد التى ظلت تحت تصرفها) وبالوفورات التى تحققت من الاستبدال . وبلغ رصيد الصندوق الاحتياطى العام فى سنة ١٨٩١ مبلغ ٨٢٢ ٠٠٠ ١ جنيه ، ورصيد الصندوق الخاص ٦٦٥ ٠٠٠ جنيه . وفى سنة ١٨٩٦ بلغ رصيد الاحتياطى العام ٨٣٣ ٠٠٠ ٢ جنيه ورصيد الاحتياطى الخاص ٤٧١ ٠٠٠ جنيه ووفورات الاستبدال ٨٥٣ ٠٠٠ ١ جنيه . وكانت الحكومة المصرية ترمع فى ذلك

(١) أنظر مجلة القانون الدولى العام ، الباب الثانى ، ص ٢٣٤ .

لوقت إعادة غزو السودان بمساعدة القوات البريطانية . وكانت تلك فكرة انجلترا بغية تعزيز وضعها في وادي النيل . ولكن الهدف المعلن للحملة كان هو حماية حدود مصر من جهة الحبشة . واقتضت هذه الحملة تكاليف طلب إلى الاحتياطي العام تحملها من رصيده .

ولكن انجلترا كانت تستشعر المعارضة التي يمكن أن يبديها المفوض الفرنسي لمثل هذه المحاولة . لذا رجعت إلى فرنسا مباشرة تطلب مساعدتها اقتناعا منها بأن موافقة الحكومة الفرنسية على فكرة الحملة ستسمح باستقطاع مبلغ الـ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه التي كانت لازمة لها دون صعوبة . لكن فرنسا ، بدلا من تحبيذ هذه الفكرة ، أدانتها^(١) . على أن انجلترا أصرت مع ذلك على موقفها وطلبت إلى مفوضي صندوق الدين باسم الحكومة المصرية الموافقة على استقطاع هذا المبلغ .

وفي ٢٦ مارس سنة ١٨٩٦ ، صوتت اللجنة بأغلبية أربعة من بين ستة أصوات (بعد أن انسحب المفوضان الفرنسي والروسي) على استقطاع المبلغ المطلوب . وفي اليوم نفسه وجه هذان المفوضان احتجاجا إلى وزير المالية على قرار زملاتهما . واعترضت جماعة حملة سندات الدين الموحد ، في اليوم نفسه على ذلك ، وحظرت على الحكومة اصدار مرسوم في هذا الشأن وحظرت على المفوضين

(١) أعلن مسيو بيوتلو ، وزير خارجية فرنسا ، في البرلمان يوم ١٩ مارس سنة ١٨٩٦ ما يلي . "تلقت الحكومة الفرنسية اخطارا من الحكومة البريطانية يتعلق بمشروع قيام الجيش المصري بحملة على دنقلة وبالمصرومات التي تتطلبها تلك الحملة . وتقرح الحكومة البريطانية لمراجعة هذه المقامات خصم مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جني من حساب الاحتياطي العام للخزينة المصرية . وهي بحاجة في ذلك إلى تصريح لجنة الدين وطلبت مساعدة الحكومة الفرنسية في ذلك . ومثل هذا المشروع من شأنه أن يثير أشد الاعتراضات . فهو ، من الناحية المالية ، يعرض للخطر بشكل مباشر مصالح حملة سندات الدين التي يوحد ثلاثة أرباعها بين أيدي مواطنين فرنسيين نظرا لتخصيص رصيد احتياطي له ويسبب المخاطر التي يمكن أن تنجم عن الانفاق على مثل هذه الحملة على مالية مصر . والواقع أن هذه الحملة ، التي تتسم أساسا بطابع عدواني وغير محدد تحديدا سليما ، يمكن أن تؤدي إلى نفقات لا حدود لها قد تستغرق ليس فقط الـ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه المطلوبة ولكن أيضا مبالغ أخرى قد تستغرق الرصيد الاحتياطي كله وربما تعارزته . وفي مثل هذه الظروف المالية فإن الاقتراح المقدم اليسا يتطلب الموافقة الإجمالية للفرى . كما أن هذه الموافقة لازمة كذلك من الناحية السياسية ، نظرا لما تؤدي إليه مثل هذه الحملة من تعمير عميق وغير متوقع في الظروف الحالية لاحتلال مصر ، فضلا عما قد تجلبه على هذا البلد من مخاطر لا تهدده مثلها في الوقت الحاضر .

دفع أى مبلغ من أجل حملة السودان خصما من الرصيد الاحتياطي^(١) . لكن المفوضين دفعوا على الرغم من ذلك . وكانت المسألة التى برزت حينئذ ، والتى كان لا بد أن تطرح على المحكمة لحلها ، هى معرفة ما اذا كانت قرارات لجنة الدين يجب أن تتخذ بالاجماع أم أن الأغلبية المطلقة تكون كافية . ورأى المفوض الفرنسى ، وزميله الروسى معه ، أن الاجماع ضرورى . والحجة التى استندا اليها ، تأييدا لهذا رأى ، هى أن الصندوق "باعتباره تجمعا لممثلى القوى الأوروبية فانه ، على غرار ما يحدث فى المؤتمرات الدبلوماسية ، لا يمكن للأغلبية فيه أن تفرض رأيها على الأقلية"^(٢) . وقد أخذت المحكمة فى هذا الموضوع بهذا رأى . وألزمت الحكومة المصرية بأن تسدد المبلغ المستقطع إلى صندوق الدين . وازاء هذا الحكم قدمت انجلترا المبلغ إلى حكومة الخديوى فى شكل حساب جار وسمحت للحكومة بذلك بالخروج على وصاية اللجنة . وقد تخلت انجلترا فى وقت لاحق عن المطالبة بهذا المبلغ لصالح مصر .

وبعد أن مرت حادثة سنة ١٨٩٦ هذه ، ران الصمت على شئون مصر المالية . وظلت تسير فى طريقها العادى حتى سنة ١٩٠٤ .

وخلال الفترة الممتدة من سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٩٠٤ كان لصندوق الدين ، فيما يتعلق بمالية مصر ، سلطة مطلقة . واستخدمت ادارة الصندوق هذه السلطة بمهارة شديدة . ويعزى اليها الكثير فى نهضة مصر . فقد كانت تتظر دائما بعين الرعاية إلى الاصلاحات اللازمة للبلاد وتساعد فيها بقدر الامكان .

وبعد سنة ١٨٩٦ لم يعد دور الصندوق بارزا كما كان من قبل . فقد تباعدت عنه الحكومة المصرية شيئا ما ، ووجد مفوضو صندوق الدين أنفسهم مضطرين للاكتفاء بمراقبة مصالح الدائنين . وكان السبب وراء ذلك هو الدبلوماسية الأوروبية . فلما أيدت المحكمة المختلطة فكرة الاجماع فى اتخاذ قرارات اللجنة ، ولم يكن

(١) ذكر المستر كيرزون فى مجلس العموم فى ٢٦ مارس : "أن بعض الفرنسيين من حائزى سندات الدين المصرى ، وجهوا الى معوضى صندوق الدين ، بواسطة المحاكم المختلطة ، احتجاجا على أية مدفوعات يقومون بها خصما من الرصيد الاحتياطي لمواجاة مصروفات الحملة ، وأعلنوهم بالحضور أمام هذه المحاكم يوم ٢٣ أبريل " .

(٢) أنظر Politis ، صندوق الدين المصرى ، مجلة القانون الدولى العام ، ١٨٩٦ ، ص ٢٤٨ .

الأعضاء على رأى واحد فى النظر إلى الأحداث . بل انه كانت هناك خلافات بين دولهم ، فقد كان من الصعب حقا أن يتفقوا جميعا على قرار معين . وظلت الأمور تسيير على هذا النحو إلى أن جاء تصريح سنة ١٩٠٤ فعدل الأوضاع القائمة .

الفصل الثامن

اتفاق سنة ١٩٠٤

لم يبد لشئون مصر المالية أى أثر فى الدبلوماسية بعد سنة ١٨٩٦ . فقد سارت الأمور فى الاطار المرسوم لها بموجب الاتفاقيات والمراسيم . وارتفع رصيد الحساب الاحتياطى من ١ ٨٢٢ ٠٠٠ جنيه فى سنة ١٨٩١ إلى ٣ ٥٢٣ ٠٠٠ جنيه فى سنة ١٩٠٠ ، واتجه نحو الانخفاض بعد ذلك ، ففى سنة ١٩٠٢ بلغ ٢ ٩٣١ ٠٠٠ جنيه وفى نهاية ١٩٠٣ بلغ ٢ ٧٦٠ ٧٥٠ جنيه . بينما وصل فى ٣١ ديسمبر ١٩٠٤ إلى ٣ ١٨٥ ٠٩٤ جنيهها . وزادت الوفورات الناجمة عن الاستبدال من مليون ونصف المليون فى سنة ١٨٩٦ إلى ٥ ٥٠٧ ٠٥٥ جنيه فى سنة ١٩٠٣ لتصل إلى ٣٤٥ ٠٣١ ٦ جنيه فى نهاية سنة ١٩٠٤ . أما من الناحية السياسية ، فإلى جانب ما حدث خلال سنة ١٨٩٦ ، كان هناك حدث آخر هو حملة دنقلة التى أدت إلى تثبيت وضع الاحتلال الإنجليزى فى وادى النيل . وعلى الرغم من أن النجاح الذى أحرزته جماعة حملة سندات الدين الموحد كان بمثابة نجاح للسياسة الفرنسية ، فقد كانت هناك كذلك حادثة فاشودة . ذلك أن فرنسا أرادت أن تثير من جديد المسألة المصرية ، فبعثت الكابتن مارشان لاحتلال فاشودة . واحتجت إنجلترا وازداد الموقف خطورة إلى حد الاعتقاد بوقوع الحرب بين الدولتين . لكن المسألة تم حلها سلميا وسحبت فرنسا قواتها فأرضت بذلك إنجلترا .

وفى هذا العام نفسه ، عام ١٨٩٨ ، فى الحادى والعشرين من يناير ، أبرم عقد بين الحكومة المصرية وشركة الدائرة Daira Company ، تعهدت هذه الشركة بمقتضاه بانتهاء الدين العام للدائرة بالكامل قبل ١٥ أكتوبر ١٩٠٥ . وكان من المقرر ان يقسم الفائض الناتج من بيع أملاك الدائرة بين هذه الشركة والحكومة المصرية . لم يطرأ شيء آخر فيما يتعلق بالدين المصرى . وكان صندوق الدين لا يزال مشغولا بمراقبة المصالح التى كلف بمراقبتها وباستخدام الأموال المودعة لديه فى شراء سندات الدين المصرى . وتراكمت الوفورات الناجمة عن الاستبدال دون أن يكون فى الامكان المساس بها .

وبدأت فرنسا ، بعد سنة ١٨٩٨ ، تشعر بالسأم من الحملة التي تقوم بها ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر . وكانت ترمع ، في ذلك الوقت ، أن تتوسع في الحماية الفرنسية لتمدها إلى مراكش . ولم يكن من شأن التوتر القائم بينها وبين بريطانيا العظمى حينئذ أن يبسر الأمور ، بل كان من الممكن أن تتفجر نزاعات حادة اذا ما ظلت الدولتان على هذا الموقف العدائي .

وإذ كانت الأحداث تساعد على ذلك ، بدأ التقارب بين الجانبين بغية التوصل إلى اتفاق يضع حدا للاستفزازات غير المجدية^(١) . وتم حل نقاط الخلاف بالتحكيم ، وحلت المسألة المصرية ، التي كانت تشغل كلا من البلدين ، حلا مؤقتا . فقد صرحت الحكومة البريطانية أنه ليس في عزمها تغيير الوضع السياسي لمصر ، وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها بعدم وضع العقوبات التي يمكن أن تضر بوضع بريطانيا العظمى في مصر . وقد سحب هذا التصريح ، الصادر في ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ ، ملحق هو مشروع المرسوم الذي صدر عن الخديوي في ٢٨ نوفمبر من هذا العام نفسه . ويحل هذا المرسوم ، باعتباره ميثاقا ماليا لمصر محل قانون التصفية الصادر

(١) يقول المسير دى فريسنييه : "بعد فاشودة ران الصمت على مصر . فقد كان الاعتزاز بالنفس من جانب ، واللياقة من جانب آخر ، يحولان دون استئناف طرح الأمر . ولكن الناس بدأوا يتساءلون عما اذا كان ينبغي لأحداث من هذا النوع أن تقضى إلى تناهد شعبي تدعو لأسباب عديدة إلى تقاربهما ، وتنداحل مصالحهما معا ويمكن أن يكون لاتفاقهما تأثير باق على السلام العام . وطلت فرسا أنها كانت تلعب ، منذ عشرين عاما ، دورا في غير صالحها . لقد كانت بالفعل حامية للحقوق ولكنها لم تنجح في ذلك . وطلت مطالبتها في مصر بعير نتيجة . واد قررت ألا تش الحرب لسبب يعتبر رغم كل شيء ثانويا ، فأنها لم تكن لتحقيق ما تريد الا بالسوء الأخلاقي ، اذا ما ضمت أوروبا صوتها إليها . على أن أوروبا لم تؤيدها أبدا ، وكانت فيما يبدو تنتظر غير مسالة نتيجة للمساعى التي تتم بعمرل عنها . ولم تكن هذه المساعى تفشل فحسب ، بل انها كانت تعقد بانتظام من هيبتها . بل انها كانت في النهاية ستؤدي إلى قطيعة غير محمودة . ألم يكن الوقت قد حان لاتباع ما يقتضيه السلوك العادي ، وترك تلك الحقوق التي لا تراعى فيها ساكنة دون التضحية بها ، والسير مع التيار الطبيعي الذي كان يدفع بهاتين الأمتين الكبيرتين الواحدة نحو الأخرى .

"وبرهت إنجلترا من حانها على أنها كانت تمدها مشاعر ودية صادقة ، وأنه أارجائها حل المسألة المصرية وتركها للمستقبل ، كانت على استعداد لتقديم تنازلات عادلة لاعادة الوفاق القديم . فهي لم تكتف بالاشارة إلى تلك المشاعر في التقارير الدبلوماسية السرية بل انها أعلنتها على الملأ . فقد حرصت على أن تؤكد علنا تقديرها السامي للجمهورية الفرنسية . وذكر الملك ادوارد - بحق - الاستقبال الذي لقيه أمير ويلز في باريس . فقد نعمت ريارته للسيد لوبيه في سنة ١٩٠٣ من القلب وكانت دليلا على عقلية واعية . وكان رد رئيس الجمهورية على لندن ، ومعاهدة التحكيم بين وراوتي الخارجية ، شاهدي صدق على حسن الموايا ينتظر ترجمته إلى اتفاقات عملية حادة . ذلك هو جوهر الاتفاقية الفرنسية الانجليزية المبرمة في ٨ أبريل ١٩٠٤ والتي استهدفت القضاء على نقاط الخلاف بين الحكومتين وعصمت جزءا مهما منها للمسألة المصرية"

(انظر : دى فريسنييه ، للمرجع السابق ، ص ٤٢١ - ٤٢٣ ، كرومر ، للمرجع السابق ، ص ٧٦٣)

في سنة ١٨٨٠ واتفاقية لندن لسنة ١٨٨٥ . وهو يحزر مصر من المراقبة الصارمة التي يمارسها صندوق الدين . فقد كان يساور انجلترا الضيق بسبب شعورها بأنها تحت المراقبة . وكانت مصر ، في الوقت نفسه ، بحاجة إلى رؤوس الأموال الضخمة الموجودة لدى الصندوق . وطالما أنه لم يكن من الممكن المساس بهذه الأموال دون موافقة المفوضين ، إذ كانت مدرجة في حساب الاحتياطي العام ، ودون اتفاق القوى في شأن الوفورات الناجمة عن الاستبدال فإن إجراء الإصلاحات كان يتأثر بذلك ^(١) .

وليس من المفهوم أن تضطر دولة لديها الملايين كاحتياطي في خزينتها إلى الاقتراض من أجل القيام بإصلاحات لا جدال في فائدتها . لذلك لم تواجه إنجلترا صعوبة في اقناع فرنسا بذلك . ولكن الحكومة الفرنسية لم تتس مبادئها السابقة . فقد كانت لا تزال حريصة على الحفاظ على مصالح الدائنين . ومن ثم نص المرسوم الملحق بالتصريح على أن يظل هناك رصيد احتياطي قدره ١ ٨٠٠ ٠٠٠ جنيه تحت تصرف صندوق الدين . وهذا الرصيد الاحتياطي سيكون بمثابة ضمان للخدمة السنوية للدين . وإلى جانب الرصيد الاحتياطي أنشأ المرسوم حساباً لرأس المال العامل بمبلغ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه . يقول اللورد كرومر "الأ أنه نظراً لأن هناك مدفوعات كبيرة يجب أن تتم في أبريل ومايو لحساب الدين ، وأن القسم الأكبر من الضريبة العقارية لا يحصل إلا في وقت لاحق ، فإن ذلك يقتضى ، ما لم يوضع ترتيب خاص آخر ، السحب من الرصيد الاحتياطي في فصل الربيع من كل عام على أن يرد إليه المبلغ المسحوب بعد ذلك . وللتغلب على هذا العائق فقد تم الاتفاق بين الحكومة المصرية ومفوضي صندوق الدين على ترتيب يبدأ بمقتضاه هؤلاء المفوضين برصيد لحساب رأس المال العامل مقداره ١ ٢٥٠ ٠٠٠ جنيه تقريباً بدلاً من ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه كما ينص عليه المرسوم" . وبالتالي فإن "سندات الدين العام والمبالغ النقدية المودعة لدى الصندوق والخاصة بالرصيد الاحتياطي ، والوفورات التي تتحقق كنتيجة للاستبدال سوف يفرج عنها كلية وتسدد إلى وزارة المالية ، بعد استقطاع المبلغ الذي يكفي

(١) كتب المركز دى لاسدون في ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ يقول : "بما أدت التطورات إلى سرعة تعديل وضع مصر الدولي ، فإن النظام المالي والإداري السائد فيها هو بقية من بقايا نظام لم يعد موجوداً ، ليس نظاماً بالياً وحسب ولكنه نظام مليء بأساس الضيق لجميع المعنيين به . وهو يقوم على أساس نصوص قانون التصفية المفصل والمعد الصادر سنة ١٨٨٠ واتفاقية لندن لسنة ١٨٨٥ . ومع التحسن المالي والمادى الذى طرأ فى مصر فإن هذه النصوص أصبحت عسراً معوقاً بدلاً من أن تكون عاملاً مساعداً على تنمية موارد البلاد" .

لاستكمال الرصيد الاحتياطي ورصيد حساب رأس المال العامل" (المادة ٥٢ من المرسوم). وبذلك يكون قد تم تذليل الصعوبة التي ظهرت وقت الاستبدال . وسوف يتخلى صندوق الدين ، طبقا لما ينص عليه المرسوم ، عن مهامه المتعلقة بالشئون المالية لمصر بحيث تقتصر مهامه على خدمة الدين ، وبعبارة أخرى فإنه سيتراجع ليعود إلى الحدود التي وضعها له مرسوم الثانى من مايو سنة ١٨٧٦ الذى أنشئ الصندوق بمقتضاه . وفى نفس الوقت تسترد الحكومة حريتها فى الشئون المالية . وتلغى بالتالى جميع القيود التى فرضها قانون التصفية ، والنصوص اللاحقة له ، على المصروفات الادارية للدولة. بل ان مرسوم سنة ١٩٠٤ يذهب إلى أبعد من ذلك . فقد ألزمت المادة التاسعة من مرسوم سنة ١٨٧٦ الحكومة بعدم ابرام أى قرض الا بعد الحصول على موافقة مفوضى صندوق الدين . وبمقتضى مرسوم سنة ١٩٠٤ تصبح الحكومة حرة فى ابرام القروض دون الرجوع إلى اللجنة للحصول على موافقتها . بذلك اقتصرت مهام لجنة الدين على "جمع الأموال اللازمة لخدمة الفوائد واهلاك الديون المضمونة والممتازة والموحدة ، واستخدام هذه الأموال وفقا لنصوص قانون سنة ١٩٠٤ . وتستطيع ، فضلا عن ذلك ، توظيف الأموال الموجودة لديها فى سندات الدين المصرى . " وتتخذ لجنة الدين قراراتها بالأغلبية المطلقة لأعضائها . (المادة ٢٨) .

وقد تزايدت حرية الحكومة المصرية فيما يتعلق بضمانات الدين العام (أى الديون المضمونة والممتازة والموحدة) . وتم الافراج عن الضرائب العديدة التى كانت مخصصة من قبل للدين ونص المرسوم على أن يحل محلها "إجمالى الناتج من الضرائب العقارية (فيما عدا الضرائب على أشجار النخيل) فى جميع أقاليم مصر باستثناء قنا ، التى تضمن الضريبة العقارية فيها قرض الدومين . واذا لم تكن هذه الضرائب كافية ، فان موارد الخزائنة العامة هى التى تضمن خدمة الدين . وقد لوحظ فى المادة (٣٠) أن حصيلة هذه الضرائب كانت تبلغ فى وقت صدور المرسوم ٢٠٠ ٠٠٠ ٤ ، وأن خدمة الدين ، بما فى ذلك نفقات الصندوق (التي تبلغ ٣٠٠٠ جنيه مصري) ، تحتاج إلى مبلغ ٣ ٦٠٠ ٠٠٠ جنيه سنويا تقريبا . " ولا يجوز للحكومة (م ٣٦) بغير موافقة القوى المعنية تعديل الضرائب العقارية بما يؤدى إلى تخفيض حصيلتها إلى أقل من ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه" ويسدد المحاسبون المسؤولون حصيلة

الضريبة إلى الصندوق في حدود المبلغ اللازم لخدمة الدين ، ويقومون بعد ذلك بسداد الباقي إلى وزارة المالية . وفي حالة عدم كفاية الإيرادات المخصصة لخدمة الدين تلجأ اللجنة إلى الرصيد الاحتياطي "شريطة أن يعاد استكمال هذا الرصيد من أول إيرادات تتلقاها وتكون متاحة لهذا الغرض" .

وتشمل خدمة الدين العام القسط السنوي للضمان وفوائد الدين الممتاز والدين الموحد . ويشمل القسط السنوي للضمان (٣١٥ ٠٠٠ جنيه) جزءا خصص للاهلاك . ولا يمكن استخدام أية أموال أخرى لأغراض اهلاك الديون أو لسداد أى منها قبل ١٥ يوليو ١٩١٠ . وبدءا من هذا التاريخ سيكون للحكومة كامل الحرية في سداد ديونها بقيمتها الاسمية . ويجوز لها أن تسدد أية مبالغ متوفرة بين يديها إلى صندوق الدين لاستخدامها في الاهلاك . ويتم الاهلاك بالشراء بسعر السوق في حدود القيمة الاسمية وبالقرعة فيما جاوز ذلك .

وفيما يتعلق بديون الدومين والدائرة السنوية فان المرسوم لا يدخل أية تعديلات على وضعها السابق ، الا أنه لم يعد يحدد المبلغ الذى يمكن أن ينتج من المبيعات والذى سيخصص لاهلاك الدين . بل على العكس ، فهو يحدد تاريخ الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩٠٥ ، باعتباره التاريخ الذى يمكن أن يبدأ فيه سداد دين الدائرة بقيمته الاسمية ، وتاريخ الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩١٥ لتسديد دين الدومين بقيمته الاسمية أيضا . وكما سبق أن ذكرنا فان شركة الدائرة قد تعهدت بسداد كامل دين الدائرة بحلول الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩٠٥ .

وبالفعل فان الدين كان قد انقضى تماما في ذلك الوقت . كما أن دين الدومين كان في طريقه إلى الانخفاض بشكل ملحوظ . وبلغت القيمة الاجمالية لسندات دين الدومين التى كانت بين أيدي الجمهور في الأول من يناير سنة ١٩١٠ مبلغ ٦١٨ ٠٠٠ جنيه . وكان قد تم خلال سنة ١٩١٠ استهلاك سندات قيمتها ١٧٢ ٠٠٠ جنيه ، أى أنه لم يبق من دين الدومين في بداية سنة ١٩١١ الا ٤٤٦ ٠٠٠ جنيه . وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن اهلاك هذه القيمة لن يستغرق أكثر من سنتين .

ويحل مرسوم سنة ١٩٠٤ هذا محل جميع القوانين والمراسيم السابقة ويبسط بشكل واضح الأوضاع المالية المصرية . فبدلا من التعقيد الذى كان قائما حتى هذا التاريخ ، والذي نتج عن الوضع الشائك الذى كانت تتسم به شئون مصر المالية من

قبل ، نجد أنفسنا أمام تشريع بسيط وشبه طبيعي . فهو يلغى الإدارات الدولية فيما عدا صندوق الدين الذى ظل قائما بمقتضى المادة ١٢ من المرسوم إلى حين اهلاك الدين بالكامل ، ويلغى إدارات الدومين والدائرة . فادارة الدائرة ، بحكم أنه لم يعد هناك مبرر لوجودها اختفت من الوجود منذ سنة ١٩٠٥ . وسوف تختفى كذلك عما قريب ادارة الدومين.

ومع ذلك فان حرية مصر فى الشئون المالية ليست كاملة بعد . فقد نص تصريح لندن ، فى شأن هذا المرسوم ، على أنه "لا يجوز ، بعد أن يصبح هذا المرسوم سارى المفعول ، اجراء أى تعديل فيه دون موافقة القوى الموقعة على اتفاقية لندن لسنة ١٨٨٥" . وهذا النص ، بحكم طبيعته ، يلنا على أن المسألة المصرية لا تزال ، على الرغم من الاتفاقية ، مسألة دولية . وكل الذى أمكن عمله هو "ترك حقوق جميع الأمم فى مصر ساكنة دون التضحية بها" . على أية حال فاننا على استعداد للقبول بهذا التصريح باعتباره حلا مؤقتا للمسألة . وهناك محل للتساؤل عما اذا كان حق مصر فى ابرام القروض لا زال ، رغم تخلى القوى المذكورة عنه ، خاضعا لموافقة الباب العالى . ونحن نعرف أنه خلال المفاوضات التى مهدت لاصدار فرمان سنة ١٨٧٩ كان السلطان حريصا على أن يحرم مصر حقها فى الاقتراض بغير اذن منه . وكان اصرار فرنسا داعيا له لمزيد من التشدد ، ومنحت مصر حرية نسبية فى هذا الشأن ؛ فهى تستطيع ابرام القروض "اللازمة فقط لتسوية أوضاعها المالية" دون اذن منه . ولكن أى قرض آخر يجب أن يخضع لموافقة السلطان .

يذكر بعض الكتاب أن هذا النص الذى جاء فى فرمان سنة ١٨٧٩ وضع لصالح الدائنين ، وما دام هؤلاء يرون أن وضع مصر مستقر ويكتفون بالضمانات العادية ، فان موافقة السلطان تصبح مجرد اجراء شكلي^(١) . ولا أستطيع أن أقطع برأى فى هذا الشأن . فقد كانت فكرة السلطان فى سنة ١٨٧٩ مختلفة تماما عن فكرة حماية دائنى مصر . كان يريد أن يسترد الحقوق التى اشتراها منه اسماعيل ، بقصد تجنب وقوع مصر فى أيد أجنبية . كان يرى بشكل واضح أن أوروبا لها مطامع استعمارية فى مصر . وترك هذه الولاية باستقلالها شبه الكامل كان يساوى فى نظره

^(١) أنظر لامبا ، القانون العام والإدارى فى مصر . ص ٢٩ Droit public et administratif de l'Egypte

حرمان تركيا منها نهائيا . وكانت هذه الفكرة هي المنشأ الذى نبئت منه التعديلات التى أدخلت على فرمان سنة ١٨٧٣ . ومن ثم يمكن أن نقول بأن السلطان لم تكن تساوره يوما فكرة حماية دلتى مصر .

ومن جهة أخرى فان تركيا تبدى دائما اهتمامها بحقوقها فى وادى النيل . صحيح أن وضع انجلترا القائم بحكم الأمر الواقع يفرض عليها الصمت أحيانا ، الا أن ذلك لا يعنى أنها تنسى سيادتها . واننى مقتنع بأنها لن تتخلى عن أية فرصة تحين لها لتأكيد حقوقها فى مصر اذا لم يؤد مثل هذا التصرف من جانبها إلى الاضرار بها . على أنه يمكن مع ذلك أن نعتبر أن حقوق تركيا قد أصبحت اسمية وأنه طالما ظل الوضع الحالى على ما هو عليه فانها لن تحتج بحقوقها على أى شىء قد يحدث فى مصر .

فمن الوجهة القانونية لا زال متعينا انن أن يعطى السلطان موافقته على أى قرض تجد مصر نفسها مضطرة لإبرامه . أما من الناحية الواقعية فان هذه الموافقة هى مجرد اجراء شكلى لا يستطيع جلالة السلطان رفضه . بل انه يمكن القول ، من الناحية الواقعية أيضا ، انه اجراء لا لزوم له . فقد أصدرت الحكومة المصرية فيما بين سنتى ١٩٠٢ و ١٩٠٤ سندات امتياز قيمتها ١ ٧٣٤ ٠٠٠ جنيه دون أن تطلب رأى الباب العالى ، وكان هذا المبلغ لازما لمصروفات السكك الحديدية . على أننى أعتقد مع ذلك أنه اذا ما لجأت الحكومة المصرية إلى إبرام قرض كبير فانها ستحرص على الحصول على اذن الحكومة التركية .

وعلى الرغم من أن تصريح سنة ١٩٠٤ هذا يلزم الحكومة البريطانية بعدم تغيير "الوضع الراهن" لمصر ، فما من شك فى أن المرسوم الملحق به قد أدخل تعديلات كبيرة على هذا الوضع . فقد تغير الوضع المالى تغييرا جذريا وتأثر الوضع السياسى نتيجة لذلك تأثيرا مباشرا . فبدلا من تلك الرقابة الدولية على ما تقوم به انجلترا فى وادى النيل ، تلك الرقابة التى تمارسها لجنة الدين والقوى نفسها ، وفرنسا بصفة خاصة ، أصبحت أيدى انجلترا حرة من أجل ادخال "الاصلاحات" اللازمة فى البلاد . وقد تعهدت ، منذ دخلت البلاد فى سنة ١٨٨٢ ، بالعمل على تقدمها . وقد تكون المهمة صعبة فعلا ، ولكن شرف انجلترا يرفض أن تتخلى عما بدأت به . فقد زالت بحكم هذه الاتفاقية الاستفزازات التى كان يثيرها الطابع العدائى الذى اتسمت به

علاقتها بفرنسا التي كانت تضع العراقيل في طريقها .يقول اللورد كرومر "من النادر أن يكون أى ترتيب مرضيا لجميع المعنيين به بشكل مباشر أو غير مباشر . وأعتقد أن هذا هو شأن هذه الاتفاقية . وفيما يتعلق بالمزايا التي يمكن أن يتوقعها منها سكان مصر ، سواء من الأوروبيين أو المصريين ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك شبهة شك حولها . ففضلا عن إلغاء القيود المالية التي لم يعد لها ضرورة بسبب تغير الظروف التي دعت إليها ، فإن من الملاحظ أن التقدم سيسير الآن في مصر ، أو هذا على الأقل هو المأمول ، دون أن تبطيء من خطاه المنافسات الدولية الشديدة التي كانت قائمة في الماضي"^(١).

ومن المؤسف بالنسبة لاجلئرا أن السنوات التي تلت عام ١٩٠٤ لم تكن كلها سنوات سعيدة . فالمضاربات التي قام بها المستشار المالي (الذى كان بطبيعة الحال انجليزيا) على السندات الأجنبية قد أخفقت ، وتحملت الحكومة المصرية ، التي لم تكن تعرف ما اذا كانت هذه المضاربة تتم لحسابها ، بالخسائر الناجمة عن ذلك . وفى سنة ١٩٠٧ نشبت في مصر أزمة مالية طاحنة . ونظرا لأن التدخل الأوروبي ترك مصر تحت رحمة رأس المال الأجنبي فقد انهالت عليها المأسى والخراب ، ولازال الآلاف من سكان مصر يعانون من آثار تلك الأزمة حتى اليوم .

ومع ذلك فإن الدين المصرى لم يتأثر سلبا بهذه الأحداث . فقد ازدادت الثقة في ثروة مصر ، وبحرص الحكومة المصرية حرصا شديدا على الوفاء بكل تعهداتها الدولية . والسياسة الانجليزية معنية بهذا الجانب من شئون مصر عناية شديدة كذلك .

وفيما يلى بيان بحالة الدين المصرى منذ تصريح سنة ١٩٠٤ حتى يومنا هذا :

دين الدين العام الموجودة لدى الجمهور بالجنيه	السندات الموجودة لدى الصندوق بالجنيه	دين الدومين بالجنيه	٣١ ديسمبر
٩٢ ٣٥٨ ٠٦٠	٨ ٩١٧ ٢٨٠	١ ٧٤٩ ٠٠٠	١٩٠٤
٨٧ ٧١٤ ٠٠٠	٨ ٧٧٠ ٠٠٠	١ ٥٣٤ ٣٨٥	١٩٠٥
٨٧ ٤١٦ ٠٠٠	٨ ٧٦٥ ٠٠٠	١ ٣١٥ ٦٩٢	١٩٠٦
٨٧ ٤٤٨ ٠٠٠	٨ ٣٨٦ ٠٠٠	١ ٠٣٤ ٦٦٦	١٩٠٧
٨٩ ٤١٤ ٠٠٠	٦ ٠٩٩ ٠٠٠	٧٩٧ ٠٨٢	١٩٠٨
٨٩ ٢٣٦ ٠٠٠	٦ ٠٠٨ ٠٠٠	٦١٨ ٠٠٠	١٩٠٩
٨٩ ١٥١ ٠٦٠	٥ ٨٢١ ٠٠٠	٤٤٦ ٠٠٠	١٩١٠

^(١) كرومر ، Egypt ، الجزء الأول ، ١٩٠٤ : التقرير ص ٤ .

ويتضح من هذا الجدول أن اهلاك الدين العام يسير ببطء إلى حد ما . والسبب في ذلك أن الحكومة لم تكن حرة في سداد الدين الممتاز والدين المضمون الا ابتداء من ١٥ أكتوبر ١٩١٠ ، وأنها لا تستطيع سداد الدين الموحد قبل ١٥ أكتوبر ١٩١٢ . ومن جهة أخرى فإن الحكومة المصرية تفضل أن يكون لديها أموال احتياطية لمواجهة الأحداث الطارئة بدلا من اللجوء إلى قروض جديدة قد لا تتمكن من ابرامها بنفس شروط الدين الحالي . لذا فإن من المتوقع أن لا يتم سداد الديون الممتازة والموحدة قبل وقت طويل . أما الدين المضمون فعلى العكس ، حيث سيتم سداذه بالكامل قبل سنة ١٩٤٢ بفضل الجزء المخصص لاهلاكه من قسطه السنوى .

وقد أثيرت ، بعد الفراغ من تصريح سنة ١٩٠٤ ، مسألة ما اذا كان من الأفضل إلغاء صندوق الدين العام ما دام أنه لم يعد له مهمة محددة يقوم بها ؟ قيل عندئذ أنه ما دام هذا التصريح يعد دليلا على ثقة القوى الأطراف فيه بمالية مصر وادارتها ، فلماذا تظل قائمة مؤسسة كان مبرر وجودها الصعوبات المالية وسوء ادارة شئون البلاد ؟ . ولماذا يسمح للمفوضين بالبقاء هناك دون عمل و "مجرد أن ينعموا بكسلهم" ، فى الوقت الذى تستطيع فيه الحكومة المصرية القيام بمهام اللجنة ، التى أصبحت محدودة للغاية ، دون تحمل النفقات التى يتطلبها وجود الصندوق . صحيح أن اللجنة كانت نافعة للغاية قبل سنة ١٩٠٤ ، ولكنها لا تستطيع أن تكون كذلك بعدها .

والواقع أن اختصاصات الصندوق التى نص عليها مرسوم ٢٨ نوفمبر كانت ضئيلة . ويمكن أن تقوم بها بسهولة وزارة المالية . ولكن للمسألة جانبا سياسيا عمد إلى اغفاله أولئك الذين يريدون إلغاء الصندوق . فرغم اعتراف القوى بملاءة مصر فى الوقت الحاضر ، فإنها تساورها دوما فكرة أن مصر بلد دولى . ومن ثم فلا تستطيع أن تتخلى عن الاهتمام به . وهى تريد أن تكون ممثلة فيه دائما من خلال جهاز معنى بالادارة الداخلية . ومن هنا فإنه لا يمكن إلغاء لجنة الدين .

وقد مر الدين المصرى منذ نشأته حتى الآن بثلاث مراحل مختلفة : الأولى مرحلة التحسس والفوضىى والتى تمتد من سنة ١٨٥٤ إلى سنة ١٨٧٦ ، والثانية مرحلة جهود أوروبا للمحافظة بأى ثمن على حقوق الدائنين والتى تمتد من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٩٠٤ ، والثالثة تتمثل فى النظام الحالي ، نظام حرية الحكومة المصرية .

والوضع الراهن للدين المصرى يدعو إلى الاطمئنان الشديد . وهو من أحسن المجالات التى يمكن أن توظف فيه الأموال . وتتجه قيمة السندات دائما إلى الارتفاع وتعد من أفضل السندات الدولية . ويرجع ذلك إلى أن مصر بلد يسوده الاستقرار ويسير فى طريق النمو الذى ينتظر ان تصبح معه البلاد أكثر رخاء .

خاتمة

بعد أن استعرضنا تاريخ الدين المصرى خلال خمسين عاما ، وبعد أن تكونت لدينا فكرة عن تطور مصر من الناحية المالية ، وإلى حد ما من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، يمكننا أن نسأل : ماهو وضع مصر الزامن ؟ وأين تقف من هذا التطور الذى أستمّر طوال نصف القرن الأخير ، سواء كان تطورا مفروضا عليها أم كان تطورا طبيعيا ؟ . كانت نتيجة هذه السلسلة الطويلة من الأحداث والمعاملات ، كما يقول الأستاذ أرمانيون ، وضع مصر موضع التبعية للخارج ، لبس فقط من الناحيتين المالية والسياسية ، بل وكذلك من الناحية الاقتصادية . وهى إذ أصبحت تحمل عبء دين خارجى ضخّم نسبيا فإنه يتعين عليها بالطبع سداد أقساطه المتأخرة عن طريق صادراتها . ومن جهة أخرى فإن الاحتياجات الجديدة التى ظهرت لدى الشعب المصرى ، على مختلف درجات السلم الاجتماعى ، أدت إلى تبعية للصناعة الأوروبية . ومن هنا اكتسبت التجارة الخارجية لهذا البلد أهمية غير عادية^(١) .

لذلك ، فإن اسم مصر اليوم لم يعد يذكر فقط بوادى النيل ، لكنه يشير كذلك إلى بلد له علاقاته الخارجية السياسية منها والاقتصادية . فقد أقامت مصر صلات ببلدان أخرى فرضت عليها وجودا يتجاوز قدراتها .

إن إصرار أوروبا على التدخل فى شئون مصر كانت تمليه - بالتأكيد - الأسباب سالفة الذكر . وعلى الرغم من القبول بهذا التدخل باعتباره أمرا واقعا كانت له مبرراته إزاء التبذير الذى أخذ به نظام الخديوى إسماعيل ، فلا مناص من الاعتراف بأنه كان تدخلا بالغ الأثنية ، بلغ فى أنانيته حد الظلم بل والظلم المثير ؛ فلنذكر فى هذا المقام التعويضات التى خصصت لضحايا قصف الإسكندرية ، والديون التى قبلتها لجنة التصفية . وفى كلتا الحالتين يظهر الظلم صارخا واضحا للعيان ، مما لم يسع معه المسيو دوكلير إلا أن يعلن أن الدولة ليست مسئولة عن الأضرار التى تحدث نتيجة للثورة ، كما سبق أن ذكرنا^(٢) .

^(١) أرمانيون ١١ "الوضع الإقتصادى والمالى لمصر" ص ٥٥

^(٢) أنظر الفصل السادس

وقد أدى هذا التدخل إلى ظهور الوضع الحالى فى مصر ، والذى سيعمل قائما ، على الرغم من غرابته وشذوذه ، إلى أن يأتى اليوم الذى تقع فيه أحداث غير متوقعة فتقلبه رأسا على عقب . فلنبحث الآن ماهية هذا الوضع من جوانبه الثلاثة : السياسى والمالى والإقتصادى^(١) .

أولا - الوضع السياسى:

بعد أن كانت مصر مجرد ولاية تركية متمتعة بحكم ذاتى داخلى محدود للغاية ، اكتسبت مصر اليوم أستقلالاً كاملاً تتمتع به مع مراعاة نصائح إنجلترا ، التى هى ملزمة فى الحقيقة باتباعها . وتبلغ هذه النصائح للحكومة المصرية بواسطة مجموعة كبيرة من الموظفين الإنجليز الذين يشكلون سلماً إدارياً يوجد على قمته القنصل العام لبريطانيا العظمى ، الذى يتلقى أوامر مباشرة من حكومته . أما فيما يتعلق باستقلالها الخارجى فإن مصر بعد أن كانت فى الماضى تابعة لتركيا فقط ، فقد أصبحت تتبع اليوم - أولا - تركيا و - ثانيا - التجمع الأوروبى و - ثالثاً - إنجلترا . فهى تابعة أسمياً لتركيا التى تعتبر مصالحها فى نظر القوى الأخرى غير ذات بال مقارنة بمصالحهم . وإذا ما تعارضت حقوق تركيا مع مصالح أوروبا أو إنجلترا ، فإن الحقوق التركية تهمل إهمالاً تاماً وترجح المصالح الأوروبية دائماً . والأحداث تدل على ذلك بوضوح ؛ فلنذكر بمسألة الجلاء عن السودان واسترداده ، واتفاقية سنة ١٨٩٩ بشأن تقسيم السودان بين مصر وبريطانيا العظمى ، وحياد مصر فى الحرب الإيطالية التركية . وقد جاء هذا الوضع السياسى لمصر نتيجة حتمية للأحداث . فقد منح سعيد امتياز قناة السويس لمسيو دى ليسبس ففتح بذلك أمام فرنسا باب التدخل القائم على المصلحة ، ودعى الأجانب الآخرين كذلك إلى التغلغل فى مصر . أما إسماعيل فهو الصانع الحقيقى للوضع الحالى . كان يريد الانفصال عن تركيا ، ولكن بصيرته لم تسعفه لكى يرى أن ذلك سيؤدى به أيضاً إلى الارتقاء فى أحضان أوروبا . ولعله كان يمكن أن ينجح بشكل أفضل لو كانت هناك سياسة واضحة فى ذهنه . ولكن الأمر - وبكل أسف - لم يكن كذلك . فوضعه كخديو

(١) تناولها "الأمر الواقع" .

مستتير - كما كانت تصفه الصحف الأوروبية - ونفاق حاشيته ، حالا بينه وبين أن يرى المصير البشع الذى كان ينتظره . فيوم خلع إسماعيل كانت مصر مستقلة استقلالاً شبه كامل عن تركيا ، ولكنها خضعت - ولزمن طويل - للنير الأوروبى الذى أثقل كاهلها خاصة أن الأجنبى كان يفرض عليها أعباء باهظة . وكان لابد لهذا الوضع الذى تولد عنه العداء بين تركيا وأوروبا أن يودى إلى تفجير النزاع بينهما ، بل وتفجر هذا النزاع بالفعل . وكان من الطبيعى أن تتفوق أوروبا على غريمتها . وبذلك أصبحت مصر تابعة للسياسة الأوروبية أكثر من أى وقت مضى . واستمر هذا الوضع ثلاث سنوات استاء المصريون فى نهايتها وقاموا بالثورة . وسنحت أمام انجلترا الفرصة التى كانت تنتظرها للتدخل ، وأدى تدخلها إلى أن يكون لها الوضع الراجح فى مصر .

ثانيا - الوضع المالى:

تشهد مصر فى الوقت الحاضر عهدا من الإزدهار من الناحية المالية . ويدعو كل شىء إلى الاعتقاد بأن هذا الإزدهار سوف يتزايد . فلمصر ميزانية متوازنة بشكل جيد ، بل ان هذه الميزانية تسفر دائما عن فائض فى الإيرادات ، ولكن من المؤسف أنه لا توجد فى مصر سوق مالية مصرية . فعمليات بورصة الأسكندرية تكاد تكون كلها قاصرة على الأجانب ، ولذلك فان سنداتها تدرج ضمن "السندات الدولية" . فما السبب فى ذلك ؟ . يرجع ذلك إلى حد ما إلى أن المصريين لم يعتادوا التعامل فى القيم المنقولة ، ولكنه يرجع بقدر أكبر إلى أن الأجانب يتمتعون بحماية بلادهم ويستطيعون مطالبة الحكومة المصرية بضمانات لا تقدم مثلها بطبيعة الحال إلى المصريين أنفسهم . فلقد رأينا أنه منذ سنة ١٨٧٦ كان الشغل الشاغل للقوى الأوروبية هو حماية مصالح رعاياها بصورة جدية ، ولاسيما من كان منهم دائنا للدولة . وتسهر لجنة الدين ، التى تمثل القوى الست الكبرى ، بصفتها الممثل القانونى للدائنين ، على أن تحفظ لهم حقوقهم كاملة . وكلما طرأ تعديل على هذه الحقوق ، ولو كان تعديلا قانونيا ، فان القوى الكبرى تتدخل فورا بهدف حماية مصالح رعاياها . لقد فشلت عملية استبدال الدين الموحد ، الذى يشكل أكثر من نصف الدين المصرى ، لمجرد أن هذا الاستبدال لم يكن فى صالح حملة السندات . وفى مثل هذه الظروف فان المصريين

لا يستطيعون مقاومة المنافسة التي يفرضها عليهم الأجانب . وهذا هو السبب الذي من أجله أصبحت هذه السندات سندات دولية . وهذا السبب نفسه هو الذي من أجله أصبحت السوق المالية في مصر سوقا دولية .

يؤدى ذلك إلى تراجع دور المصريين ليكونوا مجرد مزارعين ومجرد منتجين للمواد الأولية . وهم يكتفون بهذا الوضع ، بل يتمسكون به بدافع الغريزة الطبيعية التي تميز الانسان وتدعوه للالتصاق بمسقط رأسه . ويكفى أن نعرف شيئا بسيطا عن المصريين لنفهم السبب في أنهم يستقبلون الأجنبي الذي يأتي للاستقرار في بلادهم على النحو الذي يستقبلونه به باعتبار أنهم هم أصحاب الأرض . وقليلون منهم هم أولئك الذين يريدون خوض مجال التجارة على نطاق واسع ، وأقل من هؤلاء من يعرفون شئون المضاربات في البورصة أو الذين يحرصون على إمتلاك القيم المنقولة .

وقد نتج عن ذلك تراكم الأصول الرأسمالية في أيد أجنبية . ووصل الحال إلى حد أن المصريين الذين يرغبون في المشاركة في الشئون المالية لبلادهم يبعدون عن ذلك بعنف نتيجة لمنافسة الأجانب لهم بعد أن أصبح لهم ، فضلا عن الحماية التي يتمتعون بها ، السيطرة الكاملة على الوضع . لقد ظهرت في العام الماضى ١٩١١ ، لدى بعض الأعيان المصريين فكرة إقامة بنك وطنى مصرى ، تلك الفكرة التي راودت ذهن إسماعيل من قبل عام ١٨٧٦ ، لكن الصعوبة الأولى التي قامت في وجه تنفيذ مثل هذه الفكرة هي منافسة البنوك الأوروبية القائمة والتي تثير القلق الشديد حتى اليوم .

ومن هنا أدى التدخل الأوروبى ، بمحabbاته للأوروبيين في مصر ، إلى نتيجة ضارة للغاية وهي عدم استطاعة المصريين القيام بالإصلاحات التي يرون أنها ضرورية لبلادهم وذلك بسبب المنافسة الأجنبية . والحكومة المصرية ، مدفوعة بأسباب لا تمت للوطنية بصلة ، لا تفعل شيئا لتصحيح هذا الوضع . ولذا فطالما ظل الوضع الحالى في مصر على ما هو عليه فإن وضعها المالى سيظل على ما هو عليه أيضا وستظل سوقها المالية سوقا دولية .

ثالثا - الوضع الاقتصادى

تكمُن ثروة مصر - حتى الآن - فى خصوبة أرضها . وقد أحرزت البلاد تقدما ملحوظا حقا فى مجال الزراعة ولا تزال تربتها تَبْشُر بالكثير . والغالبية العظمى من سكانها المحليين ، سبعة ملايين من بين اثني عشر مليوناً ، يحرثون الأرض . لكنها لا تكاد توجد فيها أية صناعة . فقيما عدا بعض المصانع التى يتم فيها تحويل المواد الأولية القطنية أو بعض العمليات الصناعية الأخرى فلا نجد فيها إلا بعض الصناعات اليدوية الصغيرة . وتعتمد مصر على أوروبا فى كل احتياجاتها الصناعية واحتياجاتها من المنتجات تامة الصنع .. الخ . والمصانع كلها ملك للأجانب . وقد بذل بعض صغار رجال الصناعة جهودا من أجل إدخال الصناعات الكبرى فى مصر ، ولكنهم تراجعوا أمام الضرائب الضخمة التى فرضتها عليهم الحكومة التى وصلت إلى ٨ ٪ .

ومن الناحية الزراعية فإن الحياة الاقتصادية لمصر قد أصبحت كلها تقريبا بأيدي الأوروبيين . على "أنه توجد طبقة من صغار التجار لا تزال مصرية . ويرجع السبب فى بقائها حرة ووطنية إلى طبيعة عملها ذاته . فالتصالح المستمر بالسكان المحليين سمح لها بالألا تتعرض لمنافسة العنصر الأوروبى لها .

وتكفى نظرة بسيطة على هذا الوضع لتبين كيف أن العنصر الوطنى المصرى أصبح محصورا فى حدود ضيقة للغاية وأصبح يواجه ، إذا حاول الخروج عليها ، بعقبات بالغة الجدية . والواقع أن مصر تكافح لليوم من أجل البقاء بل بالأحرى حتى لا تموت . صحيح أنها تكافح بشجاعة ، ولكن العنصر الأجنبى ، هذا المنافس العنيد ، يسعى أكثر فأكثر إلى حبس المصريين على الرقعة الزراعية حتى يظلوا يحرثون الأرض فحسب ، وحتى يظلوا مجرد فلاحين . ومن ذا يعلم ؟ فقد يكون من الممكن فى مستقبل غير بعيد أن يأتى أجانب آخرون ، الصينيون مثلا ، كما قيل فى عهد إسماعيل ، لمنافسة المصريين على أرضهم الزراعية . وقد لا يكون من المستحيل ، إزاء سلبية الحكومة فيما يتعلق بمصالح السكان المحليين ، أن ينجح الصينيون فى ذلك . وأعتقد أن الأجانب فى مصر أصبح لديهم بالفعل من القوة الطبيعية والمعنوية بما لا حاجة لهم معه إلى الحماية . فهم يستطيعون بضربة واحدة ، ودون أى تحرك من جانب الأسطول الإنگليزى أو الأسطول الفرنسى ، أن يسلبوا الحركة الاقتصادية

للبلاد ، مما يكفى بذاته للدلالة على أنهم لم يعودوا يحتاجون إلى هذه الحماية الشديدة التى كانوا يتمتعون بها من قبل . فإذا كان الأمر كذلك فإن ما يجب أن تقوم به أوروبا هو أن تدع المصريين يعيشون ، يوفرون لأنفسهم وسائل الحماية ، ويحققون لبلادهم النمو فى حدود إمكانياتهم .

لقد حقق التدخل الأوروبى من سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٨٨٢ ، والاحتلال الإنجليزى منذ سنة ١٨٨٢ حتى الآن ، أمورا كثيرة فى صالح البلاد ولكنهما كانا فى الوقت نفسه ، بحكم طبيعتهما وبحكم دوافعهما المتمثلة فى حماية مصالح الأوروبيين ، وبحكم الأسلوب الذى اتبعاه من الناحية العملية ، يحاييان الطوائف الأجنبية والتوسع فيها على حساب الاقتصاد الوطنى للبلاد.

ويبدو لى أن أفضل الحلول ، لتصحيح هذا الوضع من جميع النواحي ، يتمثل اليوم فى حياد مصر . فسيظل صندوق الدين قائما فى الحدود الموضوعه له فى مرسوم ٢٨ نوفمبر ١٩٠٤ حتى يتم اهلاك الدين بالكامل . والاستقلال الذاتى الخارجى الذى تنقاسمه الآن تركيا وأوروبا وإنجلترا يجب أن يعاد إلى مصر فى ظروف تسمح لها بالوفاء بتعهداتها الدولية وتكون متفقة مع حالة الحياد المطلق التى ستكون لها . وستظل قناة السويس على حيادها الدقيق الذى تراقبه هذه القوى . وبذلك يمكن حل المسألة المصرية ، التى ظلت الهم الشاغل لأوروبا طوال عشرين عاما ، حلا يحقق مصلحة الجميع . وليس لأوروبا أن تتضرر من هذا الحل ، فمصر ليست قادرة على منافسة الصناعة الأوروبية . وللطائفة الأجنبية فى مصر وضعها الواقعى المتميز بما لا يدع مجالا لها للشكوى من هذا الحل . ولهذه الطائفة نوع آخر من الحماية هو المحاكم المختلطة التى لا يمكن إلغاؤها إلا بموافقة تلك القوى . وسيظل طريق الهند مفتوحا دوما أمام إنجلترا . وسيحقق لمصر من وراء هذا الحل حماية ستعطيها دفعة لم تعرف مثلها من قبل . وستجد رؤوس الأموال المصرية ، التى ظلت غير منتجة وحبيسة خزائن أصحابها (كما لاحظ اللورد كرومر ذلك عدة مرات) ، سوقا تستغل فيه بما يحقق النفع للجميع .

الفهرس

الصفحة	
٥	تمهيد بقلم أحمد محمد حسين هيكمل
١١	مقدمة
٢٥	الفصل الأول : سعيد
٣١	الفصل الثاني : إسماعيل حتى سنة ١٨٧٦
٥١	الفصل الثالث : ١٨٧٦
٦٧	الفصل الرابع : اللجنة العليا للتحقيق
٨٥	الفصل الخامس : توفيق - قانون التصفية
١٠١	الفصل السادس : إتفاقية لندن
١١٧	الفصل السابع : الإستبدال
١٢٩	الفصل الثامن : إتفاق سنة ١٩٠٤
١٣٩	خاتمة

المشروع القومى للترجمة

أ. د. أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا
أ. أحمد قزاد بلبع	مادهو بانيكار جى. ام	الوثنية والإسلام
ت : شوقى جلال	جورج/ جيمس	التراث المسروق
ت : أحمد الحضرى	اتى كاريتنكوفا	كيف تتم كتابة السيناريو
ت : د. محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا فى غيبوبة
ت : د. سعد مصلوح/ د. وفاء كامل فايد	ميلكا إفتيش	اتجاهات البحث اللسانى
ت : يوسف الانطاكى	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة
ت : د. مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلوا الحرائق
ت : د. محمود محمد عاشور	أندرو س. جودى	التغيرات البيئية
ت : محمد معتصم وآخرون	جيرار جينيت	خطاب الحكاية
ت : د. محمد هناء عبدالفتاح	فيسوافا شمبيوريسكا	مختارات
ت : أحمد محمود	ديفيد برانستون وإيرين فرانك	طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسون سميث	ديانة الساميين
ت : حسن المودن	جان ييلمان نوبل	التحليل النفسى والأدب
ت : أشرف رفيق عفيفى	انوارد لويس سميث	حركات الفن المعاصر
ت : د. لطفى عبد الوهاب يحيى/ د. فاروق القاضى/ د. حسين الشيخ/ د. منيرة كروان/ د. عبد الوهاب علوب	مارتن برنال	أثنية السوداء
ت : محمد جمال عبد الرحيم		واحة سيوة وموسيقاها
ت : سيد توفيق	هانز جورج جادامر	تجلى الجميل
ت : د. إبراهيم الدسوقي شتا	جلال الدين الرومى	المتنوى
ت : د. بكر عباس	باتريك بارنر	ظلال المستقبل
		مصادر دراسة التاريخ الإسلامى
ت : د. حياة جاسم	والاس فاوتن	النظريات الحديثة للسرد
ت : خليل كفت	بول . ب . ديكسون	الأسطورة والحادثة

حسنى راتب
مشروع الثقافة

مختارات الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	فيليب لاركين مختارات	ت : د. محمد مصطفى بنوى ت : د. طلعت شاهين
الأعمال الكاملة قصة العلم	جورج سفيريس ج. ج. كرواثر	ت : د. تميم عطية ت : د. يمني طريف الخولي د. بنوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة مذكرات رحالة دين مصر العام التنوع البشرى الخلاق	صمد بهرنكى جون أنتيس محمد حسين هيكل	ت : د. ماجدة محمد على ت : د. سيد أحمد على الناصرى ت : أحمد محمد حسين هيكل ت : نخبة
الانقراض الرواية العربية الاغريق والحسد الموت والوجود نقد الحداثة التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية الأعمال الكاملة لسفيوليس رسالة فى التسامح	ديفيد روس روجر ألن بيتر والكوت	ت : د. مصطفى إبراهيم فهمى ت : د. حصة عبد الرحمن منيف ت : منيرة عبد المنعم كروان ت : بدر الديب ت : د. أنور مغيث ت : ا. أحمد بليغ ت : د. منى أبو سنة

المشروع القومى للترجمة (نحت الطبع)

قصائد حب
الدراما والتعليم
العلاج النفسى التدميمى
تاريخ النقد الأدبى الحديث
مصر الفرعونية
ت . س . إليوت
الرواية الاسبانوامريكية
ما بعد المركزية الأوروبية

حسن راتب
مشروع الثقافة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٥١١ / ١٩٩٧

الترقيم الدولي (I.S.B.N. 977-235-943-X)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٤٨٠٩ س ١٩٩٧ - ٣٠١٤



La Dette Publique Égyptienne

MOHAMED HUSSEIN HAEKAL

يتناول الدكتور محمد حسين هيكل في هذا الكتاب الجانب التاريخي السياسي لسالة الديون المصرية في عهد الخديوي إسماعيل . وقد كتبه باللغة الفرنسية كترجمة للدكتوراه قدمها إلى جامعة باريس في سنة ١٩١٢ . إذا كانت معرفة الماضي ، كما يقول ، هي التي تطوع لنا تشخيص الحاضر تصوير المستقبل ، فكان لا بد من ترجمة ما كتب ، وهو أحد أعلام التنوير في حياتنا الفكرية والثقافية على مدى نصف قرن ، لنستفيع به في تشخيص الحاضر وتصور المستقبل لأن الماضي والحاضر والمستقبل وحدة لا سبيل إلى انفصامها .

ويقول الدكتور هيكل في هذه الدراسة إنه «من سوء حظ مصر ، وكثير من البلدان الشرقية ، أنه يزداد لها أن تتبع نموذج الحضارة لا صلة لها به . أما دام هذا النهج الجديد مجهولاً بالنسبة إليها فإنها تضل طريقها فيه . بما كان يروج المصريون أن يوفقوا بين هذه الحضارة الجديدة الوافدة وبين حضارتهم لو أنهم أخذوا بها تدريجياً وتبعوا لتطورهم الخاص . أما وهم يخدعون أن من شبه المستحيل التفاهم مع أولئك الذين يفرضون عليهم هذا المثلث الجديد ، فإنهم يشعرون بالفزع الذي يفقدون معه الوعي بحراكهم الجماعي . وهذا هو حال مصر اليوم . والسبب في ذلك هو التدخل المفرط من جانب أوروبا . فالوظيفة الفعلية لهذا البلد ، شأنه في ذلك شأن العديد من المستعمرات الأوروبية ، هي أن يكون سوقاً للتجارة الأوروبية وأن يلبى احتياجات الصناعة الأوروبية من المواد الأولية وأن يوفر العمل المربح للأوروبيين الغشيين الذين يتكالبون على هذه الأرض الغنية التي تفيض حراستها على غير أبنائها .»